تأليف
عمر الصالح البيزنطي
달م إل طوطح
كتبت النسخة:
"الذين الدينية"
تاريخ فلسطين

تأليف
عمرا الصالح البقوني
خديجة طوطع

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

الناشر
كتبة الإسكندرية

422 بورسعيد - القاهرة
ت: 0599333720  فاكس: 0599333727
حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر
مكتبة الثقافة الجينية
بسم الله الرحمن الرحيم

اخمد الله رحب العالمين والصلاة والسلام على أفضل خلق البشر الصادق

الأمين، وبعد...

خير وصف لقضية فلسطين، توصف به في إيجاز، أنها مأساة، يتناسى
أهل الرأي في سياسة العالم كيف نشأت، فيعذر عليهم أن يهتدوا إلى حل لها.
والجمهور، في غير الشرق، لا يدرك عن قضية فلسطين إلا أن هناك شعبًا
أصيلًا، هو الشعب الفلسطيني العربي، يعلن أنه ظلم ولا يزال يظلم، وفي كل
يوم يأتي له طالبه بإعفافات جديدة، يصفها بأنها مسكات مؤقتة لمشكلة
مستعصية الجل.

وهناك مهاجرون يهود، يقيمون في فلسطين من نيف وعشر سنوات،
يقلون إن البلاد هي بلاد أجدادهم الأبدان. فهم إذن أهل البيت. أما الذين
ولدوا فيه، واستمروا فيه، بعد آبائهم وأجدادهم وأجداد أجدادهم، أجيالًا بعد
أجيال دون انقطاع، فهم في وطنهم، الذي لا وطن لهم غيره، غرباء عنه،
لأنهم ليسوا يهود. وما فلسطين إلا لليهود. لأن اليهود، قبل عهد المسيح، إذا
نشأوا في فلسطين!!

صحيح أنهم رحلوا عنها.

فأصبح منهم البريطاني الصرف والفرنسي الصرف والألماني الصرف.
والروسى الصرف. وهكذا. وأصبحوا، في البلاد التي رحلوا إليها، من أزمان بعيدة. يعتبرون فيها من المواطنين، يتمعنون، دون تقييز محجف بهم; يجميع الحقوق السياسية والمدنية والاجتماعية التي يتمتع بها إخوانهم المواطنين الآخرين، حتى إن كثيرين منهم تولوا في البلاد التي استقروا فيها رئاسة الوزراء.

إلا أن اليهود، دون غيرهم من المواطنين، يجب في نظر الصهيونيين أن يكون لكل فرد منهم، إلى جانب وظنه السياسي، الذي يشاطره إياه غيره من المواطنين، وطن روحى رمزي في فلسطين. لأن فلسطين هي أرض الميعاد بالنسبة لليهود. ينبغي أن تباح الهجرة إلى فلسطين لكل من يرغب في ذلك، مهما كانت جنسيته السياسية ولونه القومي، بشرط واحد أن يدين باليهودية في زمني باليهودية. وهذا، من الوجهة السياسية، استناداً إلى وثيقة صدرت من جانب واحد، هو جانب الحكومة البريطانية، عرفت "بتصرح بلفور" وسجلت فيما بعد في قرار أصدره مجلس "عصبة الأمم" بإثبات اندماج بريطانيا العظمى على فلسطين.

فلهذا نقدم للمكتبة العربية كتاباً جديداً وهو تاريخ فلسطين رداً على الإدعاءات الإسرائيلية، وعودة الحق لصاحبه، والله الموفق..

الناشر
مقدمة
لما رأينا الأمة العربية جادة في بناء جامعتها التي لا تقوم إلا بإحياء تاريخها
عمدنا إلى وضع تاريخ فلسطين لما له من الأهمية التاريخية ولأنه يجب على كل
إنسان أن يدرس تاريخ بلاده وأمه ثم تاريخ الأمم الأخرى وقد استطعنا في
البحث عن شرقي الأردن وسوريا والعراق والحجاز ومصر وما هبط إليها من
الأمم العربية ليستفيد منه الطلاب ويستعين به الأستاذ فلمن نertz في اختصار
الحوادث الأجنبية كما انا لم نسهم في تفصيل أخبار العرب ونفضنا فيه من
الروح الوطنية المفرغة في قالب التاريخ الذي كنا نظمه سهل المأخذ قريب
المتناول فالفيناة صعب المرام بعيد المان تعجز الأفكار عن إستجالة مشاكله
وتجمد القرائح في تدقيق متناقضه لا سيما أن تاريخ العرب عامضم لم ينخله
الناقدون وقد تخلله فترات من الزمن لم يسجلها المؤرخون ولم تكشفها
الحفرات والنقوش فلا جرم إن اشتبه علينا الخطا بالصواب لرغبنا في سرعة
إجازي لأنه مشجعة ماسة إليه وإنما شاكرنا كل من نهنا لإصلاح أو تكرر بمست
عورة فما الكمال إلا الله وترجوا الله أن يجي مواطننا منه نفعا وهو الموقف
للصواب.

" المؤلفان "

-5-
القسم الأول
في تاريخ فلسطين من بدائه حتى الفتح العربي الإسلامي
الفصل الأول
في تاريخها قبل الفتح اليهودي

(1) حدود فلسطين التاريخية والسياسية

ورد في التوراة عبارة تدل على حدي فلسطين الشمالي والجنوبي وتثبت أنها كانت "من دان إلى بنر سبع". ودان إسم لأحد أسباط اليهود أو إحدى قبائلهم التي سكنت عند تل القاضي الذي يبعن نهر الأردن قريباً منه. وبنر السبع مدينة واقعة جنوب فلسطين. أما حد فلسطين الغربي فهو البحر المتوسط الذي لا يتغير. وأما الحد الشرقي فمختلف فيه والحقيقة أنه كان يتقاطع أحياناً إلى نهر الأردن وأحياناً يمتد حتى الصحراوات والخط الحجازي وذلك بحسب الظروف و İlkulatorya السياسة.

حدودها السياسية الحالية

لم تتم الآن المفاوضات بين إنكلترا وفرنسا لوضع الحديقين الشمالي والشرقي بين سوريا وفلسطين غير إنه يمكننا أن نعتبر خطأً من رأس الناقورة (والتي نقطة على البحر شمالي عكا يطلب فيها جوازات السفر) إلى شمالي صفد فجعله حدًا شمالًا. والبادية حدًا شرقيًا كما ورد في صن الأندساب والبحر المتوسط حدًا غربيًا. وشمالي الحفر ورفع حدًا جنوبيًا.
لا يمكن أن نبت القول في تقديم مساحة فلسطين لأن حدودها الشمالية والشرقية لم تعين حتى الآن، ولن إلا ذرعناها من الشمال إلى الجنوب لكان ت 2 كيلو مترًا تقريبًا. أي إننا إذا سرعنا كل يوم ثمانية ساعات وقعتنا في كل ساعة منها خمسة كيلو مترات خصاها من الشمال إلى الجنوب في ستة أيام. على أن القطار يستطيع أن يطويها فيما بين 7 أو 8 ساعات ويتزاوح عرض فلسطين ما بين 110 كيلومترات إلى 130 فهم على ذلك نصف طولها تقريبًا. أما مساحتها فمساوا ثلث مساحة سوريا المتعددة من جبال طورس حتى رفح ومن البادية إلى البحر المتوسط.

(3) أسماؤها:

كانت فلسطين ولا تزال جزءاً من سوريا لا يفصلها عنها حد طبيعي ولا يبعدها عامل جنسي أو تاريخي لذلك لم يفرد لها المؤرخون اسمًا مستقلًا بل كانوا ينسبونها إلى الشعوب والقبائل التي سكنتها. وأهم أسماءها التاريخية هي:

أ - أرض كعبان: وهذا أول اسم سميته به نسبة إلى الكعبةين الذين هما أسرة سامية. وكانت في عصرهم تشمل جزءاً كبيراً من سوريا حتى حمص وحماة.

ب - فلسطين: أطلق اليونان والرومان هذا الأمم عليها نسبة إلى سكانها الفلسطينين الأقدمين الذين لم يوطنوا إلا الساحل ما بين يافا وغزة وكانت "فلسطين" لا تشمل سوى هذه البقعة الضيقة فقط ولبقائها الأخرى أسماء خاصة بها. فيظهر من ذلك أن تسمية جميع البلاد بفلسطين هو من باب تسمية
الكل نأسم الجزر.

جه – أرض الميعاد: سماها اليهود أرض الميعاد زعماً منهم أن الله وعدهم بها في أيام إبراهيم وفيما بعد ذلك أيضاً. وقد أمتنعت علماء السورة في ذلك فرقتين فرقة تقول أن النبات تحت وانقضى زمنها وفرقة تقول أن الله سيعطي البلاد لليهود بعد أن ينصروا.

د – الأرض المقدسة: يسميها مسيحيو الشرق بهذا الأسم لتقدسها من وند فيها وزارها من الأنبياء والرسل والمصلحين. وكذلك دعا المسلمون "إيليا" القدس وسنت القدس لإنه مهد الأنبياء ولأن النبي أسرى به إليها ليلاً.

(4) تأثير موقعها الجغرافي على تأريخها:

أن علمي التاريخ والجغرافيا صنعان متلازمان وتآمران لا يستغني أحدهما عن الآخر. ومن تغلغل في البحث وتأمل في تأثير المناخ على طبائع السكان مكن أنه استناداً إلى الأدلة، وعناصر ذات قيمة واتضح له أن سكان المناطق الحارة كالسودان وغيرهم يغلب عليهم الحمولة والحمود فيظلون ساحبة نهارهم نائمين في ظل نخيلهم وأجراهم كهوفهم خلافاً لسكان المناطق البريقة الذين يقضون أوقاتهم في الجد بخوضون عمار العمل بنشاط لا مثيل له بين أبناء المناطق الحارة. وكما أن للمناخ تأثيراً على طبائع السكان كذلك للموقع الطبيعى علاقة كبيرة في تاريخ الأمم والأفراد وتطورهم. فエステر لولا الليل لكاينت صحرا مجدية ولا أشرفت عليها نفكر هذه المدينة الاهرة وتجارنة نيويورك العظيمة لم تتسع ويعكم بناها إلا على أساس موقعها الجغرافي ولولا
ما لموقع القسطنطينية من عالم العشان لما طمعت فيها الدول وتافت إليها نفسها نفوس الفاتحين. ولقد كان موقع إنكلترا في جزيرة من أكبر العواصم التي قبعتها تعتبر بشأن بحريتها حتى أصبحت ذات أسطول ضخم ملكت به البحر وكانت بها الدولة البحرية.

وهكذا فلسطين فأنها لا نفهم تاريخها جيداً إلا بعد أن نعرف موقعها الجغرافي ومحالتها الطبيعية ولذلك نقول: فلسطين أقليم صغير واقع في المنطقة المعتدلة الشمالية بين محيتين كبيرين الأولى الرملي في شرقها والثاني المائي في غربها. بل هي جسر بين آسيا وأفريقيا وأوروبا وvoie عمومي لسكان وادي النيل ودجلة - مهدٍ مدنية العالم القديم - بل خط إتصال بينهما ولذلك كان كلاهما يمزع لإخصاعها كي يهرج على خصمه ويتأمن من شرره وغاراته.

هي محطة بين الشرق والغرب تتنازع عليها الأمم القديمة والحديثة كي تسيطر على طريق التجارة كانت لا تزال ساحة حرب وميدان قتال للدول القديمة والحكومات الحديثة. فكم من قائد ظفر في سهمها وآخر سقط جبهه أسرأ وخر قلباً أو هزناً. فكأنها ساحة أعدت لمارزة القواد والعظام أمثال: بوخذ نصر وصبحوتيمي (طليمس والإسكندر وبومبي ويوليوس وأغسطس وتيطس وكسرى وأر عبيدة وصلاح الدين وقلب الأسد والسلطان سليم ويونابرات وإبراهيم باشا وليام فون ساندرس باشا والذي نست إلها الجنود من آسيا وأفريقيا وأوروبا وأيسلندا الجديدة فكانت مسرحاً يعيل فيه.

---

هذا على حسب المنظ المنامي القديم، أما الشكل "طليمس" فهو مأخوذ عن التحريف الأفريقي.
أجناس البشر بгласاتهم الوطني رواية عالمية فلسطيني الذي لم يخرج من بلاده. شاهد سكان الأرض من غير أن يركب لذلك الأهواز أو يتحمل المشاق والصعوب كأطاف الأقطار.

تعاقب في توطن فلسطين والحكم عليها جميع أجناس البشر منذ موغلي وأرياني لم تقلها أمة واحد بل كانت في سائر أدوارها أما مندحية سوري أو ملحقة بمصر ولتى استحال عليها في الماضي أن تكون بلاداً مستقدة لموقعها الجغرافي وصغر مساحتها وتخفيف سكانها فستكون في مقبل الأيام كذلك أما متصلة بمصر أو مرتبطة بالعراق. والماضي مرآة الآتي وهو أشبه به من الماء بالماء.

(5) سكانها:

إن جميع التواريخ القديمة مظلمة فلا يعلم عليها ما لم يؤدها العقل والعلم والخفرات والآثار وأقدم تاريخ فلسطين يعود من 3500 ق.م. بشهادت الخفرات المكتشفة أخيراً في جازر "أبو شوشه" وهي قرية قرب الرملة وقد قام بهذه الخفرات بين سنة 1902 و1905 م جمعية إنكليزية برأسها الأستاذ مكالاستر The Palestine Exploration Fund وذكر هذا الأساتذ أنه قد سكن فلسطين قديماً أقروباً غير ساميين وبرهن على ذلك بما نطقته به الآثار وشهدت له الرسوم والأحجار. وتلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

- ١٣ -
وهذا ما أستنتج من الآثار المذكورة:

1- كان سكان جازر (أبو سنده) قصر القامة يتراوح طولهم ما بين 5 أقدام و 4 بوصات و 5 أقدام و 7 بوصات.

2- كانوا من أبناء العصر الحجري فزاولوا زراعتهم وجميع أعمالهم وحربهم بادوات صغيرة كالأساس والمنجل والحراب.

3- دجنا الحيوانات الأهلية كالبقر والcamel والخنزير وربما هذه الحيوانات في مفاورهم.

4- كانوا يقطنون الكهوف التي لا تزال موجودة حتى الآن، ولكن بعد ألف سنة من ذلك العهد أي سنة 2500 قم تدفق على فلسطين سيل غزوم من سكان العراق وأوآس جزيرة العرب فنزلوا بها وعمروها ونشروا فيها المدن وها نحن نقص نباً لأهم الشعوب التي سكنت فلسطين.

- الكهنانيون:

هم قبيلة سامية نزحت من جزيرة العرب وأوئت فلسطين وكانت لغتهم القومية اللغة العربية التي اقتبستها أمة اليهود منهم بعد أن تركتهم. وكانت مساكن الكهنانيين الأولى في منخفضات الأرض ولذلك سموا كهنانيين لأن معنى "كهنان" في لغتهم الأراضي المنخفضة. وكانت بلادهم واسعة الأطراف يحدها شامًا مدخل خليج شامليلبان وشرقًا بادية الشام وجنوبًا بادية العرب وغربًا البحر المتوسط عكفتا على الزراعة والتجارة زمناً طويلاً حتى.
أنت إلى يهود فحاربهم وغلبته عليهم وأحتلت مدنهم المسورة ولأن ديناتهم كانت وثيقة حرمته اليهود التزوج منهم والإمتزاج بهم. وكثيرًا ما ورد ذكر الكنعانيين في التوراة. قال في سفر التكوين عن 11 أن الكنعانيين سكنوا في البلاد وأن إبراهيم سكن معهم. وقد ورد أيضًا في التوراة ذكر حروبهم مع اليهود في أرحا وجمعون وبيت أبى. ولكن اليهود لم تستسلمهم فتمهم من ذهب إلى الشمال ومنهم من بقي في البلاد فسيطرت عليها عروق السكان وقتلوا في سواهم من الأمم الأخرى.

وقد وجد في الكرنك أسماء 119 مدينة من المدن الكنعانية التي إخترها صرح تس فرعون مصر حين غزا البلاد وانتصر على أعدائه ومن هذه المدن صور ويفا وعكا.

ب- الخينيون:

قبلية أنفصلت من تركستان نحو سنة 1700 ق.م. وأنهت على فلسطين وهم فرع من شجرة ملكهم المؤسسة في شام وسوريا وآسيا الصغرى. وكانت عاصمة الخينيون "تحي" التي تسمى اليوم "بوغاز كور" وحارب الخينيون فراعة مصر وويزيد هذا التولما شوهد من النقش والرسوم المحفورة على الأعمدة في هيكل الكرنك في مصر. وقد حاربهم عرمسين سنة 14 وتمكن من إخضاعهم ولذا أضطر إلى محاربهم. أما الملك ستي الثاني فإنه حار بهم وقهرهم.

والمجيبون الذين سكنوا فلسطين هم بقايا أولئك الذين حاربوا المصريين.
وسكنوا بين القدس والخليل. وأمتد ظلهم زمنًا إلى بيت أبل ونابلس. وذكر أن
إبراهيم شرٍّ مغارة المكفلة (حرم الخليل وقبر النبياء) من الحسين وكان شاهدًا فيها
زوجهه سارة وبعض بنيه وأحفاده. وأنهم أُثبى بعضًا من العظماء مثل أوريا
الخلي الذي كان داود في جيش داود.

جه- اليهود

جل ما نعرفة عنهم أنهم سكنوا القدس ولكي لم يعرف أصلهم حتى
الآن. وقيل إنهم بنطن من الكنعانين. وكانت القدس تدعى قديماً بوس فلعلهم
ستوا اليهود نسبة إليها. وما جاء اليهود من نين بقيادة يشوع بن نون
واحتلوا البلاد حاولوا إستملاك القدس فعجزوا عنها وظلل في أيدي
اليهود إلى أن حاربهم داود فحاصرهم وهدم أسوارها ودخلها عدوة وجعلها
عاصمة ملكه وضرب على اليهود الجزية حتى أيام سليمان. وقد ذكر في
النتور الإن داود أشار إلى أرونة اليهود (ساحة الحرم الآن) لبني هديك
هيكلاً فلم يتوق نحن أن أبنه سليمان أُخز هذا العمل. ومن ملوكهم أدولفي
صادق وملكي صادق.

د- الفينيقين

هم فرع من الأقوم الذين سكنوا فلسطين وأبوا الخضوع لغيرهم من
الشعوب القوية التي هاجمتهم فأظهروا مقاومتهم. ولما عجزوا عن جاية بلادهم
وعز عليهم الإسلام والطاعة لأعدائهم أنسحبوا إلى الشمال وكانوا يترقبون
الفرص لاسترخاع منطقتهم وإستخلاصها فكانوا في ذلك مع العبرانيين

-16-
كان الأسبانيون مع العرب حين هاجمو العرب فأعتصموا بالجبال وظلوا ينهزون الفرص حتى سنحت فأنقضوا على أخصائهم واستعدوا ملكهم غير أن الفينيقين لم يفزوا كالإسبانيون في نهاية أمرهم. أما الفينيقيون فأنهم وأن لم يسكنوا فلسطين فقد كانوا من بقايا أهلها واتسخوا حدودها وأثروا على تاريخها. وقد ظهر في نقوشهم المكتشفة حديثاً أنهم كتبوا نقوشهم لمباينة فلسطيني وقتاً ما لكي يكونوا على علم بما تحدث به عنهم. ولأنهم كانوا شعبة من الأمة السامية ولغتهم شقيقة لغتنا بشهادة نقوشهم وحروف هجائهم ولا ريب أنهم كانوا أعظم وأأمم الأمم القديمة التي سكنت سوريا وفلسطين مع أنهم أكرموا بالساحل ما بين طرابلس الشام وحيفا. ومن أهم مدنهم بور وصيدا وبيروت وطرابلس. وقد كان الفينيقيون وملكهم حيام حلفاء سليمان فعاونوه على بناء الهيكل ونقلوا إليه الخشب مع احراج لبنان عن طريق البحر إلى يافا. وكان لهم مهارة فائقة في البناء "المعمار" والصناعة التي كانت مفروقة عند اليهود وتزوج آخاذ ملك إسرائيل إيزابل الفينيقية رغم نواحي دينه وإزالة شعبه إذ كان محرماً عليهم أن يخالطوا سواهم لأنهم شعب الله الخاص على زعمهم وغيرهم أمم وهذا لتمييزه من الفينيقية التي كانت دولة تمتلك في منتهى التعصب الجنسي. فرغبة الملوك في مصالحهم ومصائرهم دليل بين على عظمتهم وأرتفاع شأنهم. ولقد ورد ذكرهم في أغلى مروق عند قوله إن أمرة فينيقيا طلبت من المسيح أن يشفى أبنتها.

تبارتهم: كانت بلاد فينيقيا حلقة أتصال بين فواح العراق والشام ومصر ولذلك كان أهلها دعاء المدينة المصرية والسبب الأقوى في نشرها ونقلها إلى
جميع الأقطار التي ذهبوا إليها. ولأن بلادهم كانت ضيقة يكفتها البحر من الغرب والجبل من الشرق لذلك اضطروا إلى مزاولة التجارة فخصوا من أجلها لجج البحر واقتحموا الأهوار والأخطار وكان ذلك عليهم أمرًا هيناً لأنهم جاوروا البحر وعرفوه وأجروا الناس على الأسد أكثرهم رؤية له. وقد تدريجو في أسفارهم البحرية من جزيرة أرواد إلى قبرص ورودس ومصر والأرخيل الرومي واليونان وشمال أفريقيا ومرسيا وأسبانيا وإنكلترا. أسسو مستعمرة عظيمة في شمالي أفريقيا (قرطاج) التي زاحت رومية وهددت كيانها أما صباعتهم فكثيراً أهمها الزجاج الملون والأرجلون والنحاس. وأما خدمتهم للمدينة فتمه نشر الحروف الهجائية التي أعطوها لليونان فتناولوها بينهم ثم وزعوها على الأمم الأوروبية.

ومنها اختراع المقايس والعيارات للوزن. وكانت دبائتهم وقثبتة منحة.

ومن آفتهم "بعل" و"عشتاروت" و"مولوك" التي كانوا يلقون لها أولادهم.

وقدموها لنا قريبين:

هى الفلسطينيون:

من الواجب علينا أن نعرف تاريخ الفلسطينيين أكثرهم لأننا ورثنا أسمائهم وامتلكنا بلادهم ووطنهم فرأينا لذلك أن نسهم في ذكر تاريخهم إسهاباً لا يمله القارئ ولا يشف كثراً عن جود ذلك العصر المظلم فنقول:

ليس الفلسطينيون من أسرتنا السامية وأناهم من الشعب الأوربي.

وعلى الغالب أنهم قدموا بلادنا من جزيرة كريت عن طريق آسيا الصغرى.
الأناسند أو عن طريق مصر عندما قاتلهم رمسيس وقهرهم وأسكنهم الساحل ما بين يافا وغزة و العاص فيها حاربوا مدينة صور وهدموها ومن مدنهم العظيمة غزوة أسدود وعشقان وعقرن "عاقر" وغت. وكانوا وثيبيين يعبدون الأصنام والتماثيل وكان عندهم صنم يدعى داجون نصفه الأعلى شبه إنسان والأسفل كالسمكة وكان له هياكل كثيرة في إسدرود غزة وعشقان وبيت دجن التي سميت باسمه وهي يقرب يافا وصل مجاورتهم البحر هي التي جعلتهم يرجعون عبادة الأسماء على سواء من معبدوات الوثنيين.

دخلوا البلاد وأستولوا على غزوة وجنوبها بعد مجيء اليهود بستين سنة وقد تنازع الأمة البلاد وأستمرت بينهما الحروب سنين عديدة وكانت اليهود تستطلع آثار الفلسطينيين من جبل النبي صموئيل الواقع (على بعد 7 كيلو مترات من شمال القدس الغربي) وترقب من السهل سائر أعمامهم ولم يقو فريق منهما على إخضاع الآخر فاستطال الخصم وأسفحل البحر وغمرت البغالة في النفوس وحقد الفلسطينيون على أعدائهم وحاربواهم في عقر دارهم "مرج ابن عامر" وهزموهم هزيمة منكرة حتى أن شاول ملك اليهود من شدة غيظه قتل نفسه على جبل جلبوع شرقي مرج بن عامر قرب جنين فأخذ الفلسطينيون جنحة وصلة يوناثان وعلقوهما على أسوار "بيسان" في الغسور شرقي المرج.

ظهر من الفلسطينيين جبارة منهم جلتي "طالوت" الذي قلهه البطال الفقي داود بحجر من مقلاعه قبل أن كان ملكاً أو نياً. أمتدت المشاهاة بين
الأمنين وظهر شحنون أحد قضاءة بني إسرائيل فحاربهم وأزعجهما، ولكنهم أخبرأو أسره وقطعوا عينيه وحبسوا حتى مات في غزوة وقره هناك متهور.

تحول إلى جامع شرقي المدينة ويقال به "أبو العزم شحنون الجبار".

أُمزج الفلسطينيون بغيرهم فأنفضوا وحولوا كما تحول سواهم من الأمم الغابرة إلى أجناس وعناصر أخرى أما اليهود فلكونهم عاشوا منفردين مععتزين الأمم الأخرى وحراوا النزاعات مع غيرهم وحافظوا على جنسيتهم الأصلية يحرصهم على قواعد الدين ظلوا إلى يوماه هذا منتشرين في سائر أقطار الكرة الأرضية يحملون فلسطين يطلبون الرجوع إليها كما ورد في شعر ابن اللاوي الأندلسي الذي كانت روحه تطير من الأندلس على أجنحة أشعاره وترفرف فوق صهيو وفلسطين قبل 800 سنة. ومن أعجب الحوادث التاريخية أنهم يطلبون الرجوع إليها والتتوطن فيها بعد أن تركوها 19 قرنًا، ما تدرى ماذا يكون جواب الأمم التي سكتت فلسطين قبل اليهود وبعدهم إذا استشرناهم في أمرها وسأناهم عن هو الأحق، والبحث عن الفلسطينيين بحث واسع وأن أراد التفصيل في ذلك فليراجع كتابي الأستاذين جورج آدم سميث ومالكفر فأنهما قد وفا هذا الموضوع حقه.

و- القبائل الأخرى:

الأدوميون: أولاد عيسو بن إسحق وكانت منازهم جنوب البحر الميت كانوا قبائل وفرقاً وقد حاول شاول أن يتغلب عليهم في القرن العاشر ق.م فلم يحل بطلًا. ولم تولى دار ده أمهم وأحتل بلادهم وجعل
عليها حامية من جنده فهم أحد قوادهم في عصر سليمان أن يخلع الطاعة فلم يفلاح وظلوا تحت سيطرة الإسرائيليين إلى أيام يهوذا فاط فمالوا أعدائه وأعانوه على حربه ولما جمل نبوخذ نصر على أورشليم أعانوه على نهبها وذبح أهلها فكافاهم وأيد سلطتهم في أروص ووسع حدودها من نهر مصر حتى البحر المتوسط فداهمهم الأنباط "العرب" وملكو بلادهم وكان بذلك أنقراض ملكهم دولتهم. ومن مشاهيرهم هيرودس الأدومي حاكم فلسطين ومساعد الرومان في تأييد نفوذهم أيام المسيح وقد لعب دوراً هاماً في التاريخ كما سيأتي.

(1) المؤنثيون: من أبناء لوط ومنازهم بين نهر أرنون "الأزرق" وتبك وعربات مؤات قبالة أريحا التي استولوا عليها فوضع سبب بين هامين الجزيرة عليهم مدة 18 سنة في زمن ملكهم الذي قتله آهود.

(2) العمونيون: من ذريه لوط نسل ابن عمي ومساكنهم في جهة السلط وعمان والزرقاء.

(3) العماليق: كانت مواطنهم صحراء سيتا بين المصريين والفلسطينيين والكنعانيين ومن ملكهم كدرلجومر وهم القوط الجبارون الذين حاروا بني إسرائيل وتبكوا على جدوعون وشاول وحتى أتمدت سلطتهم إلى جوار نابلس ولم يكن لذئاب القبائل حكومات منتظمة أو إدارات مرتدة بل كانوا أشبه بقبائل جنوبى فلسطين وشرقي الأردن مثل المزابيين والتيابا والعرزة والجبال والفيات والعدوان بني صحرا والمحيطات وغيرهم.

- 21 -
فكان كل قبيلة تلتف حول شيخها وهو الحاكم والقاضي والقائد وقد عنوا بأمر الزراعة وتربيه الماشية وشن الغارة والسلب والنهب ولم يكن لأحد سلطان عليهم ولا دين لهم يرجعون إليه فالقوى ؤأكل الضعيف ومن شعر لعجزة وآنس في خصمه القوة أضطر أن يتخذ له حليفاً ليقوي به شأن القبائل البدوية في يومنا هذا.

(5) الأنباط: وهم أمة عربية جرفت بقايا الأدوميين وأسسوا ملكاً في وادي موسى وقد غزاهم إنطيوخوس سنة 137 ق.م فياردة مخوذلاً ولما حاصرهم ديمتريوس أطل عليه أحدهم وخاطب قائلة: "لماذا تقاتلون ونحن مقيمون في بادية أتخار بوننا لفراونا من الرق؟ فإن السحب ديمتريوس برجاه وشيدوا حكومة منظمة بملوك ووزراء وضربوا القيود ومن عظماء ملوكهم الحارث الثالث الذي تغلب على البقاع بسوريا وملك دمشق سنة 85 ق.م وساعد هركانوس المكابي على أخيه أرستو بولس.

والحادث الرابع: وهو حمو هيرودوس أنثياس الذي حاربة الحايرات لتزووجه على أبيته وكانت أبنة الحايرات تخب هيرودوس فنزوج عليها زوجة أخيه هيروديا أبنة أرستو بولس ففق ذلك عليها وذهب إلى بيت أبيها الحايرات وذكرت له الخبر فاستشاط غضباً وحارب هيرودوس فانتصر عليه إنطصاراً كبيراً ولم ينج هيرودوس منه إلا الفرار. وقد أمتدت مملكة الأنباط حتى شملت من الغرب جزيرة ميناء ومن الشرق حوران وحدود العراق وبلغت من الجنوب وادي القرى. وظلت بلادها مركزاً تجارياً بين جميع الأقطار المعمورة وكانت
وسائل النقل متوفرة لديها كالسكك الحديدية الأوروبية والأميركية في القرن العشرين وأخيرًا حمل عليهم الإمبراطور تراجان فبُدّد شملهم وقضى على مدينتهم سنة 106م فأندمجوا في غيرهم وأصبحوا أثراً بعد عين. ومن أعظم مدنهم بطرا وبرير وأذرع وعمان وجرش والكرك والشوك وأبلة والحجر وصلخد ومادبا ودمشق.

وعدد ملوكهم 18 منهم عبادة الأول، عبادة الثاني، مالك والمملكة خلد، الملكة نفيلة، ريال، الملكة جميلة، وهذا مما يثبت أنه كان للمرأة في العصور الأولى مثلما كان للرجل من الحقوق والواجبات.
الفصل الثاني

اليهود في فلسطين

(๒) الدور القيادي - أو دور البداوة:

اليهود قبيلة سامية هاجرت من العراق "أورالكالدانيين" سنة ٢٣٠٠ ق.م برئاسة إبرام الذي صار نبياً وتسمى بعدئذ ابراهيم. ساروا في الطريق الذي يسلكه اليوم المسافرون بين العراق وسوريا شمالي نهر الفرات حتى وصلوا شمال سوريا ثم انطلقوا إلى الجنوب حتى أنهوا إلى أرض كنعان "فلسطين" وكان ابراهيم يرتاد البقاع الحضارة ماسيته وقد ورد ذكراً كبيراً في الكتاب المقدس وقدم أبنه إسحق ذيحة - على رأي التوراة وعلماء المذهب الحنفي - على جبل موريا مكان الحرم الشريف الآن.

أما مدينة حبرون فقد أُهمِل أسمها القديم وسميت بإخلاص نسبة إلى إبراهيم الذي دعي خليل الله لأنه سكن هناك وأشرى مغارة الكفيلة (حرم الخليل) وفي الجنوب الغربي من المدينة قرب قرية الظاهرة واد كبير ومعرفي واسع يقال له "وادي ابراهيم" يزعمون أنه كان يروى مواشيته فيه ولا يزال حتى الآن وقفاً تفق غله على وظائف الحرم الخليلي.

ولد لإبراهيم أبنان إسماعيل من جارية هاجر وإسحق من زوجته سارة التي كانت من قومه العراقيين فولد لإسحق يعقوب الذي دعي بعدئذ إسرائيل
وأصبح اليهود يتبسون إليه ويعتقدون أنهم تعذروا من صله.

خلف يعقوب 12 غلاماً فاضطرهم مجاعات فلسطين المتوالية لإنتاج
مصر ملتجين إلى حوض نيلها الخصب حيث استعبدهم هناك الفراعنة غير أن
النقوش والألواح المصرية أغفلت خبر الإسرائيليين ولم تذكر عنهم شيئاً كما أن
كيراً من نقدة التاريخ أغفلوا ذلك أيضاً. وأنكروا ذهاب بني إسرائيل إلى
مصر ولذلك يحمل بها ألا تسرع في الحكم بل ننظر ما سيكشف في مصر
وسورة بالحفريات والآثار عليها تهدينا إلى معرفة الحقيقة والصواب.
ظل الإسرائيليون مشردين إلى أن نبغ فمنهم موسى فآرسله الله نبياً إلى
قومه فأنقذه من غربتهم وعاد بهم إلى أرض كنعان عن طريق الجنوب
الشرقي.
كان موسى نبياً ورجلًا عالماً بل مشرع اليهود الكبير ومصلح عقائدهم
وإليه تنسب الوصايا العشر التي هي مصدر الأخلاق ونواة الأديان وأنا نثبتها
هنا وان كانت حفريات العراق الأخيرة تدل على أن الشريعة اليهودية وأكثر
النصوص العبرانية مقتبسة من الشرائع الحمورابية لكنها أقدم من موسى وها
هي الوصايا المذكورة:
1) لا يأكل آفة أخرى أمامي.
2) لا تصنع تمثالاً متحركاً ولا صورة ما .. إخ.
3) لا تنطق بإسم الرب أهلك باطلًا.
(4) أذكر يوم السبت أي أعمال ستة أيام واسترح اليوم السابع.

(5) أكرم أبيك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض.

(6) لا تقتل.

(7) لا تزور.

(8) لا تسرق.

(9) لا تشهد على قريبك شهادة زور.

(10) لا تشهب بيت قريبك ولا شيئاً ما له.

ويظهر من الوصية الأولى أن اليهود أسبق شعوب فلسطين التوحيد وأن موسى أول من قال "لا إله إلا الله" بخلاف غيرهم من الشعوب العربية والبابلية والمصرية الذين أتخذوا من دون الله آلهة كثيرة ونعتها كل فريق بما يناسب أقلمه وبيته.

وإذا سلمنا نص التوراة وأقوال المؤرخ الشهير يوسيفوس نجد أن قائد بني إسرائيل الذي فتح فلسطين كان يشوع بن نون وهو الذي عبر ببيشه واحتل مدينة آريحا من الكنعانيين. ولكن لا يذهق القارئ ولا يتوهم أن جيش اليهود كان منظماً مدرباً كالقبائل المصرية بل كان أشبه بقبائل أغلب عليها القحط وخوفاً ف컵عت إلى الرحل وأمت أقليماً آخر تنمس فيه الحياة لتنقذ نفسها من براخ الجموع والممقات. ولذلك كانت كل قبيلة من اليهود وقتئذ خاضعة إلى أميرها منقادة إلى زعيمها على أنهم كانوا كثيراً من الأحيان
يتمرون على مرشديهم وقوادهم ويتذمرون منهم لما يرون من وعودهم الخلاصة وهذا مما يدل على أن الطبقات البدوية لا تخضع لأحد إلا مكرهة مرغمة.

نعم احتل اليهود فلسطين بصد السيف وبعسمة شديدة ولكن ذلك الإحتلال لم يكن منظماً ولم يستطعوا أن يبدوا جميع أعدائهم إذ أن الفلسطينيين ما أنفكوا عن مقاومة اليهود حتى أواخر أيامهم وقد أزعجتهم قبائل المديانيين (شعب عربي ورد ذكرهم في القرآن حيث يقول "وإلى مدين أخاه شعيب") وضاقت عليهم مذاهبهم. فروع عن شيخ يهودي آخر جدعون أنه كان يدرس قمحه في المعصرة ليخفي عن أعين المديانيين ولا يأمن من أن يبقيه في البدر. وقد ختم بنو إسرائيل الكهوف والمعاور وبنوا الحصون أتيت من شرهم وتحلصاً من غاراتهم ومع هذا فلم يفظموا بأمنيتهم إذ أن المديانيين والعمالقة وأهل المشرق كانوا كلما حان وقت الحصاد يهبون زرعهم وياكلون ثمارهم.

وقد شدد زعم الإسرائيليين جددون في تحرير المديانيين وفقاً للشريعة اليهودية فلم ينجح وظل اليهود محتملون بهم وتزوجوا بناتهم وتركوا بهدوع إلا هم واعبدو آلهة البلاد وأصناماها فعضفت بذلك الرابطة اليهودية وأخلت العصبة القومية وظلوا قبائل متفرقة ففصلوا عن إبادة الخيران والسكان مع محاولتهم ذلك حتى أنهم جبنوا عن رد هجمات القبائل البدوية التي يمكن أن نشهها للقراء بالغارات التي تحدث شرقي الأردن ولا باعث لها إلا أخذ النار.
وأَوِ الحَزْرُ وَالْتَغْلِبُ

(7) عَصرَ الْقَضَاةُ:

كان وَإِسْرَائِيلُ كَلَّمَا أَنْتَطِبُوْهُمُ الصَّدَمَاتُ يَنْتَيِبُ فِيهِمُ رِجَالٌ عَزَّاءً

"الْقَضَاةُ" فَكَايَدَ الْشَّدَادَاتُ كَانَتْ مُحَكَّاً لِّهُمْ تَمِيزُ مِنْهُمُ الحَيْثُ مِنَ الطَّيْبِ وَتَظَهَّرُ

مِنْ بِنَبِيهِمْ مَعْدَنَ الْرَّجُلِ الْعَظِيمِ فَيِنْتَخِبُ يَقَاضِيًا لَّسَبُطْ ثُمَّ يَحْجُرُ عَلَيْهِ بَعْضُ

شَيَاءَ الأَشْبَاطِ قَوْلُهُمْ أَمَّرُهُمْ وَتَبَقُّ الإِدَارَةَ الدَّاخِلَةَ لِهُمْ وَحُكْمُ الْقَاضِيِّ يِنْفَذُ

فِي الْجَمِيعِ وَلَا يَكُن هَذَا الْمَنْصِبُ وَرَائِيًا بَلْ كَانَ مُنْحَةً تَنَارِيّاً فِي أَحْرَازِهَا هُمْ

الْأَبْطَالُ وَرَبَّما تمَّذَجَتْ القَضَاةُ فِي آنٍ وَاحِدٍ فِي جَمِيعِهِنَّ وَيَكَادُونَ أَعْدَاعُهُمْ

وَدَامَتْ مَدَةً حَكْمُهُمْ مِنْ سَنَةِ ١٥٩٥ قَ.م. - سَنَةٌ ١٤٢٠ قَ.م. وَقَيْمَاءً

لِلْفَائِدَةِ نَذَكَّرُ هَذَا بَعْضَ مَشَاهِرُهُمْ

أَ) جَدِعْوُنَّ: وَهُوَ مِنْ قَرْيَةٍ عَفْرَةُ وَرِبَّما كَانَتْ طَيْبَةَ بَيْنِ سَلَامٍ وَتَبَعَدْ عَنْ رَامِ

اللَّهُ ١٢ كِيلَوْنَا مُرَأَ لَجَهَةِ الْشَّرْقِ الشَّمْشَىٰ وَقَدْ حَارَبَ الْمُدْبِنِينَ وَأَرَاحَ قُوُّهُمْ مِنْ

شَرِّهِمْ (سَفَرُ الْقَضَاةِ صَ ٦ : ٧) وَحَوَّلَ أَنْ جِيَعَ كَلَمَةَ الْيَهُودِ تَحْتَ لَوَاءَ

سَلْطَةٍ إِلَّا أَنْ عَرَاقُهُمْ فِي الْبُدَاوَةَ وَقَدَ شَعُورُ الأَخْمَادِ وَالْتَضَامُنِ مِنْ نَفْسِهِمْ

جَعِلَ ذَلِكَ مِسْتَحَيْلًا.

بَ) شِشْوِنَّ: وَهُوَ مِنْ قَرْيَةِ صَرَعَا الحَدٌّ الفَاَصِلُ بَيْنِ السَّهْلِ وَالْجَبِيلِ وَهُوَ مِنْ

بَلَادِ الْخَيْلِ "الْعَرَّقُوب" وَاِقْتُعَةُ بَيْنِ الْقَدْسِ وَالرَّمَلَةَ وِمَرْبَىُّها الْحَدْيَدِيِّ.

وَكَانَ شِشْوِنَّ جَابَرَاً ذَا بَأْسٍ وَقُوَّةٍ وَلَهُ مَوَاقِفُ مَشْهُورَةٌ فِي مَخَابِرِهِ الْفَلِسْطِينِيِّ

الذِّينَ كَانُوا أَخْصَامًا الدَاوَّرِ لِقُوَّةِ الْيَهُودِ (سَفَرُ الْقَضَاةِ صَ ٢٣) وَيَتَسَسُونَ سَبْبً
قوته إلى استرسال شعره إذا طال قوي وأن قصر ضعف ويقال أنه نزل يوماً إلى أشقلون "عسقلان" وقال الثلاثين رجلاً فلسطينياً وأخيراً أسره الفلسطينيون ومات في غزة كما ذكرنا.

(جو) صموئيل: ولد في قرية الرامة "الرام" التي تبعد 9 كيلو مترات عن القدس جهة الشمال الغربي وكان كاهناً تولي القضاء سنة 1141 م. على كل أسباط بني إسرائيل ويخلي قضايا زمناً طويلة واستهر بعدله واصلاً رأبه وإصابة أحكامه وإخلاصه وأمانه وغيرته على مصلحة أمته وهو آخر القضاة الأول من اجتمعت عليه كلمتهم ثم أوحى إليه بالقوة. وبعد أن مضى عليهم 200-400 سنة أدركوا أضرار الفرقة وعرفوا منافع الوحدة والتسامم فاقتبسوا من جيرانهم وقلدوهم في ادارتهم وعالوا إلى الحضارة ونمسوا البداوة فاتحدت أميالهم وأنفقوا عليهم أن يقيموا منهم ملكاً فطلبوا إلى النبي صموئيل أن يختاره لهم فسمح "توج" شاول وكان ينوبه إذا حاد عن سنة الله وشريعته لأن رئيس السلطة الروحية مسيطر على رئيس الحكومة الزمنية.

(د) دبور: كثيراً ما قامت النساء بأعمال خطرة فظلمهم المؤرخون وغزوا من شهريتهم ولكننا نذكر بعض من أشهر منهم فنقول: كانت دبورة فتاة من سبسط إفرايم ومن سكان قرية عطارة عند بناية المعلوف (بين القدس ورام الله) فكانت تتجمع تحت خلة وتقضي لشبعها ثم صارت نبيبة وقادت الجيوش لما جبن باراق اليهودي عن معارك سيسرا الكناعاني فسببت عشرة آلاف مقاتل ونهدت بهم إلى جبل طابور شرقي مرج ابن عامر وحاربت الكناعانيين.
وكررت جيشهم وبدئت شملهم ولقد حبت شهرتها أسم زوجها لفيدوت
حتى أصبح يعرف بها ونسب إليها. أن عمل دبوري هذا لا يقل عن عمر
البريطانية التي حرضت قومها ضد الاحتلال الروماني
(Boadicia) بوساميسيا بل يشبه عمل جان دارك الفرنسية التي أخرجت الإنكليز من فرنسا وпечат
معازفة زونبيا العربية ملكة تدمر التي قاومت سلطة الرومان واستمانت في حامية
بلادها والذود عن ملكها ونظر هؤلاء كنبر في النهضة الإسلامية فعانشة أم
المؤمنين قادت جيشاً عرموساً وحاربت به علياً في العراق "وقمة الجمل"
والقارعة أخت الويلد الشاري وغزالة زوجة شبيب الحرجي واخت ضرار.

(8) اليهود كامنة:

لمدخل بنو إسرائيل البلاد كانوا فرعاً وأحزاباً لا رابطة تجمعهم ولا
عصبية توحدهم بل كانوا منقسمين إلى أنتمي عشر سبباً "قبلة" كل سبط
يستمد قوته من نفسه فكان يهددهم أعداؤهم كبانيون ويطرش بهم
الفلسطينيون ويدمهم المدنىون إلى أن علموا وتحققو أن لا خسائر لهم إلا إذا
اتخروا وأشتركو جميعهم في الدفاع عن كيانهم وإن لم يفعلوا آل أمرهم إلى
الفناء والدمار.

هذه حالة طبيعية في الأمم منى رأت كيانها الاجتماعي مهدداً تحدث
كلمتها لدفع الضرار العام الذي يشمل جميع أفرادها فإذا زال السبب العامل
رجعوا إلى شيمتهم الأولي. مر على بنى إسرائيل ٥٠٠ عام والدهر يلقي عليهم
عظاته ويعلمهم أن لا قيمة للشعب المتخاذل أمام الجميع النماسك مجرد على

٣١-
أن يتقرر بحسب زمانه فيكتور في زمن كانت فيه الغلبة للكاثوليك، ويتعلم في عصر
سائدة في العلماء ويجمع المال في قرن حضري فيه الإغريقيا فقدهما هذه العظمة
واتفقوا لأول مرة وطلبوا إلى النبي صموئيل أن يختار لهم ملكاً فمسى عليهم
شاول 95 سنة 1000 عاماً على جميع إسرائيل وقبائل كل سبط فيهم
أمير خاص يحكم شعبه خاضعًا للسلطة العليا.
(أ) شاول: كان أول ملك الأمة اليهودية ولكن لم يتخذ مركزًا ولم يختن
عاصمة لأن حياته كانت عسكرية وحلقات حرية متصلة ببعضها ببعض فلم
تمكن الأعداء فرصة لتكون أمته وأحداث لازهما فكان لا يفرغ من جهة إلا
انصرف إلى أخرى ولا يصدر عن غزو قوم إلا غزا أخرى. فحارب العُمونيين
وأسس لهم ثم قاتل العمالقة والموآبيين والأدومنيين وخصوص شؤونهم وقيل
حلهم. أما الفلسطينيون فكانوا خصومه الإلخاء الذين قاموا وجاوزوا
حدودهم الساحلية وتواصلوا في البلاد اليونانية حتى قربه وحاسم الواقعة شمال
القدس الشرقي والجزء على اليونانيين فهزموا شاول ورجيده في مرج بن عامر
فقتل نفسه خوف أن يكسر إخضاعه الناقدون عليه. وقد دلت الحفريات
الأخيرة في تل الفول أن شاول لم يحكم إلا جزءًا صغيرًا من فلسطين.
(ب) داوود: ولد في بيت حكم وكان له عدة أخوة ثم رفع الغنم في حداثته
وهي مهنة الأتياوي. فابراهيم وموسى ومحمد (صلوات الله وسلامه عليهم)
كان شاول من أصغر أساطرهم وأحد أسرهم وآخنا أجمعوا عليه لما كان فيه من الوسمة والجسامه.
ولكن كان يفرع القوام طولاً واشتهر بالسلاسة والأقدام.
أطلق هذا اللقب الجميل "الراعي الصالح" على السيد المسيح. فكأن الله يُجري الإنسان برعاية الغنم قبل إرساله نبياً فإن رآه رؤوفاً أميناً أرسله إلى البشر ولا يدب أن كل راع يحتاج إلى راعيته التي تطالب بإخلاص لها. فإن لم توفر فيه هذه الشروط نزعوا منه تلقهم فعاد بالحسران المبين.

كان داود مخلصاً لرعيته فكرت دباً وأسداً على تلال بيت لحم ذباً عن قطيعه. وقتل جليات "طالوت" الجني زعم الفلسطينيين دفاعاً عن قومه. وفي إبان فتوته نال ثقة شعبه فكان حاحب الملك "ياوره" وبعد موت شاول انتخب ملكاً على سبئ يهوذا سنة 105 ق.م. وحاربه إيشبوث بن شاول مع الأساط العشيرة الذين لما أخفقوا في مباغتهم انقضوا عليه وقطعوا رأسه وقادموه إلى داود. وبعد سبع سنين ونصف من حكمه توج ملكاً على الأساط كافة وظلمت عاصمته الخليل حتى أقترح القدس عنونة من اليهودي سنة 1049 ق.م. وجعلها مقر ملكته وقضى مدة حياته في الحرب والكفاح ينضاج عن أمته ويصد غارات الفغاة ويسكن القلاقل الداخلية والفتوى العائلية لأن المفسدين أغروا أبناء بشالوم وأطعموه في الملك حتى خرج على والده وحار به فلائي جزء عمله ونست وغير ماسوف عليه إلا من أباه الذي رثاه يشعر الرقيق ونغماته الموسيقية المشهورة. ويقال أن قبر داود على جبل صهون في المخل الذي يسمى "المي داود" وحارة "المدواهدة" مجاورة لضريحه الشريف.

وبعد وفاته مسح أبيه سليمان ملكاً على جميع أساط بني إسرائيل.
عصر اليهود الذهبي

(ج) سليمان: أن كلمة سليمان مشتقة من سلم ومعناها باللغة الكهنوتية "المسلم" ضد المعادي. وبالفعل فإن السلام والأمن سادا طول حياته ومدة ملكه لأن آباه داد كفاه الأعداء بفوؤده عليهم وذلله الصعاب فأصبحه الملك سنة ١٥٠٠ هـ ساكناً قام بأعبائه وحول نظره لتوسيع حدود مملكته وبناء مدنها فنجازت ما وراء فلسطين. ويقول كتاب اليهود أن مملكة سليمان أتمتت "من الفرات حتى حدود مصر". فضحت دولته وعظم شأنه وعقد معاهدات سلمية مع جيرانه ومن حوله من الأمم.

إذا قابلينا هذه الحالة بحالهم في عهد جدعون لما كان بنو إسرائيل لا يأمنون على بواردهم وكرومهم من غارة أعدائهم عرفاً فائدة الاتحاد والتآزر.

زهت أيام سليمان وأزهرت حضارتها فكثرت الأموال المنطرة في خزائنه من الجزيرة المجاورة من خصوصه والضرائب التي أثلت كاهل أمته فانغمض في البدخ والزرف فقامت عليه رعيته هذا العمل ساختاً لتلك الشدة التي كانت من أكبر العوامل الأساسية في انسجامهم إلى مملكتين.

لا ريب أن من أعظم الأسس الاقتصادية لإنتاج الثروة هو الأمن الداخلي. فإذا أصبت أمته الناس وتفاقموا في أنتهاجها وجدوا في أحداثها ومن تبع عصر سليمان عرف أن البلاد كانت آمنة مطمئنة ولذلك كثرت الأغصان والمواشي والحجارة الكنامة والريش الفاخرة والعلاج الثمين ولم يكن الإنسان أميناً لما استكر من ملذات الحياة وطيباتها.
أرسل الله سليمان نبياً حكيمًا، وهذه قصة تبرهن على حسن فراسته وفطنته: سكنت امرأتان في بيت وولدتلا في يوم واحد فاضطجعت أهديهما على أبنها ليلًا وأماثته فقامت مسرعة وبدلت طفلها الميت بطفل رفيقته الحي، ولمما استيقظت أم الولد وجدت الطفل الذي بجانبها ميتًا ولكنها ليست بابنها فغضبت وخصمت رفيقته عند سليمان، وبعد أن سمع قصص كل منهما فكر قليلًا ثم قال إبنوتي بسيف وأمر بشطر الولد الحي إلى قسمين وإعطاء كل أمرأة نصفًا فتحرك حنان أمه وقالت أعطوه لها فاني سامتها بها فأجاب سليمان أعطوا الولد الحي لها فإنها أمه وأحق به من غيرها. ويرى أن بلقيس ملكة اليمن قطعت القيصري والصحراء سنة 922 ق.م. رغبة في مشاهدة حكمة سليمان ومشيئها لرؤية عدلته.

وسنة 1016 ق.م. تزوج إبنته فرعون آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين من الدول المصرية وأعطاه والدها مدينة جاز "أبو شوشا" بائنة العرس (دوطة).

ومن أجل أعماله بناء الهيكل الذي صار مهبط آمال الأمة اليهودية وهو شبه الكعبة عند عرب الجاهلية من حيث تكوينه الأمة اليهودية وتوجيهها فكما ربطت الكعبة العرب بقريش لكونها قبلتهم كذلك شأن الهيكل عند العبرانيين.

فوجدت أثر مقدس بين ظهراني أمة يهددها الاختلاط وعدم التفرقة. ولولا المعاهدة السلمية التي عقدت بين اليهود والفينيقيين لما تم بناء الهيكل لأن...
النقابين هم الذين نقلوا إليه الأخشاب من جبل لبنان وساعدواهم في إتقان
البناء والنقش والهندسة لأنهم وقتلهم لم يكونوا يحسنون من الصنائع النفيسة
شيئاً وقد تم بناء الهيكل في سبع سنوات ويرجح أن أحجاره قطعت ممن الحجر
المسمى مغارة سليمان الآن وهي واقعة تحت المدينة إلى الشرق من باب العمود
(راجع تاريخ القدس).

ومن آثار سليمان الباقية إصطلبه الكائن تحت المسجد الأقصى وبرك
سليمان الواقعة جنوب بيت حهم وبعد أثار أخرى لا قيمة لها مثل أحجار
البكي فكان هذا العصر خير أيام بني إسرائيل بل واسطة عقد ماضيهم المؤلف
من ثلاث خزوات فقط الأولى شاول والثانية داود والثالثة سليمان وبعد
أنظام الخزرة الأخيرة في القلادة أنقطع السمع وتفرقت الكلمة فأنقسمت
المملكة واخضروا في هاوية الإخطاء.

(9) إنقسام الملكة وخرابها

التاريخ بعيد نفسه ولو أيقظنا مواعظه لما لدغنا من حجر مرتين فأنه ألقى
علينا دروساً عملية وثبت لنا مراراً أن القوة بالاختدام والضعف مبدأه
الانقسام" ولكننا ما زلنا نتفاصل عن كل هذا وندور الحوادث كما نريد نحن لا
كما تريد السنن الطبيعية وربما يستغرب القارئ كيف انقسمت فلسطين إلى
ملكيين مع أنها جميعها أصغر وأقل من أن تكون مملكة واحدة ولكن يزول
عجيء إذا عرف أن سلطى يهودا ويديمين عاصميين بعدين عن أسباط إسرائيل
العشرة فاختلفت بينهم مذاهبهم واشتركت بينهم الضفائر وكان كلما بدرت

-٣٥-
غيبة سيما عند تعيين الملوك يضمن يهوذا إلى بنيامين ويختارون ملوكاً من أنفسهم فتغضب إسرائيل لذلك وقد نضروا من شاواول لأنه كان من سبط بنيامين وخلفوا بطش داود فاستسلموا إليه مكرهين وأذعنوا إلى سليمان لأنه كان إدارياً حكماً فضبط جميع إسرائيل وأخذوا إلى طاعته وقامت أمهما مقتوا حكمة ففسروا ما عليه وحاول قبل يرعى بن ناباط فسفر إلى مصر معتصماً بالملك شيشق وربما حتى ولي الأمر يرعى الذي كان غريباً جهولاً وفاصل قاسياً خشناً فعاشر القبائل ونذ العقلاء المدربين ونكل عن طريق الحق فتسألوا تخفيف ما عليهم من الضرائب والإجلاع عن تأجير الأموال فجابهم قائلاً أنهم سيعاملون بأشد مما عاملهم به أبوه واستمر على المغالطة والجفاء والصدمة إلى أن أكروا عمله وجاهاو بعدائه فسار شيشق من مصر ونزل على القدس فافتحها وأختص أوانى الهيكل الذهبية وتوج دخيله يرعى ومن ذلك الوقت انقسمت البلاد إلى ملوكين صغيرتين الأولى "إسرائيل" وهو الواقعة في الشمال من القدس والثانية يهوذا وهي الواقعة بين القدس وبر السبع.

(5) مملكة إسرائيل من سنة 975 إلى سنة 722 ق.م.

انشطرت البلاد شطرين فكان أول ملوك القسم الشمالي يرعى بن ناباط الذي كبر عليه أن تخرج القدس من ملكته وهي مهيمنة على اليهود وقلبتهم التي يوجب عليهم دينهم أن يحجوا إليها ثلاث مرات في السنة وخفف من الحجاج إن هم أضروا تلك الآثار الفخمة وأبهة الملك وعظمته أن تنصرف قلوبهم عنه ويعضف إعانتهم به لذلك عزم على بناء مذبح في بيت إيل لأنه محل

-37-
مقدس ليرتاح من هذه الأحلام المزعجة فيأخذ على مركزة ويكون قد أرضى بذلك قومه والهام عن زيارة القدس وأشغفلهم عن التعلق بالبلاد عدوه وهذا العمل يشبه ما جرى لعبد الملك بن مروان فأنه بني الحرم الشريف أثناء ثورة عبد الله بن الزبير لهعوبه غير مؤقتاً عن الكعبة المكرمة وهكذا رجال السياسة وأربابها إذا ضاقت بهم الأمور بعنوا عاطفة الدين وهزوها لتنفيذ ما باءهم وبلغ أمتهما. أن يربعيم بن ناباط هو أول من نقل عبادة الأصنام والتماثيل من مصر ووضعها في الميكل لإنه اتجه عبادتها إثناة إقامتها بينهم فهو مؤسس عبادة الأئمة وباقي حكومة إسرائيل التي تجاورها 19 ملكاً في مدة 254 سنة ولكنهم لم يكونوا من سلالة واحدة بل من أسر شتى وكثيراً ما كان يخرج على الملك قائد أو طاعما فيخطى الملك منه ويتغصب عليه ويستبد بالأمة وهذا منتهى الفوضى والخلاف الذي به تنقرض الأمم فإذا قابلنا نظام الحكومة الإسرائيلية بغيرها من الحكومات جاز لنا أن نقول أنه قام في المملكة الإسرائيلية تسع حكومات لأن كل ملكين كانا من أسرة واحدة فمتى كان ينقرض بيت الملك الأول انتقل إلى أسرة أخرى فيكون معدل حكم كل ملك منهم ثلاث عشرة سنة.

وأي عمل أدل على أنهم لا يتصلحون للإدارة والسياسة من كونهم لم يجمعوا على رأي قط بل قضوا حياتهم في الانقسامات والقلاقل وفساد النظام. وكانت عاصمة إسرائيل طلوزة ثم نقلوها إلى شيكيم فكانا يصفون بها ويشتون في يزوعيل "زرعين" فلما ولي الملك عمري أسس مدينة السامرة "بيسطية" وجعلها العاصمة وهي الآن بلدة حضرمة شمالي مدينة نابلس.
لم يكتف اليهود بالانقسام فقط بل طفقوا يباونون بعضهم بعضاً فمملكة الشمال كانت تجرد جنودها وتهاجم مملكة الجنوب وقد وصلت مرة إلى الرامة "الرام" وحصرت حصنها ولقد بلغ من حقد إسرائيل أن حالفت مملكة آرام في دمشق على محاولة يهودا وما هو جدير بالذكر أن إسرائيل تركوا عبادة الله وصموا إلى عبادة الأوثان المصرية وأصبح أهل البلاد سبما لما افرون آخبار بالأميرة الفينيقية إيزابل بنت الملك الذي يشعل الصيدوني فأنها شجعت الناس على عبادة آلهة قومها كعب وعشروا فصدراوا واستلدوا الذي هو خير بالذي هو أدنى إلى أن تلاشت مملكتهم لما عجزت عن رد سيل المملكة الأشورية الجارف التي ابتدعتها لقبة سائفة وهدمت عاصمتها وأسرت رجلا ونقلتهم إلى نينوى فانقرضت مملكتهم سنة 721 ق.م. بعد أن حكمت قرین ونصف.

(11) السمرة:

قدماً كان أسلوب الاستعمار يختلف عما هو اليوم فكان الملوك إذا غضبوا من أمة حاربوها فإن ظفروا بها يسبون زعماءها وأغنياءها ومحاربوها إلى بلادهم ويستبدلونهم بأبناء مملكتهم حتى لا يمضي نصف قرن إلا اندمج كل من سبي من حورهم فيعتقون لغتهم وديهم وعادتهم ويتزويج جزءاً منهم ويكون قد ثبت وأسفر من أرسلوه فتصبح البلاد بلادهم والأهالي شعبهم وهكذا فعل شلمناصر بإسمهلية إسرائيل فأنه نقل سكانها إلى العراق وأرسل السمرة مكانهم وحذا حذوه أسرحون فلر إلما نجحا في خطفهما لصارت فلسطين بقعة من العراق. كان السمرة يدعون كوثين أو كوفيين...
لأنهم أتوا من الكويت كما زوى ذلك الأب إنستطاس الكرملي في المشرق 
السنة السابعة العدد العاشر وكانت ديانتهم الوثنية ولاقتنا مدينة السامرية 
أنفسوا إليها فصاروا سامريين وكان عدهم غير معلوم إلا أنهم يقدرون 
بعشرين ألف نفس.

هبطوا البلاد ولم يكن فيها سوى الفقراء فأسوا أمة قوية وكتلة مهيبة 
وقد تقل عليهم عودة بني إسرائيل فرشوا بهم إلى ملوك الفرس وعارض 
رئيسيهم سبلط ضحيا عندما حاول بناء سور أورشليم.

وقد حاربوا فسباسيووس الروماني فأباد أكثرهم. وبعد ما رفع اليهود 
من السبي وشرعوا في بناء القداس وترميم الهيكل قاومهم السمرة مقاومة 
عيفة. وأشتدت العداوة بين اليهود والسمرة حتى أن اليهودي كان إذا أراد 
السفر من الناصرة إلى القدس ذهب إلى الغور ومنه إلى القدس كي يتجنب 
بلاد السمرة الذين أصبحوا نحسين في نظر اليهود وظهرت هذه العداوة من 
حديث المسيح مع المرأة السامرة على بير يعقوب.

وأما السمرة اليوم فلا يزيد عدهم عن منة نفس يعيشون في مدينة 
 Näbijs ولا يخلطون أحداً. وهذا أكبر عامل في إنقراضهم لأنهم يقلون كل سنة 
عن العدد السابق. يقوم السمرة كل سنة بتقدمة ذبحة الفصح على جبل 
جبرين. ويدعون إنهم هم شعب الله الخاص لا اليهود. وديانتهم وكتبهم 
المقدسة تشبه ديانة اليهود وكتبهم إلا أنها تختلف في نقط معدودات.
(12) مملكة يهوذا من سنة 975 ق.م. - سنة 586 ق.م.

كانت مملكة يهوذا مؤلّفة من سبئي يهوذا وبيئاين ولكنهم كانوا أبطالاً. أشدا فحافظوا على استقلالهم أكثر من إسرائيل بماله وخمسين سنة وإذا تبعنا دقائق التاريخ لنترى عن أسباب إنقراض إسرائيل قبل يهوذا غدها كتيرة ولها:

1- تقول النسوة أن إسرائيل ترك عبادة الله وأنصرف إلى عبادة الأوثان فعجل في هلاكهم.

2- من يدرس النسوة يجد أن سبط يهوذا عرف بالقوة وأشتهرت مشاها لوعورة بلاده كما أمتازت إسرائيل بفرسانها لسهولة أراضيها ووقنذا كان على المشا المعول.

3- الموقع الطبيعي: لو قابلنا القسم الشمالي بالجنوب نرى الثاني أحصى موقعًا وأعضر مسلاً وأمت الدفاع فالوصول إلى القدس من الشرق والغرب أو من الجنوب أو الشمال أصعب بكثير من محجة السامرة المفتوحة الأبواب والتي يكتنفها من الغرب سهل طول كرب ومن الشمالي مرج إين عامر فكانها كانت محطة سهلة في طريق الحكومات المصرية والعراقية في غدروها ورواحها على أن القدس كانت بعيدة ومأمن من كل ذلك فلا يأتيها إلا من يقصدها.

4- تأثير العوامل الاجتماعية والأدبية: امتزجت حكومة السامرة بالأجانب وأقيمت عاداتهم ومالت إلى الخضارة ففرققت وحدثتهم وتهدمت

- 41 -
جامعتهم وأضمحلت مملكتهم وتلاشت قوميتهم.

5- إدعاء الكهنة أن الحضارة كفر فسمموا أفكار العامة وهاجروا إلى مملكة يهوذا وتبهم خلق كثير فقويته بهم يهوذا وضعفت إسرائيل.

6- طمع الزعماء في العرش وتهجمهم على اغتصابه حتى أصبح سلعة يتناوها القوي وياخذهما القدر فينخلع الضعيف ويجبر الملائمة ولا حاجة إلى الإسهاب في ذكر هذه المملكة لشي يملّ المطالع ومن أراد التفصيل فليراجع النورة "سفيرو الملك الأول والثاني" فأنهم أمات وأوسع ما ورد في هذا الباب. كان أول ملوكهم رحيم بن سليمان وظل بيت الملك يتحدى من هذه الأسرة حتى إنقرض المملكة فتوال حتى عشرون ملكاً. وإنما تقاسدت يهوذا هذه الأسرة لكونهم ألقوا الحكم وانتخب منها ثلاثة ملوك متتابعه قبل إنقسامهم فالاعتراف بابن ملل مشهور أسهل من الخضوع إلى ملك جديد. قضت مملكة يهوذا معظم أيامها في الحروب والقتال لأن كل عبرانها عالماً وناصبهما العداء فلم تلك لتكثر بهم بل أنها كانت تفنى حكومتي مصر وبابب المناظرتين والطاعتين في إخضاع سكان فلسطين الذين لم يكن لهم مناص من أتباع إحدى الدولتين لأهمية موقعهم الطبيعي ولكون الحكومة التي كانت تسيطر عليهم كانت تهدد الأخرى التي لا تقر عليها إلا بإستخلاصها من المتغيلة فكان سكان فلسطين إذا اخزاهم إلى مصر تغضب عليهم باب وتفزورهم فت фигهم وتخضعهم إليها فتحقد عليهم مصر وتسوهم سوء العذاب وهكذا ظلوا ضعفيين...
لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم فإذا إلتقعوا إلى دولة سخطت عليهم الآخرين وانتقمت منهم. روي أن الملك آخاز استعان بتغلث فلصر ملك أشور على قربه وحازه ملك السامرة إتقانًا منه لكونه أخذ مع رامين ملك دمشق محاربه فأعانه تغلث فلصر وخرج دمشق ثم ضرب الجزء على ملكي يهوذا وإسرائيل. فندم آخاز وقلب سياسته وعسّ ملك أشور بالمصريين فغضب ساحليب وساق جيشًا جراًا فحاصر القدس وعسكر بقرب بركة ماملا حتى أذعنوا لحكمه وأعطوا الجزية ولكنهم لم يفتحوا له المدينة.

أن من تتبع جريء سياسة يهوذا يجدها تشبه سياسة بعض الدول الخاضرة الضعيفة التي بينهما تراها اليوم حليفة دولة فإذا هي عدوتها غداً فكان المصلحة والفائدة هي العامل الأكبر في تقلب هذه الأحوال فإن ملكية يهوذا قد احترزت في عهد صديقا قبيل إنقراضها إلى ملوك مصر والتحقت بهم فلما استعملت بابلي على الحكومة المصرية وانتصرت منها سلخت عنها سورية وفلسطين وضمتها إليها وأتى نبوخذنصر إلى أورشليم ونفى الأشرف وقادة الرأي في المملكة اليهودية إلى العراق آمالًا أن يكون ذلك خضوعًا تاماً لا نزاع بعده ولكن لم يمض بضع سنين حتى انقض اليهود وقبلوا سياستهم ومالوا إلى مصر فاستسلم نبوخذنصر غضاً من خيانتهم وتلونهم وساق عليهم جيشًا كبيرًا فحاصر القدس 18 شهراً وأحتل المدينة عنوة وأعلن الحكم العربي فهرب ملكها صدقاً إلى أريحا ولكنه لم ينج منهم فامسروه ثم أحرقوه وهددوا الهيكل ونهبوا أثاثه وسبا أكثر السكان إلى بابل ولم يتركوا من اليهود إلا
الصعاليك وشذاذ الآفاق فأقام عليهم نبوخذنصر جدلياً حاكماً وأسكنه في المصفاة "قرية النبي صمويل".

فأصبحت البلاد مستعمرة بابلية تقاسيم من ظلم أنواعاً فغلا الحقد في نفوس اليهود وهب رجل يهودي اسمه إسماعيل بطائفة من الأشرار الذين كانوا مهجرين في بلاد عمون فجاسوا خلال فلسطين وقتلو الحكم جدلياً وهرموا إلى مصر نفذاً من هجمات بابل المستقبلة وهنا يمكننا أن نقول أن جدد اليهود خرج من العراق فسر يسوريا وفلسطين وبداءة النهأ ثم رجع بذريته إلى وطنهم الأول العراق.

لقد سكن اليهود في فلسطين من 400 ق.م. – 586 ق.م. ثم ثمانية قرون ولكنهم لم يستقلوا مدة إقامتهم إلا وقتاً قصيراً كانوا يختلسونه من ضعف واضطراب القوى الكبيرة في دلتا دجلة واليابل ويعملون استقلالهم ومع ذلك فلم ينجوا من الحكم مصر وبابل وكناها تكلان بهم وتسلبانهم استقلالهم كلما سنحت الفرصة وقد ظلوا حياتهم خاضعين لجيروانهم فيدفعون الجزء وتنفذ فيهم أوامرهم وكان يكتسحهم من يغفلونهم ولعلهم ما لديهم من خبرات عائدة بها إلى بلادهم. أما السبب الأكبر في انقراض المملكة اليهودية فهو تفرق الكلمة واعتزالهم جيروانهم وعدم استراهم بغيرهم فيما في المتقدمات الدينية التي لم يحافظوا إلا على قشورها فقد عدوا الأصنام ونسوا الوصايا العشرة وشددوا في تعصيهم اليهودي واعتقدوا أنهم شعب الله الخاص فقط وздو على ذلك إستحكام الفنرة بين الأسر التي عملت على أخلال الأمة
وهلاكها وهل ترجى حياة أمة قبل إصلاح أفرادها.

(١٢) بعض أنيمي اليهود في فلسطين:

لقد ورث الإنسان الأخلاق الفاضلة والسجايا الحسنة منذ القدم فسارت معا وكان كلما عرض عليها الفساد ودب فيها الشر أهاب بها داع من الله ينادي بالإصلاح فيخوف العاصي بعذاب جهنم وبعد الصالح بالخير العليم فكان الأنيمي في ذلك العصر دعاة الإصلاح ووسطاء بين الله وشعبه بل متشرعوا العزة الالهية ورسلها الذين حفظوا بشرائعهم الأبدية أكثر من القوانين المدنية التي زادت الجدلة ولم تصلح منهم شيئاً.

لا ريب أن رجال الدين لعبوا في العصور الأولى أدواراً هامة لما كانت الممالك "الديكراطيه" وكان الملك هو الكاهن والحاكم والسلطان وما زالوا فصولاً من تلك الرواية الخزنة في عصرنا الذي انتشرت فيه مبادئ العلوم الصحيحة وانفصل الدين عن السياسة. كان اليهود يسمون النبي رانياً "برى المستقبل" ويعلم الغيب فيشيرون في نتيجة الحرب ويوصونه عن حياة فقده وشخص مرض كما كان يفعل الرومان واليونان مع كهنتهم فهت أنبياء إسرائيل يبشرون بأنهم شعب الله الخاص وأنهم أفضل البشر كاففة فيبخون من ارتكب الشر ولو كان ملكاً ويعرون على عمل الخير وعبادة الله الواحد الأوحد. وقد نجحت دعوتهم فوقعوا قومهم من الحياة الدنيا إلى الحياة السامية الشريفة وها خن ندرج أسماء بعضهم.

(١١) نازنان: لم يعد من الأنيمي العظام بيد أن له وقفة رهيبة مع الملك داود لما
شغف بأمرأة أوريا الخني وطمغ فيها ففرق بينها وبين زوجها وأرسله إلى الحرب ثم تزوجها فأتاه نانان ووقعه عليه شره وظلمه فأعرف بذنبه وقد وردت هذه الرواية في التوراة سفر صموئيل الثاني والإصحاح الثاني عشر وأيدها القرآن الكريم سورة "ص" الآية 23–25.

(2) إيليا أو إلياس: ولد شرقي الأردن وقضى حياته في نشر تعاليمه داخل تخوم المملكة الشمالية وقد جاهد في محاربة الأوثان وقاوم الملكة إيزابل الفنية زوجة آخاب ملك إسرائيل التي حاولت تعميم عبادة الأوثان وابتعدت لليهود ديانة جديدة فأخذ يفسد عليها عملها ويرهن على الحادها وسخافة آثمة إلى أن سخطت عليه ففر إلى المملكة الجنوبية واجتاز القدس وإستراح برهة في محل "مار إيلياس" الواقع بين القدس وبيت خس بله بسر السبع. وقد ورد في التوراة أن الله أمره أن يذهب إلى نهر كريت "واد الفلت" وهو محل يكش فيه النساك وزاهد والديم ومن شاء التوسع فلم يراجع سفر الملوك الأول "ص 18، 19".

(3) عاموس: في سرد حياة هذا الرجل مغزى وعبرة خاملي الذكر والنفس لأنه ولد في قرية تقع من بلاد الخليل وابتدأ حياته برعاية المواشي وكان يقول "لمست نبأ ولا ابن نبأ بل أنا راع وياخي جم جم فأخذني الرجل من وراء الضنا وقال أذهب وتبنا لصعي إسرائيل" فأتمانت تعاليمه بصفتها إجتماعية لأن بني إسرائيل كانوا منهمكين في لذاتهم ورفاهيتهم ومعاقرة الحمر والخلابة والرمى بل أذهبوا جميع الرذائل والمواقف فذهب إلى بيت أبل
وحذر قومه وأنذرهم بالعقوبات إن لم يقلعوا عن المعاصي والشهرات وبرجعوا إلى عبادة الله الحق فيكروا الأصنام ويخطروا التماثيل ومن أعظم صفاته أن كان يجابه الملوك والأشراف ورؤبهم ويظهر لهم خطاياهم ويظهر بالحق ومن قوله "غبت وكرهت أعيادكم وليجر الحق كالماء والبر كنهر دائم" هؤلاء بعض أنبياء اليهود الذين تبأوا في فلسطين ومنهم أشياء الذي عاش في القدس وشهد حصار سنجارب لها وكان يحرص قومه ليتكلوا على الله دون البابليين ومنهم أرمي الذي ولد في قرية عاتا وهي تبعد خمس كيلو مترات إلى الشمال من القدس وكان يقف على جبل الطور ويرثي أورشليم بأقوال مشجعة وقد شاهد جيوش نبوخذ نصر تهدم وغرق القدس وأسوارها وهيكلها وكان من رأيه أن يخلف اليهود البابليين وياعدوا المصريين فلم يسمعوا منه حتى كان ما كان من إضطهال الدولة اليهودية. ومن تتبع تاريخ اليهود في جميع أدوارهم الدينية يجد أنهم لم يكونوا راسخين العقيدة في التوحيد لأنه ما غاب عنهم موسي أربعين عاماً حتى عبدوا العجل إله المصريين وساهموا في فلسطين جنحت نفوسهم إلى عبادة أصنام الكعبانيين والفينيقيين والمصرانيين وصاروا مع أن دينهم يمنع ذلك. وكانوا يسمحون لنسائهم بعبادة الأوثان في بيوتهم فلكل كان اعتقادهم متبناً لتغلبه على غيرهم ولرفدهم ديناتهم وصيغهم بصفتهم كما فعل المسلمون.
الفصل الثالث
من نبوخذ نصر إلى بومبي
(١٤) فلسطين في يد الفرس من سنة ٥٣٩ ق.م. - ٣٣٢ سنة ق.م.

غزا الآشوريون فلسطين وافتتحوها، فلما سقطت ملكتهم قام مكانها البابليون الذين سموا اليهود إلى العراق ولما استوى كورش الكبير على الشرع أسس على أنقاض الدولتين مملكة الفرس والحق بها فلسطين وسمح لليهود سنة ٥٣٦ ق.م. بالعودة إلى بلادهم الخيرية لأنه طمع في فتح مصر والمغرب وأيقن أنه لا يتحقق له هذا الحلم الجميل إلا إذا أرجع اليهود إلى بلادهم ليكونوا له عونًا يتكى عليه أو مدخراً يستمد منه ما يلزمه لفتح الأقطار التي ينزع إلى استملاكها. فظل حلمه أضافًا حتى قام كمبيز وصدق رؤياه ففتح مصر وضمنها إلى سلطته وجعل السبب الذي جعل لويد جورج وبلفور ليعطيا فلسطين وطنًا قوميًا إلى اليهود هو عين الغاية التي رمى إليها كورش.

طال العهد بفلسطين وهي تابعة للفرس تدفع ضم الرسوم والضرائب وتسهل جيوشهم الطريق إلى مصر وتمدهم بالزادات والعلف حتى تم فتح إفريقيا وأخضعوا بابل العظيمة ومملكةليبديا في آسيا الصغرى فكان فلسطين كانت حلقة مفرغة ترتبط بها حلقات أخرى فلما انقشت تداعت منها كل الحلقات فالنقطها ملك فارس واستولوا على ممالك الشرق الأدنى في آسيا
وافريقية ثم نهموا إلى امتلاك أوروبا فحاربوا اليونان في آسيا الصغرى وجزر البحر المتوسط وغبوا في بلادهم. وبعد معارك هائلة سطرتها التواريخ القديمة معجبة بشجاعة اليونان الممتازة في معركتي ماراثون وثومبلي غلب الفرس، وانقلبوا نحو وقائع عظام ملكهم الذين حكموا فلسطين.

كوروش ۵۵۸ ق.م - ۵۲۹ ق.م
كمبر ۵۲۹ ق.م - ۵۲۲ ق.م
داريوس ۵۲۲ ق.م - ۴۸۶ ق.م
زركسيس ۴۸۶ ق.م - ۴۶۵ ق.م

وقد قام غيرهم من ملوك الفرس ولكنهم لم يجدوا حديثا ولم يبرزوا عملا يستحق الذكر فطويلا أيامهم وأخبارهم.

(۱۵) اليونان في فلسطين ۳۷۷ ق.م - ۳۳۳ ق.م

تعدى ملوك الفرس على البلاد اليونانية فاتهمت همزة الفتاح الكبير إسكندر المقدوني وأهلوه عزما عليه فهمج بجيوشه على آسيا وتوسعت إلى امتلاك الشرق والتغلب عليه فكان بدء تنازع شديد بين الفرس حماة الشرق واليونان أبطال العرب الذين قوضوا ممالك آسيا الغربية واستولوا على أقطارها وحكموا في أهلها بما لا يقاس على ما تقدمه من الفتوحات لأن الحكومات الأشورية والبابلية والمصرية كانت تكفي بجباية الجزية وخصوم السياسي فقط. أما الحكومة اليونانية فكانت ترمى إلى غاية أسئل وأعظم وهي نشر مدنيتها في
الشرق وتلقى العالم بالأفكار اليونانية والمبادئ الهلالية

"هلزنم".

ولا بأس إذا تجاوزنا حدود فلسطين وذكرنا بإيجاز سيرة الإسكندر منذ نشأته نيلها سيكون الكلام متورتاً فقولاً: وفي الملك وهو في لم يتجاوز العشرين ربعاً فساد أنبا ومدن اليونان كافة وهاجم الفرس في ضفة جنوب قلعة على هجر غرانيكوس الذي يصب في بحر مرمره فكسرهم وتعهم إلى شمال سورية قرب خليج إيستكرون في سهل أسوس وهزهم شر هزيمة فتر داريوس وترك عائلته وذويه ولكن البطل الإغريقي ترص ولم ينقض فالجيش وأتته جنوبًا إلى بلاد فيقية ليفتحها ويتبعين بسفنها على مدينة صور وكانت آنذاك على جزيرة فطس البحر وصولها بالبر وبعد حصار دام سبعة شهور فتحها عنوة وانتقم من أهلها ثم سار جنوبًا فسلمتوه إله كل البلاد إلاّ غزة فإن حاميها العربية قاومته وصددها ولكنها خضعت أخيراً فتفل بها.

الإسكندر في القدس

قال المؤرخ يوسيفوس أن الإسكندر ذهب لفتح القدس فقالبه رئيس الكهنة على جبل سكوبس فرح به الإسكندر وطلب إليه أن يسلمه المدينة فرفض معذراً أن البلاد فارسية وقد أقسم أهلها يعين الطاعة للفرس فلا يسلمون المدينة إلا بأمر من ملكهم فأكرمه الإسكندر وقدم هدايته إله الفيكل فإغاثام أتباعه من هذا الرفق واللين. ولكن هذه الرواية تفترق إلى أثبات. أما الأستاذ بورتر فقال أن الإسكندر صعد إلى أورشليم ودخلها بوقار واحترام ولم...
يُضرّ بأهلها وقد استأنف منها السير إلى مصر ففتحها وخلد أسسه ببناء مدينة الإسكندرية ثم كرّ راجعاً ليجهز على الفرس فالتقى الجيشان في أريحا "أرسل" شرقي دجلة وجنوب نبوى عاصمة الأشوريين ففرق شمل الفرس وبدد جيشهم وهدم مملكتهم وسجلت هذه المعركة الفاصلة خضوع الشرق لليونان.

في ثلاث معارك فقط الأولى غربي الأناضول والثانية قرب خليج الإسكندرية والثالثة شمال العراق هدم الإسكندر مملكة فارس وشاد على انقراضها إمبراطورية يونانية حديثة شهدت له بالتفوق العسكري والنهب العسكري وأنه من أعظم القواد المشهورين مثل بليوس يقير وعينه والخادم ابن الوليد وصلاح الدين الأيوبي ونابليون إلا إنه يمتاز عن غيره بعد نظره ونزعة إلى مزج الشرق بالغرب وتوحيد العائلة البشرية وقد توجي طرفاً كثيرة لتحقيق أمانه نذكر هنا أجملها.

(1) الزواج: تزوج الإسكندر بابنة داريوس وشوق فواده وأجبر رجال على الاتفاق بالشرقيات.

(2) تعميم النبوءات اليونانية: فأنه أمر بنشر شعرهم وفلسفتهم وعاداتهم والبسطهم ومسارحهم وفطونهم وألبابهم وآدابهم ولفاتهم.

(3) تجديد عساكر فارسية وإدخالهم في جيشه وصبهم بالصيغة اليونانية مما أغاظ عساكر مكدونية وحملهم على ترك الجيش ناقمين.

(4) مبادلة الأشجار والمبتاثات الشرقية بما يالمها من المزرعات الغربية. وقد نتجت هذه الخطة التي كانت تصدر من مدينة الإسكندر، منهل العلم والأدب والشعر وتوزع على الأقطار.

- 52 -
فانتشرت اللغة اليونانية في الشرق قبل المسيح وعده حتى أن المتهذبين كانوا يفتخرون بتعرفيها كتابة وتكلمها حتى أن بعض الأنباجيل كتب بلغة سقراط وأفلاطون وأرسطو ولم يكتب بالعربية.

ورث الرومانيون فلسطين عن اليونان وعجزت لغتهم اللاتينية عن مبارة اللغة اليونانية التي كانت تشبه في ذلك العصر اللغة الفرنسية والإنكليزية في أيامنا هذه. وأن بين أعمال الإسكندر ونابليون مشابهة كبرى لأنهما جاهدا في تنشيط العلم وسعياً في فتح الشرق واستعماره وحاولاً الامتزاج بأهله والقرب منهم.

(١٦) السلوقيون والبطالسة

توفي الإسكندر في بابل سنة ٣٢٣ ق.م وهو في الثالثة والثلاثين من عمره بينما كان ذاهباً لفتح السماء كما زعم فذهب ولم يبق منه إلا شهرته الخالدة وذكره الطيب. فاقسم قواده الأربعة الإمبراطورية بينهم ولا يهمها سوى سلوقس حاكم سوريا وبطليموس ملك مصر لتناوبهما الحكم في فلسطين. أن في التاريخ عبراً مفيدة ومن لم يستفد من هذه العطشات فهو ضعيف خامل ليس باهل للحياة لأن الدهر سفر عظيم صفحاته الأيام ومواده الحوادث. فإذا استقصينا ماضي الفرد والأمة أو الإقليم نجده سواء توالى عليهم أحوال مشابهة وحوادث متماثلة فكانهم يسيرون حول دائرة إذا أينهوا من الدورة الأولى إبتدأوا في الأخرى وهكذا دوالب فالمضي لا يزعج شيئاً لن يقصد شيئاً ومن فاته عمل فليتعوض من سواء ولكن فلسطين لم تنتبه لهذه الحقيقة وكانت
كرة تلفقها العراق ومصر وسوريا فتهمهم تارة وتخطمها تارة وإذا فلنت من واحدة خلفتها الأخرى. فلما التحقت بمصر كما كانت في أيام صهوجيس تصلعت معها الحكومة لم تتعرض لتساقط الأهلين وأذنت لرئيسي الكهنة أن يظل حاكماً دينياً وسياسياً كما كان. وفي هذا العصر ترجمت الكتب المقدسة من اللغة العبرانية إلى اليونانية. فإن بطليموس فيلادلفيس "محب العلم" أخذ سبعين عالمًا يهوديًا إلى مصر لترجمة التوراة فأحسنا صنعهم وجاءت طبق الأصل في دقة التعبير وقوة المعنى. ولكن سيطرة مصر على فلسطين لم تدم غير قرنين لأن أنطيوخوس الرابع ملك سوريا ضمها إلى مملكته سنة 1918 ق.م. بعد معارك قاسية إنتهت بفوزه على الدولة البطليموسية. والغرب هنا أن أهالي فلسطين انقسموا على أنفسهم فبعضهم حاول الانضمام إلى مصر والآخر أراد البقاء مع سورية. وكذلك كانت الحالة في عهد نبوخذ نصر فإنهم اشتروا إلى شطرين أحدهما يطلب سورية والنافذتي مصر. وإذا قابلنا تلك الحالات بأيامنا الحاضرة نراها متماثلة فإن المؤتمر الفلسطيني الأول المعقد سنة 1919 ق.م. انقسم أعضاؤه إلى قسمين طلب بعضهم الالتحاق بمصر والآخرون أرادوا الانضمام إلى سورية. ولو أمعنا النظر قليلاً لوجدنا أن فلسطين لم تستفيد من الاتصال القديم والانتقال شيئًا لأنها كانت تنتقل من نهر إلى نهر من حكم مصر إلى حكم سورية وكلاهما دولة يونانية على أن البطالة كانوا يزعون شعور المواطنين أكثر مما فعله السلوقيون.

المكاتبون: (17)

المكاتبون أسرة تنسب إلى بطل يهودي يسمى يهوذا ويلقب بمكابيوس

-54-
هو جدير بالاحترام لما أظهره من الوطنية وأبداه من الجرأة فلهم حماسته
صدور بني قومه وأشد الشورة العامة لدفع ظلم الدولة السلاوية اليونانية
والحركة المكية مثل من الأمثلة المسروبة في بطن التاريخ والدالة على أن
الروح الوطنية الحقة إذا اختلطت في الصدور لا يقف أمامها قوة ولا يضعها
بطش وأوضح برهان على ذلك أن شردته يهودية غير منظمة قاومت الجيش
اليوناني السوري وانتصرت سنة لأن أفرادها أҳلصوا في عملهم واعتقدوا
 بصحة قضيتيهم واستمتعوا في سبيل تحقيقها لما رأوا أن أنطيوخوس عبث بهم
وبتقاليدهم واستصغرا بلادهم وبايع وظيفة الخبر الأعظم إلى شروع أخي أونيباس
اليهودي الذي كان مولعاً بالعادات الغربية وربو المدينة اليونانية فكان مقتداً
لتقليد قومه والذي افتتح أعماله بتغيير إسمه يشروع باسم يوناني ياسسون وروج
الملاهي والألعاب والعادات اليونانية المكرهة عند قومه فحسده أخوه أونياس
وذهب إلى أنطيوخوس وشرى منه الرتبة الحربية بأكثر مما شراها أخوه فعينه
بعد أن عرض عليه شروطًا محبطة بحق أمته وقبلها اسمه أونياس مبلأوس. فعمل
أنطيوخوس مع الأخوين يشبه عمل الوزير ابن خافان الذي كان يعين الوالي
فإن زاد عليه أحد عزل الأول وعين صاحب الزيادة حتى قال فيه الشاعر
وزير قد تكامل في الرقاعة.
يولي ثم عزل بعد ساعة
فاحظي القوم أفرهم بضاعة
وكلما رجع ميلانوس لاستلام وظيفته أبه أخوه أن يسلم إليه المدينة فتهاجم
ولم يمتكن أحدهما من قهر الآخر ففاجأ أنطيوخوس من مصر وأعلن الحكم
المعرفي ففاجأ المدينة ونهب الهيكل وعين قايمه فيلس الجائر حاكماً عاماً عليهم.
وكانت هذه الضرورة أول وميض الشدة والجبروح الذي سرع أنطيوخوس
يتمدّد في أذكائه فامرأ بالغاء الدين اليهودي من أصله وأكرههم على عبادة
الآفة اليونانية وأمر بنصب تمثال لرفس ومذبح في الهيكل لتعزز الحنازين عليه
وأرغم اليهود على مشاركتهم في طقوسهم وحظر الاختتان واطيرهم إلى
الشعل يوم السبت وكان يجازي كل من خالف أوامره بالقتل وهذا غابة
العصف ونهاية الشدة فلما بلغ الظلم أشد ولم يصر عليه اليهود ونهض الكاهن
مانتاس وهو من قرية مودين "المدينة" الواقعة شرقي اللد واعتصم بقره ترميه وأخذ
معه بنوه الخمسة ومنهم يهوداً مكايوس "أحد المكابيين"، بينما كانت الشورى
تتمّز في قلبه شعر بدبيك الهمة في نفسه واشتاد العزم بين جواكه فطفق
يبحث عن طريق الخلاص لأمهه وإذا برسول يوناني قدم عليه ليكره الأهلية
على عبادة الأوثان فغضب الكاهن وفك به وحرض الشعب على خلع طاعة
اليونان فناوهم مدة ثم خلفه ابنه يهوداً فحارب السلوقين وُظف بهم في مواقع
كثيرة كمعركة بيت عور بين اللد ورام الله ويبت صور قرب مدينة الخليل
وكانت النتيجة فوز الوطنيين على الأجانب وتخليص البلاد من الدخول، فضول
المكابيون الإدارة من سنة 167 ق. م. إلى سنة 67 ق. م. فلما رجعوا إلى
سيّرهم الأولى وشجرا بينهم الخلاف والنزاع أخذوا يستعينون بمن حولهم من
الملوك فالنتو هنكانوس إلى الحارث العربي ملك بطرأ "الخجار" واستصرخه
على أخيه أريستبولوس فلباه وسار لنصرته بخمسين ألف مقاتل، وحاصر أورشليم
ولكن لم يتوقف.

-56-
الفصل الرابع

الاحتلال الروماني من بومبي إلى عمر بن الخطاب

ورث الرومان "أجداد الإيطاليين" مملكة اليونان ومدنهم في الغرب والشرق وحققوا نتائجًا من هذا البحث بما يتعلق بفلسطين ضاربين صفحاً عن أسباب سقوط اليونان وتغلب الرومان فتقول أنه ظهر في فلسطين قائد رومني يدعى بومبي فاكتسبها وقضى على الحكومة اليونانية السلوقيّة بلا كبير عناء لأن البلاد كانت فوضى فالكلمة مترفة والأحكام جائرة والحكام منهمكون في ملذاتهم.

دخل بومبي دمشق فخف لإستقباله زعيمًا اليهود الشقيقان هركانوس وارستبولوس غصنا الأسرة المكابية الشهيرة وسعى كل منهما ليكون وليًا على فلسطين وله أن يغشغله عنهم بومبي ولم يمسك لقولهما ظنّ أرستبولوس أنه جفاه وحده وأدخى لأخيه فشرع يستعد للغارة اليونان ولكن نتيجة عمله كانت وخيمة فرحف بومبي بجهشه إلى القدس وحصرها وفتحها عنوة وولي هركانوس وليًا عليها خاضعًا للسلطة الرومانيّة وأمر بالغاء المجتمع العام وقسم البلاد أقسامًا حسبًا يجعل لكل منها مجمعًا خاصًا للдержاء نظارة رومنية.

(18) هيرودس:

عاش هيرودس في عصر الرومان كياليوس قيصر وبومبي وأنطونيوس أما...
أبوه أبيباس فمختلف في أصله والأرجب أنه كان أدومياً ومن رجال هركانوس وأعواه المقربين فدفع به جده وهمه العالية إلى أسمى الدرجات وساعده على ذلك انقسام الأسرة المكابية على نفسها ولا اختلف يومي وبوليوس قيصر تبصى حتى رأى رجحان كفة الثاني فسار بجيش إلى مصر وعضاه يقول أنه لولا أبيباس لما فاز قيصر في معاركه على أنه قال غير مأسوف عليه. أما أبيه هيرودس فكان رجل حرب شجاعاً مقداماً قوي الإرادة ذكياً حاذقاً نزراً إلى العلي توفرت فيه شروط الإدارة وكان عسوفاً يضحي أعظم شئ لين لغايته وتأيد عرشه سفاكاً فناكاً فظل قاسيًا فقتل زوجته مريمة لما وجد منها العطف على قومها وهي جنسها وهو المدلل يحدها وقتل من بني ثلثاً وأمر بقتل أطفال بيت خمل. وكان إذا أراد أمرًا فمانعه في احده فتك به ولو كان من ذويه. ولما غين واياً على الجليل كسب ثقة يومي بحسن سياسته فأمره أوغسطوس قيصر على اليهودية فقضى على سلطان المكابيين وابتدأت به الدولة الهيرودسية وقد حاول أن يوفق بين اليهود والرومان ليكون بيوه خلفاءه من بعد فلما حبط مسعاه شابع الرومان وساعد على توطيد حكمهم في فلسطين فأخصض الأمة اليهودية التي أقفلت راحة رومية بثوراتها واضطراباتها وله أعمال شاذة في سياسته نأتي على بعضها.

(1) اقترن "ميرتن" إبن إيكندر بن أرسطو بولس وهي بنت إبنة هركانوس من الأسرة الحمسونية الشريفة ليتصل نسبه بسب أهله الشرف ويجري دم الملوك في عروق أبنائه (كمما فعل السلجوقي مع الخلفاء العباسيين في بغداد) تهور وبني لهم الهيكل وراعى عواطفهم الدينية والقومية فلم يعدوه ٥٨-
إلا أجنبيًا غريباً ولم يتقبلوا عطفه إلا بإشباع وكانوا ينفرُون منه كلما
مål إليهم فتكشفهم عن عدو في ثياب صديق وعاملهم بعنف
واضطهدهم بقوة.
(3) كان كريماً وهاباً يقدم الهدايا النمينة والتحف النادرة للرومنين وهذا ما
ساعده على بلوغ أربه وتفوق على مناظره.
(4) كان متجدداً لباً شغاً بالمدينة الرومانية والعادات اللاتينية يتكيف بحسب
الظروف والحالات بهخف اليهود الذين كانوا ينظرون إلى المدينة اليونانية
والرومانية نظرهم إلى الكفر والأخلاقد لقد ترك هيرودس آثارًا جمة في
فلسطين.
أ) قيسارية بني مدينة قيسارية وسمها قيسارية نسبة إلى مولاها وهي واقعة
على شاطئ البحر بين يافا وحيفا مشهورة بجودتها وطافه
هوانها.
ب) رم مديسة السامرة وعمري وسمها "ميسسطة" وهي كلمة يونانية
تعني أوغسطوس لقب القيصر في تلك الأيام.
(ج) بني قلعة باب الخليل في القدس ولا يزال في أساس البناء الحالي
حجارة ضخمة من ذلك الأثر الجسيم.
(د) شاد برج أنطونيا "الفشل السفلى" "مدرسة روضة المعارف" وسمها
باسم أنطونيوس صديق كليوبترة الشهيرة.

- 59 -
وأخظى وشيخ غير هذه القلاع والأبراج في فلسطين وشرق الأردن
هياكل لأوغسطوس وجماعات ومسارح في القدس وقصيرة وسبيطة ونقل
الألعاب الرومانية الأولية المشهورة في البلاد فهو يشكر على هذه النحتة التي
قابلها اليهود باللتمس والإدراء.

وبعد وفاة هيرودس اقسم أولاده ملكه ولم تدم طويلًا حتى ألتحقت
مبادرة بروما وصار يبعث لها بجعلهم رومانيين. وأما إبنه هيرودس أنيباس فهو
الذي بنى مدينة طبريا وسماها باسم الإمبراطور طيبريوس.

(19) السيد المسيح

لو أردنا أن نفصل تاريخ فلسطين لأحنا به تاريخ العالم جمع وأشرفتا
على مضي سالفة الأمم لأنها حلقة اتصال شرق بالغرب بما أننا توحيما
الاختصار في هذا السفر فالأمة مندوبة لنا عن النسوء قليلا في سيرة المصلح
الكبير السيد المسيح لأنه فلسطيني ويدين بدينه 565 مليون نفس 1). ولد من
أبوين فلسطينيين يوسف الراج ومرور على رأي المسيحيين واليهود إلا أن
القرآن الكريم ينص "أنه من روح الله وكلمه ألقاه إلى مريم" وملك عند الله
كمله أدم" تربى ونشأ في أرض فلسطين وشم عبر أزهارها ونسامها وأكل
من خزها وشرب من مائها وطاف مدناها وعلم أهلها وأختار تلامذته
"حوازنه" الأثني عشر من رجاءها وصلب على تل من تلالها ودفن في ترابها

(1) أثناء كتابة هذا العمل.
(هذا رأي المسيحيين واليهود وفترة قليلة من المسلمين) ولكن أكثر المسلمين
يعتقدون أنه لم يصل بل شبههم وعجل إلى السماء حيًا.

ولد المسيح في بيت لحم في عهد أوغسطس قيصر ووافق حكم
هيرودس فعاش في الناصرة الذي ينسب إليها النصارى مع مレビه يوسف ومريم
الفقرةين.

كانت حياته هادئة قبل أن بلغ الثلاثون وقد زال حركة التجارة عند
مربيه يوسف فلما بلغ الرجولية شرع بيت دعوته ونشر مبادئه وتعاليمه بين
قومه وأهله في الجليل وبين بسطاء الناس في الناصرة وحول طرية ونهر الأردن
ثم انتقل إلى أورشليم مركز التعصب الديم وتم تقليد الأعمى فجاه بدعوته
وصرح بمواعظه وأجدها ما جاء في إنجيل متى إصحاح 5 و 6 و 7 أي عظمة
الجبل فمنها:

(1) سمعتم أنه قبل عين عين وسن بسن أما أنا فأقول لكم لا تقوموا الشيء بل
من لثمن على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضًا.

(2) سمعتم أنه قبل تحب قريبك وتغرض عدوك أما أنا فأقول لكم أحيا
أعداءكم باركوا لاعنيكم أحسنوا إلى مبغيكم. لأنه أن أحيبتم الذين
يحبونكم فأي أجر لكم وإن سلمتم على أخوكم فقط فنرى فضل
تصعون.

(3) احتزروا من أن تصعنوا صدقكم قدام الناس كي ينظرونكم. وأما أنت
فمتى صنتت صدقة فلا تعرف شالك ما تفعل يمينك.
(4) متي صبت فلا تكن كلمات الناس فإنهم يحبون أن يصلوا في الجامع وفي زوايا الشوارع لكي يظهروا للناس. فأنهم يظنون أنه بكره كلامهم يستجاب لهم.

(5) لا تدينوا لكي لا تدانوا لأنكم بالدينونة التي بها تدينون تدانون وبالكيل الذي به تكيلون يكل لكم.

(6) لا تكنوا لكم كنزًا على الأرض.

فهذة خلصا تعاليمه الاجتماعية والدينية إما آيتها الذهبية فهي: "فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم أفعله هكذا أنتم أيضاً بهم لأن هذا هو الناموس والأنبياء".

فلم ترق هذه التعاليم في عيون اليهود والبوا عليه الرأي العام وسخروا من أقواله وأتهموه بفريات ثلاث سياسية ودينية وهي:

1- أنه سمي نفسه ملك اليهود.

2- وأنه قادر على نقض الهيكل وبناته في ثلاثة أيام.

3- وأنه سمي نفسه ابن الله.

ففر روحاً كمته لأنه كفر في عرفهم. وقد خانه أحد تلامذته يهوداً الأسخريوني فسلمه إلى اليهود في بستان الجنسمانى وسحق إلى محكمة الروماني بيلاتس النبي الذي حكم عليه بالموت.

عاش المسيح على الأرض 33 سنة فقيراً لا يملك من حطام الأرض
فقطًا لأنه زهد في الدنيا وما فيها. وأما المؤرخ يوسيفوس فقد قال: نشأ في أيام بيلاتس رجل حكيم علم مريدته الحق واستمر إليه العدد الكبير من اليهود وغيرهم. وهذا الرجل هو المسيح. لما حكم عليه بيلاتس بالصلب بإيعاز من زعماء اليهود لم يتركه أشياعه ومربدوه وظهروا منهم بعد ثلاثة أيام من موته كما تبناه النبياء.

(٢٣) جلاء اليهود ثانية عن فلسطين

طمع هيرودس في تأسيس مملكة يتوارثها نسله من بعده، ولكنه أخفق في سعيه كما أخفق نابليون الذي حاول حذره بعد ثمانية عشر قرنًا وقد رمى كل منهم أن يكون جد أسرة ملكة شريفة. استقلت فلسطين في أيام هيرودس استقلالًا داخليًا تحت السيادة الرومانية وقد عجز أولاده بعد وفاته عن إدارة فلسطين فأطفأها الرومان يحكمهم كما فعل الأتراك في سوريا وفلسطين فان سياساتهم الأولى هذين القطرين كانت على نحو الأقطاع "اللاircraftية" فكان أمير الولادة مطلق اليد والتصرف في البلاد يؤدي الإثارة والقطع إلى الأستانة. وأن انتساب الدولة حرب يقدم لها عدأً معيناً من الجند.

ثم تبدلت الحالة وأخذت الأستانة ترسل إلى المدن الكبرى مشاهير القواد وعظماء الرجال لتجذب الناس إليها فزرعهم في طاعتها وتركهم بطشها وتسوس البلاد بأولئك القواد حسب ما تشرع فهم من القوانين وما ألفه السكان من عرف وعادة.

وظلت الحال على هذا النموذج إلى أن ولي الملك عبد الحميد فكان يرسل
الولاية والحكام من حاشيته وأعوانه رجال "المابين" وهكذا انقلب حكم الروماني
في فلسطين من استقلال داخلي إقطاعي إلى نظام إستعماري وأتخذوا قياسية "قيصرية" مقاراً لولايتهم لقربها من ساحل البحر وللحد من شأن القدس في عيون اليهود. ولكن الرومانيين لم يهانوا بحكم فلسطين ولم يقوموا عليها على ضيق أقليمها وضعف سكانها الذين ظلت نفوسهم جائزة متحفزة تهيج
بذكرى استقلالها وتغنى بشيد حريتها. أعروضت هذه اللقمة الصغيرة في حلوقهم ولم يسيهوها فازعجت الولاية واتهمت وأقلعت مدينة نهر الليبر أكثر من الأقاليم التي هي أرحاب محاها وأكثر نفوساً. فلما قدم تيطس ازدردها
وهضمهما وقد عز بعض المؤرخين هذا الغثاء إلى اعتبارات كثيرة منها:

1) اعتقاد اليهود أنهم شعب الله الخاص الذي اصطفاه على العالم فهم الحجار وغيرهم حول فحرمت شريعتهم مخالفة غيرهم لأنهم أرجاس كافرون.

2) نشر العادات واللغة والألعاب الرومانية مثل المسارح والملاهي والرقص والخمر والتماثيل مما كان يحرمها الدين اليهودي وينفر منها الأهلون فإذا ما أبصروا تبهت فهم العاطفة الوطنية والعصبية الدينية وهاجت روحهم القومية فيطنعونها ويحترونها ولأنهم أقللوا على ذلك كما تحت نفع اليوم لنالواها في غيرهم من حيث لا يشعرون. ولا يسعنا هنا إلا أن نعجب بانغة اليهود وأقدامهم على محاربة الروماني لما عبروا بديلهم وذبحوا الخنازير في هيكهم ونشروا أعلامهم خافقة فوق رؤوسهم موشاة.
برسوم النسور (الصور محمرة عند اليهود).

(3) إيمانهم بأن الله إلههم وحدهم وأنه قادر على أنقاذهم من حكم الأجانب.
وقد ابتلاهم بهذه المصائب لعلم مقدار صبرهم ومتانة اعتقادهم.
فرسخت هذه العقيدة في النفوس وكان الإنسان يكلف ربه كل شيء فلم
يلبث أن صار يركن إلى رفقاه ثم إلى الحكومات فليت شعري متي يأتي
اليوم الذي يعتمد فيه على نفسه فقط.

(4) عسف الرومانيين اليهود أنهم لم يهجو معهم نهج الصواب بل سخروا
منهم ونبذوا شريعتهم وآدابهم فأكبر اليهود هذا العمل وهتفوا قائلين:
متي تجمع القلب الذكي وصارماً وانفاً حمياً تجنبك المظلم.

(5) خوارج اليهود الذين جنحوا للتغيرة فأخذوا يعرضون قومهم على ركوب
هذا المركب الخشن مؤكدين ضم أن الله يساعدهم على تطهير الهيكل
والبيت المقدس من خسارة الرومان.

(6) بطوله سكان فلسطين الذين ما غزاهم أحد وهم بأمتلاكهم أجنبي إلا
أسقط في يده وراء بخسران كبير.

(7) وأن كل أمة لا ترضى أن تحكمها أمة أجنبية عنها ولو طال عليها الأبد.
فإذا هي حكمت تذمرت وخففت للانتقاض فترقب الفرص لتسهرها
وهو ظاهر لدينا من حالة أرلندا والعرب وبولونيا فأنهم لم ينسوا أنهم
محكومون لغيرهم وعملوا على ارفاع حكامهم فظور بعضهم بما تاق إليه.
وكل ذلك اليهود فإنهم لم يرضوا عن إدارة بيلاتس وأكملوا الشكايات عليه مع أنه ترفف إليهم بجلب مياه العروض إلى القدس وأمر بهدأ نفاذهم من الأحجار الضخمة ليجري فيها الماء. وفي فناء النوتردام في القدس نماذج منها تشهد بعظمة صنعها وقد أخفق لأنه أخير أن يصرف ريع أوقاف اليهود على عمارةها فمعنوه وقد إنهت ولايته بعزله. وخلفه شخص حسن السيرة فكان نصيبه أسوأ وأنكر من سلفه ولم يجد له نفعاً لأهن داخلي البلاد كانت في هياج مستمر فكثر قطاع الطريق وأختصت الفتن. واستحكم الخلاف بين الحكومة والشعب وتشتد في عهد القائد الرومانى الذي تعيين سنة ٦٤ م. لما طمع في أموال الهيكل وصم بسرابها بقاومه اليهود بكل قراهم ومعنوه فأمر جنده بالبطل بهم ونهب بيوتهم بإضمارهم لظى الحرب الأخيرة التي أدت إلى خراب القدس وتمزيق الأمة اليهودية. والحقيقة أن هذه الشرارة التي طارت من القدس ليست كافية لا ذكاء الثورة في سائر أرجاء فلسطين لم تكن جميع البلاد على تمام الأمة والاستعداد للوثوب ولم تكن نفسها هائجة وأرواحهم ثاراة متوافقة على اهتزاز خفيف أو نسمة هواء تحركها فتخيرها كما أشار إلى ذلك نصر بن سيرار:

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرر

اشتدت الأزمة في أيام نيرون الطاغية الذي روى لنا التاريخ شيئاً من قساوته وشره وفساد أخلاقه فثار شائر اليهود وطردوا الحامية الرومانية من

٦٦-
القدس فارسل إليه قائده فاسباسيان بقوة عظيمة ليجمد الثورة ويتقدم من مسبيها فنزل في قيصرية لأنها كانت ميناء فلسطين وأعاصمتها وبذل جهده نحو سنتين حتى أخضع القسم الشمالي من البلاد فاسترد طيبا وجسيحه والسامرة وأريحا وقبل أن وصل القدس فوجى بوفاة نيرون فرومية فاردت مسراً إلى إيطاليا ليتبوأ مكانه وأناب عنه أبيه تيطس المشهور في مجاربة اليهود واستمال شافتهم فقدم القدس بجيش يبلغ ثمانين ألف جندي كان فيه فرقة عربية "نجية" فخيم على جبل الزيتون ومرتع سكوس وعلى تلال المسكونية والنكفورية وحاصر المدينة التي كانت حصونها قائمة في ثلاثة مواضيع:

1) قلعة هيرودس وبقاياها القلعة الكائنة باب الخليل.

2) برج أنطونيا وآثاره لم تزل في القشلة السفلى شمال الكرم.

3) الهيكل "الحرم".

قال يوسيفوس في تاريخه أنه كان في القدس لما حاصرها تطيس ما يقارب مليون شخص. ونظر أن هذا لا يخلو من المبالغة لكن الراهب الراجح هو أن القدس ازدهرت بالمهاجرين من كل أنحاء فلسطين لاعتقادهم أن الله يسمح بإعطاء مدينة وطنه وسلم قداس أقداسه إلى غير شعبه فذكر المؤرخ الروماني تاستيس أنه اجتمع يومنذ في القدس نحو 600 ألف نفس.

لقد تحلل تطيس العذاب المزق قبل فتح القدس لأن اليهود حاربوه بشجاعة فائقة واستمتعوا في حفظ بلادهم. وجدل ب بكل أمة تنزع إلى الاستقلال أن تدفع مهما كلفها ولو ما حدث بين الأحزاب من الشقاق.
لما وصل تيطس إلى أمنيته.

ولكنهم إنسحبوا إلى ثلاثة فرق "1" حماة امتد فالقيادة العازار "2" حرس برغ أنطونيا وقاندهم يوجنا الجسخلي "3" حلفنة قلعة بيرودس ورأسمهم سيمون "سمان" ولو تبعا ماضي اليهود وحاضرهم لوجدناهم مفعماً بالانقسامات والتحزبات السياسية والدينية التي كانت تمهد السبل لإستعدادهم والتغلب عليهم.

كل أمرئ راجع يوماً لشيمنه وآن تخلق أخلاقاً إلى حين.

فكانوا إذا انحدروا سادوا قدب عقارب الحسد في صدورهم فنطروهم إلى هاوية الخلاف وبنال منهم بسهولة ما كان صعباً. وهكذا داهمهم جيش تيطس وهم أحزاب يتخاصمون وتساوزرون فأيقظتهم مجديقهم وآلات حصاره فحاولوا الاتفاق ولكن سبق السيف العذل فطال الحصار حتي مات الناس جوعاً وانتشر الوباء وسري المرض من سوء الغذاة ورائحة الجيف المنتجة فرأف بهم وطلب إليهم أن يسلموا المدينة صلحًا ليعاملهم بالحسنى فأجابوا وأصر وا علي الحرب وكانوا ينبون ليلاً ما يبهد نهاراً ولكن جهدهم لم يغنهم شيئاً وسقطت المدينة السفلى "برغ أنطونيا" ثم الميكل ثم المدينة العليا "القلعة" والتي أبقاها ماوى للجنود. وأمر بهدم برج أنطونيا واحترق الميكل من يد جندي بغير إرادة تيطس ولكنه أجهز على الأمة اليهودية وفك بهم يدا عدل ولا رحمه.

ففر أحد الزعماء إلى قلعة "مسادا" وأسر الآخرون وهم يوجنا الجسخلي

-٩٨-
وسينون فيصقا إلى رومية ليسرا في مكب النصر الذي كان يحتفل فيه بعد عودة قادته ظافراً منصوراً فكانت عادة الرومان أن يقف القائد المتنصر عند رجوعه إلى رومية في ساحة كمبوس مرتبياً خارج المدينة ويتخون عليه ثوباً أرجوانياً مزركاً بالذهب ويكونون بسر ذهبي ثم يخفف به القواد والعسكر مكلىين بغضون الدقلي فيمر من أمامهم العدو المأسور ولو كان ملكاً أو عظيماً وهنالك يبنون قوّاً لذكرى تلك الفتوحات وكل من يزور رومية يرى قوس تطيس شاهداً على خراب القدس.

يوجد أمام فندق مرقص عمود شاهق نقش عليه كلمات لاتينية فلم تبيناها لقصت علينا حادثة القدس وخير الفرقة العاشرة الرومانية التي تركت في القدس للمحافظة على آثارها بعد خرابها.

(21) قلعة مسادة

على ضاحي البحر الأبيض قرب عين جدي بنى هيروس حصنًا فوق صخرة عظيمة وحفر له الآبار وشحه بالذخائر والأرزاق والعدد اللازمة ليعتمد به إذا داهمه الخطر. فلما قضى تطيس على اليهود خف أحد زعمائهم العازار بلف رجل ونجل إلى هذا الحصن المنبع فلم تمنعه البرية على إتساعها ولم تحفظ الحصور المشيدة وبناءها فقد عقبهم جند تطيس وحصروهم وبينما هم يوقعون التسليم رأوا ليلًا نارًا مسطرة في القلعة ولم تنفس الصبح صعد جند الرومان على سلامهم فلم يسمعوا دبأ ولا صوتًا فحاروا في أمرهم إلى أن ظهر لهم أمرأة قالن له قد فاتكم الغنم فإن قادنا الكبير العازار شعر

-99-
لا ريب أنه يغشي البلاد نعمى ويؤس كما يغشي الأفراد والأمم فينما
نرى القدس عاصمة تصدر منها الأوامر وتبلغ فيها الأمور والأحكام إذا هي
خراب بباب تعق على إطلاقها الغربان ولكن لم يكن يمضي عليها بضع عقد من
الزمن حتى ترآها قد استجمعت قواها والاسترخا جذتها فلم قابلنا صدماتها
واما انتابها من المصائب بما أصاب غيرها من البلدان والود للعبينا واستغبرنا
كيف أنها تعدد حياتها بعد أندثارها وغيرها يبدو ومحق ولكن مكانتها الدينية
في نفوس مقدسها تحملهم على تعميرها وتحيد بنائها بخلاف البلدان الأخرى
التي لا يشفع فيها مركز إقتصادي أو سياسي أو ديني.

إن الزمن الواقع بين عهد تطيس والفتح العمري يقرب من ستة قرون
أي 567 سنة فهو مجلد ضخم أكثر صفحاته بيضاء لذلك أجملها لنا لقلة ما فيها من الأخبار الجميلة جبًا بالاختصار ومن شاء التوسع فليراجع مظانها في بطول المطولات.

مضي على القدس ستون عامًا وهي خربة وفلسطين ساكنة مهيئة
الجحا من هوية القوى لأن الرومان تبهوا وعرفوا أن الفتن والقلق في فلسطين كانت تتبع من القدس فحظروا على اليهود الرجوع إلى عاصمتهم إلى أن ولى الحكم الإمبراطور هدريان "داريان" فجدد عرمة القدس وسماها "إيليا كابينو لينا" فحن اليهود للرجوع إليها ودبت فيهم روح الأنفسة والحنية
فقام رجل اسمه باركوب (إبن كوبك) وجاب البلدان وعرف الكهوف والجبال والبطح والداخل والمخارج والأماكن الوعرة الصالحة للدفاع ثم لفح الافكار سرا بذور النوبة وبعث في قومه صرخة أدعى بها أنه هو المسيح الذي سيتفق أمتة من استعاد الأجانب وخلصهم من ظلم الرومان فتبعه نفر ليس بقليل أزعج بهم حزمة رومة وأطلقها ثلاث سنوات. فأوفد إليهم هدريان قاقده الجبال العادي سفروس الذي أخذ الحجز البريطانية فسحق اليهود وقهورهم في معركة بriver وكان ذلك آخر العهد بالخروج اليهودية.

قف هنا أيضا القارئ هيئة وتأمل في عظمة الإمبراطورية الرومانية وضخامتها وأذكر اسم القائد سفروس الذي فتك ببرابرة بريطانيا وسل نفسك أين ذهبت تلك الدولة وكيف أفل بدرها؟ وكيف ترقي أولئك البرابرة

* المسماة داريانايل "داريان" علی اسمه.
ورثوا تلك الإمبراطورية العظيمة في سعة حكمها وأ قطرها!!

(٢٣) قسطنطين ونصير فلسطين

في أوائل القرن الرابع للصليب انشقت الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين
المملكة الغربية وعاصمتها روما والشرقية وعاصمتها بيزنطية
وهي الحكومة التي كانت مسيطرة على فلسطين فقدمت الملكة هيلانة أم
قسطنطين إلى القدس ونت كنيسة القيامة التي يحج إليها المسيحيون وكنسية
بيت لحم "المهد" ومن ذلك العهد تنصر أهل فلسطين فاضطهدوا اليهود
واجلعوا عن البلاد.

وفي القرن الرابع والخامس م أسست الصوامع والأدبية ونها دير
مارساهب المشهور الواقع في الجنوب الشرقي من بيت لحم وكثير عدد الرهبان
والمساك. ولكن مكروب الفساد وسوس الأعمال دبّ في جسم المملكة
البيزنطية فبذع عظامها وعظم الخلاف بين رجال الأكرستوس إذ ذهب بعضهم
ان السيد المسيح ذو طبيعة ومشيئة واحدة وبعضهم قال أنه ذو طبيعتين
ومشيئتين إلهية و الإنسانية، وقال الأبريسيون أن هو إلا رسول ونبي كريم فمالت
الحكومة إلى القائلين الطبيعيين واضطهدت كل من خالفهم وبيثاهم
ينجادلون ويتصدون هجوم الفرس على سورية وفلسطين سنة ٦١٤ م.
واستعبوها وأغرهم يهود العراق وسوريا بالانتقام من المسيحيين فهدموا

الإسنانة وتدعي أيضاً الفضائلية نسبة إلى قسطنطين أول إمبراطور تنصر وامر بتعليم الديانة
المسيحية فتبعت خلق كبير وأصبحت الديانة المسيحية دين الحكومة الرسمي.

٧٢
كيسية القيامة وقساً كبيراً من القدس وجاهر يهود انطاكية بالعصابان وقتلوا بطريركها وكذلك ساعدوا العرب على فتح فلسطين ودلوهم على مدخت قيسارية وهذه طبيعة كل الأمم الغولية على أمزها كما دخلت حكومة بلاداً كان فيها يهود إلا كانوا آلة للفتوى سنة الله في خلقه:

إذا لم يكن للمرء في دولة أمرٍ نصيب ولا حظ تمنع زوالها ولما بلغ هرقل ما فعل الفرس جهز جيشاً ونهض من الفلسطنية وحاربهم وانتصر منهم سنة 628 م. واسترد سوريا وخشبة الصليب ولكن دولة كانت بالغة من الكبر عتيتاً وظهر عليها القمع والفسوير فعجزت عن دفع فيضان الحكومة العربية الفتية وتقلصت إلى داخل حدودها.

(24) آثار اليونان والروماني في فلسطين

شهد التاريخ على فلسطين أنها بلاد احتلال واستعمار فإن لم يكن يهودياً كان آشورياً أو بابلياً أو فارسياً أو مصرياً أو رومانياً أو يونانياً أو تركياً أو إنكليزياً ولا نعلم كيف يكون المصري.

فلسطين بلاد أسوية اغتصبها الغرب من الشرق أزمناً وتناوبتها دوله فأبدي هذا المد بالوجهة الفلسطينية وتبعتها طوفان اليونان ثم فيضان الرومان وسائل الصليبيين المتدفق وختم بالاحتلال الإنكليزي والوطن القومي اليهودي ولكن الشرق لم يقف أمامه صاغراً بل كان يثأر منه الكيل كيلين وغزا أوروبا وأحيلها قرونًا متعددة وحكم في أهلها فنفث الفتيقون إلى استعمار

-73-
بلاد اليونان والكلتين وجزر البحر الأبيض وبريطانيا تم غزا الفرس دولة اليونان واستولوا على بلادهم ثم فتح العرب أسبانيا وجنوب فرنسا وجزر البحر المتوسط والحضر الغول من شمال غربي البحر الأسود والفوا هنالك حكومات وإمارات وأرث كل هذا بفتح الأتراك العثمانيين وإکتساحهم شرق أوروبا حتى فيما قابلنا المد والجزر في كلنا القارات لتساوا ولكن ختمت رواية القرن التاسع عشر والشرق قن الغرب سياسة وعلماً وإقتصاداً.

ليست المدة التي بين فتح الأسكندر والفتح الإسلامي قصيرة بل تبلغ سنة أي من 322 ق.م - 637 ه.م وهي كافية لإندخاع سكان آسيا بأهلية أوروبا لأنهم الحاكمون ولكن مضى هذا الزمن الطويل ولم يعلق بنا وبلادنا لا النزى اليسير نفرد له فصلاً خاصاً من هذا الموجز:

(1) اللغة اليونانية:

أن كل قائد فاتح يحمل لغته معه حيث سار فتازع لغة البلاد وتضارعها فيجوز الأنساب، ويبقى الأصلح فلما نهض اليونان كان الشرق وتضارعها فيجوز الأنساب، ويبقى الأصلح فلما نهض اليونان كان الشرق موحوماً ففتحوا مدننا وأقاليمه ونشروا لغتهم الجميلة فانتبعوها الأتراك واحصرت بين الطبقة المهدبة وفي مجالس الخاصة وأندية الأدباء فقط كما هي اللغة الإنجليزية والفرنسية الآن وعجزت عن مزايدة لغة أهل البلاد الوطنية وهي اللغة الآرامية ولكنها

لفظة سامية مركبة من كلمتين برونا "بلاد" آنبا "أمانة النكل" أي "بلاد النكل" أطلق الفيقيون هذا الاسم على بلاد الإنجليز لكثره معدن النكل فيها فطلق بهم إلى يوما هذا .

-74-
تغلبت على اللغتين اللاتينية والعبرية الدخليتين فقد مضى قرن وثلاثة على حكم الرومان للبلاد واللغة اليونانية ذات السيادة فذّب المسيحيون أنجيلهم بها وتفنّنوا في رسائلهم بآدابها وأهلموا اللغة العبرانية ولغة الحكومة اللاتينية.

(2) المدن:

شاد اليونان في الشرق الأدنى مدنًا كثيرة وعظيمة منها الإسكندرية، وإسكندرية وأنتاكيا وجرش وعمان أما المدن الرومانية فهي بعلبك ومن زارها يحيى رأسBU أشجارًا من تلك المدينة الفائقة والبناء الضخم وقيسارية ومبسطية وطريفة ويرى أن الإسكندر أسس نحو 600 مدينة في الشرق جعلها مراكز لبث الدعوة اليونانية ونشر المدنية الغربية وأسكن بها دعاء اليونان الذي كانوا يبشرون بالروح اليونانية "النفورنث".

"Hellenism" (3) الروح اليونانية

ربما كان خير تفسير لكلمة "هيلنزم "النفورنث" أي نقل عادات الأفرنج وأعمالهم وأخلاقهم ولذلك سعي اليونان جهدهم لجعل البلاد يونانية فشروا بدياناتهم وشوقوا الناس إلى اقتسام عاداتهم وآدابهم فيما المسارح وملاهي التمثيل في مدنهم وشوقوا تماثيل مشاهيرهم وآدابهم فبعثت الأصنام وآثارها بافية في بعلبك فإن صح لنا أن نشأبه بين الماضي والحاضر نقول أن كرة القدم والملابس المقصرة والرقص والسينما وغير ذلك يشبه ذات الروح التي تواها اليونان في عصرهم.

كانت مدينة الإسكندرية وإنطاكية عش الدعوة اليونانية ومنهما تشع -75-
روحهم وتتوزع على سائر أقطار الشرق. فقد نبغ في سورية من الفلسفة والأدباء نفر غير قليل وزهت المدينة اليونانية ونضجت المعارف وازهرت العلوم في عاصمة البطالسة وكثرة المكتبات والآلات الفلكية لرصد الكواكب وأدوات الهندسة وآلاتها فاليونان أساتذة العالم وأدلة الشرق ومرشديه ولقد كان هم عشر مدن في فلسطين تدرس فيها تعاليمهم وتعرض فيها مدينتهم فتلاشت من ترفض اليهود وكرههم لها.

وإن من تنقل في أطراف فلسطين وتأمل قليلًا يرى آثار القناطر والطرق والهياكل التي تركها لنا الرومان كما سئفناه في هذا التاريخ عن مدن فلسطين.
القسم الثاني
الفتح العربي الإسلامي
من عمر بن الخطاب إلى السلطان سليم

(25) العرب في فلسطين إلى السلطان سليم

إن كل من شغل بعلم التاريخ يتجاذبه عاملان قويان. أولاً ما عامة وسعت حب العلم وأثناه خاص وهو رغبة الإطلاع على تاريخ قومه وبلاده فالقسم الأول من هذا الموجز يهم العربي الذي تطلع في العلم ورغب فيه أما القسم الثاني فمن الواجب المحتمل على كل عربي أن يمزجه بدمه ونفسه لارتباط تاريخ بلاده بأمه الذي يتعش نفسه ويجيبيه فأتي أعجب كيف يكون المرء وطنياً إذا لم يعرف تاريخ بلاده وسيرة أمته وأبطالها أو لم يتعلم لغتها وآدابها. فتصدرنا هذا الموجز بتاريخ الأمم الأخرى ليس لأنها أقدم من أمتنا العربية في سواحل فلسطين الشرقية والجنوبية بل لكونها ملاذات صحف تاريخ البلاد أكثر من سواها فالعرب منذ القدم سكنوا فلسطين وكانت فيها مرايعهم ومصاليفهم وشهدت فيها منازفهم وحكوماتهم وهذه نبذة مختصرة عن العرب قبل الإسلام في فلسطين تؤيد بها حجتنا:

(2) ورد في التواريخ المؤثرق بها إن نرامس بن سرجون ملك الكلدان غزا فلسطين سنة 380 ق.م. وصادف في سينا حكومة عربية. ثم حارب...
قيلة مفهوم "معان" العربية وأسر أميرها وقد ظهر في آثار بابل ما يثبت هذا القول.

(2) إن سرجون الثاني غزا عرب البادية الذين تعدوا على بلاد السامرة وأخضع قبائلمهم ومنها ثود وهم مدين "مدين" ومساكهم شرقي الأردن وحارب عابد وأخذ منهم طائفة وأسكنها في بلاد السامرة.

(3) في القرن الثامن ق.م. أخضع تغلب فلسطين عرب البادية بين فلسطين ومصر وكانت ملكتهم حبيبة فعِزها وولى مكانها أحد رؤسائهم.

(4) لما جاء الإسكندر إلى فلسطين وحارب غزة كانت حاميتها عرباً فقاومته أشد القاومة.

(5) بَشْرُ أحد تلاميذ المسيح بلغات عديدة منها اللغة العربية كما ورد في أعمال الرسل ص 2 : 11 .

(6) كان الحارث حاكم دمشق عربياً لما دخلها بولس الرسول كما ورد في رسالته إلى أهل مدينة كورنتوس (كورنتوس ص 11 : 23) .

(7) لما جاء تيطس لفتح القدس كان معه الحارث ملك العرب يقود فرقة عربية.

(8) التجأ هركانوس المكابي إلى الحارث ملك العرب فأنجبه وساعدته على أخيه أرسطوبولس .

(9) إن فيليبس الروماني الذي صار أمراطرأ في رومية سنة 244 ب.م. كان
عربيةً من بصرى حوران (راجع جبون)

Every mans's Encyclopedia Vol. 10, p298

(1) حكومة تدمر وتمدنها وتجارتها ونفوذها في الشرق والبلاد العربية (راجع زيدان التمتن الإسلامي).

(11) حكومة بطرا "الحجر" في الجنوب الشرقي من فلسطين إلى خليج العقبة وقد حكموا فلسطين وسوريا.

(12) الغساسنة حكام الشام وحوران وشرقي الأردن الذين عمروا المدن وشادوا القصور والقلاع وهي دولة عربية مسيحية.

ومن استقرأ صفحات التواريخ القديمة وجد كلمة "العرب" تجول في غزواتهم المفطرة ومحارباتهم الكثيرة في فلسطين وحسباً ما ذكرنا، إنه يشمل جد أبي النبي "صلى الله عليه وسلم" مات في غزة ودفن فيها وأنه نُشر عن دولة النبطيين واليهودوس وهموما وهموما وهموما لأنها بعيدة عن بلادنا ولا اتصال لنا بهم. ولكنا نقول إن سكان فلسطين القديم كالكعبانين والعمالقة الذين أجروا فلسطين من جزيرة العرب ربما كانوا من طوائف العرب البائدة طسم وجدياً إذ يضع على الفكر التصديق بأن كانوا قبائل كبيرة برمتها. ولكن يجب أن نستحب إلى غيابها وتدوينا فيها. ففيهم ما تقدم أن العرب لم يفضوا إلى فلسطين دفعة واحدة بل دخلوها تدريجاً ثم تدفقوا في عهد الفتح الإسلامي وهذا يحملنا على الترجيح إن مجيء كل فرد أو قبيلة عربية إلى هذه البلاد كان توطنة وتمهيداً للفتح الأخير وفديه السطور دليل كاف على أن العرب -79-
سكنوا فلسطين قديماً وشاركوا بها غيرهم قبل الفتح الإسلامي وتبعوا بها بعده. والمستقبل يتوقف على نشاط الأمة واستعدادها يملئه الأفراد على مدار التاريخ فلتخذر أن يكون شراً.

(27) النهضة الإسلامية

كان العرب قبل الإسلام مختلفي الاعتقادات ومترفقي النزاع ففيهم الموحد والمشرك والصوفي وغناه الأوسط ولكنهم أجمعوا على احترام مكة المقدسة فكانوا إذا حوا إليها يطوفون حولها ونزعون سلاحهم فلا يحاربون فيها ولا في أشهرهم الحرم وقد سموا أيام الحرب التي حدثت في أخبارهم "الفجار" لأنهم أرتكموا فيها فجراً. فيظهر أن العرب كانوا مقتذبين في بدء تطور جديد فنفوسهم تتحرر للنهوض وتحركوا حر海湾هم الداخلية وتعديات جيرانهم الفرس والأحباش على اليمن ووقعة ذي قار وانتصار العرب من الفرس كل هذا يدل على تمضى فكري وفلكي عقلي وتأهب للانتقال السياسي والديني الذي يطرأ على الأمم وتأثير ذلك ولادة محمد صلى الله عليه وسلم في سنة 57 هـ. في مكة من قبيلة قريش وهي من أشر قبائل العرب وها سدادة الحمية فيهم صغير ولفله جده عبد المطلب ثم عمه أبو طالب فأشهر بالأمانة والخلق الطيب فسمي بالصديق الأمين فنال بأموال السيدة خديجة بين الحجاز والشام على حصة من الربح فأراضها بمعاملته واعجبت به فخطبها وتزوجها وانتفع بها.

كان في نفس محمد أسرار محجوبة تحركها العوامل والبواغث الخارجية

-80-
فتبثرا ثم ختم إلى أن بلغ من العمر أربعين سنة وبعده الله نبياً فبعث دعوته ثلاث سنوات بين أهله وعشيرته الأقران فآسفهم له نفر وكان يجمعهم خفية في دار الأرقم المخزومي إلى أن أسلم عمر بن الخطاب فقال لهم "علماً خفي أتينا ونحن على الحق وهم على الباطل" فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم فإن قليل وقد رأيت ما تلقين فقال له عمر: والذي بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه الكثير إلا جلست فيه بالإيمان فخرج النبي صلى الله عليه وسلم في صفين من المسلمين حتى دخلوا المسجد فقفبه النبي صلى الله عليه وسلم بالفاروق لأنه فرق بين الحق والباطل فنزلت الآية (حسبك الله ومن أعبك من المؤمنين) (1) فجهز النبي صلى الله عليه وسلم بدعوته وطاف على القبائل وهو يتلع عليهم "أن الله يأمر بالعدل والإحسان وينهى ذي القرى وينهى عن الفحشاء والمنكر والغلي يعتكم لعلكم تذكرون" (2) فاضطهدته قريش وطفقوا يكرهون من آمن به على ترك دينهم بدفهم في الرمل أحياءً ويسومونهم أنواع العذاب وهم على عقيدتهم ثابرون وأن أعظم شرط لنجاح المبادئ الجديدة وطنية كانت أو دينية الجزء بصحة المذهب والتباطع عليه مهما أعطاه من أنغى.

ظلمت الدعوة الإسلامية ضعيفة حتى آمن بها أخوال النبي صلى الله عليه وسلم الأنصار ونصروه عصبة وحباً في الدين ومراهقة قريش عليهم يحولون وجهة الحج إلى منهم لآن أحد أبطالهم أبا الهيثم قال يا رسول الله فهـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ~~~

(1) سورة الأنفال الآية 24
(2) سورة النحل الآية 90

81
عسَبتي أن أظهرك الله عز وجل أن ترجع إلى قومك وتدعة فقال له أنتم مني وآنا منكم أسلم من سالم وأحارب من حاربي. فلما طال بهم العصف هاجروا جميعهم خفية إلى المدينة ليتحموا بالنصر إلا عمر بن الخطاب فأنهى تقلد سيفة ونكب قوته وإنتلى في يده أسهما وطاف بالبيت سعيا وصلى متمكنا وقال:

"شاهد الوجه لا يرحم الله إلا هذه المعاطس من أراد أن تنكله أمه وبيته وبلده ويرمل زوجته فليلقي وراء هذا الوادي" فما بعده أحد ومن ذلك اليوم الموافق سنة 22 بدأ تاريخ الهجرة النبوية فنزلت آيات الجهاد وحدثت المناوشات والسرايا والغزوات فجهز النبي صلى الله عليه وسلم سنة 8 هـ جيشا يبلغ عدده 3,000 مقاتل لغزو فلسطين وسوريا وأمر عليه مولاه زيد ابن حارثة فسار حتى وصل إلى معان فقاتلهم الروم بجيش كبير من قبائل العرب المتصرف خم وجذام وباقي فتخاروا في قرية مشارف ومؤديه 5 النبلاء فانكسر المسلمون وهزمو وقتل بضعة من قوادهم منهم جعفر الطيار جد آل هاشم في نابلس فلم يثن عزم النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصر على الغلبة فسار إلى مكة وفتحها وأسلمت قريش ووفدت إليه أمراء الجزيرة المسلمين مؤمنين بدينه الجديد فكان يصحبهم بالقرآن ليفقهوه في الدين ويعمله الصلاة وقد ساعد على سرعة انتشار الدين الإسلامي نفوذ حكم الأمير في قيلته فأنه عند ما كان يسلم الأمير تباعه القبيلة بلا عناء ففع الإسلام الجزيرة كلها ووجه النبي صلى الله عليه وسلم نظره لفتح سوريا وفلسطين فجهز

---

٨٢
جيشاً وقاديه بنفسه إلى تبوك فصاحه أهل أيلية وأهل مقنا راجعًا ثم جهز جيشًا لثالث مرة سنة 11 هـ وأمر عليه أسامة بن زيد ففاجاه المنيه والجيش على تمام الاستعداد. وإن محاولة النبي صلى الله عليه وسلم مرات تفتح فلسطين وسوريا لحجة بالغة على تطلعه ورغبته في ضمها إلى الجزيرة لأنها جناحها وقادمها للعراق.

(27) النبي محمد صلى الله عليه وسلم

كان عزيماً في نفسه أميناً في دعوته صادقاً في نبوته جلياً في شريعته مصلحاً بأخلاقه وتعليمه جمع كلمة العرب وأزال النفرقة من بينهم برпадة جديدة متينة وهي الإسلام الذي لم يكن مقصوراً على كونه ديناً وحسب بل كان رابطة قومية سياسية إجتماعية ألف بينهم وقذف بهم إلى العصور ففتحوه ببوابة روحاً وغرس عمله وانا نورد هنا طائفة من القرآن الكريم والحديث الشريف النفيسة المدجية بالحكمة والفضائل.

ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتكدوا بها إلى الحكام، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين (1)، والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواروا بالحق وتواروا بالصبر (2) الذين المعاملة. الذين النصيحة ومن عفا وأصبح فاجره على الله (3) ولتكن منكم أمة يدعون إلى

(1) سورة البقرة الآية 188.
(2) سورة العصر
(3) سورة آل عمران الآية 104.
الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر (ولا تنازعوا فتنشؤوا وتذهب
ريحكم) (1) «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغلل» (2) «من شاء فليؤمن
ومن شاء فليكفر» (3) «قول معرفه ومغفرة خير من صدقة يبيعها أذى» (4)
ليس المسلم الذي يشع ويجمع جاره» (5) وقال في خطبة حجة الوداع:
إستوصوا بالناس خيراً (راجع غنوض الفضائل الإسلامية). لما قبض النبي
صلى الله عليه وسلم إردت العرب ورجعوا إلى دينهم القديم لأنهم أسلموا
عصيبة وتبعوا أمراءهم قبل أن يرسخ الدين في نفوسهم أو تعرف القبائل ما هو
الإسلام فقثلوا المعلمين وطردوا المفقهين وأمتنعوا عن أداء الزكاة وأدعى كثير
منهم النبوة فحاربهم الخليفة أبو بكر حتى ثاروا إلى رشدهم وأذعنا للإيمان
بعد جهاد عنيف.

(28) إنفاذ جيش أسامة

ابتدأ أبو بكر أعماله بأن نفذ بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم
الذي كان مجهزاً بقيادة أسامة بن زيد وعده بين 700-1000 وزوجه
بوصية جليلة وهي صفحة نيرة من أخلاق أبي بكر قال:

(1) سورة الأنفال الآية 46.
(2) سورة البقرة الآية 256.
(3) سورة الكهف الآية 18.
(4) منتفع عليه.
(5) منتفع عليه.
لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغفلوا ولا تظلموا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا أمرأة ولا تعقوبوا خلاء ولا تحرقوها ولا تقطعوا شجرة مشمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا يعبرا إلا الله وسوف تتمون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له.

وقصاري القول إنها خير مثال للوصايا الإنسانية ودجيرة بأن تكون قدوة حسنة لقادة جيش عسرا المتمد الذين أمروا بقتل الأطفال وهم النساء وتغريب البيات وقطع الأشجار وهم الكائس. فسأر أسامة بسرته إلى أن وصل أبنى ناحية البلقاء شرقي الأردن وأوقع بقبرة قضاعة ورجع بعد أربعين يوماً. فأظهر أبو بكر الحكمة بإفاذ جيش أسامة وهو بحاجة لجند ينحدد بهم ثورة الردة ليوههم العرب الذين مر بهم الجيش أن للمسلمين قوة عظيمة لا طاقة لهم بها.

وقد خسر العرب في هذه الغزوات الثلاث ولكن لم تثبت همتهم وكبروا بجيش لا بشرذمة طالبين الفتح لا الغارة قاصدين الإستيطان ولا الإستيصال.

(29) وقعة البرموك

صعب على أبي بكر ظفر الروم بالمسلمين فاستنصر العرب واستجاشهم ووجه خالد بن سعيد بن العاص إلى تيماء فذهب وصدمه الروم جموع كبيرة أكثرها من العرب المنصرة بهراء ونبوخ وحليم وسلم وجمال وغسان ونزلوا من دون زياز بثلاث مراحل فلما قدم خالد أعروا منازمهم وحلوا بين "فحل"
وزياء والقسطل* وبعد قتال فل جيش خالد وارتدت مخزولاً فعزله الخليفة وولى مكانه يزيد بن أبي سفيان ومعه وجوهه مكة وأشرافها وغايته البلقاء وعزره بثلاثة أمراء وهم (1) عمرو بن العاص ووجهه إلى فلسطين فأخذه عن طريق المعرفة إلى أيله "العقبة" (2) الويل بن عقبة وجدهه الأردن ثم استبدله بسرحيل بن حسنة وسلك طريق تبوك (3) أبو عبيدة بن الجراح وشهد حمص وطريق البلقاء وعلياء الشام وأمر يزيد على الجميع وردته بوصية وهي:—

"إني قد وليتك لأبلك وأجزبك فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك وإذ أساءت عزلك.. إذا قدمت على جندك فأحسن صحتهم وإبدأهم بالخير وعدهم ياها وإذا عظتهم فأوجز فإن كثير الكلام يسبع بعضه بعضاً وأصلح نفسك فصلح لك الناس إخ.

فسار الأمراء وأوغلوا ببيوشهم وتفحلوا في إحساء البلاد فنصرت منهم طوال الروم ظاني أنها غيطة عما قريب تقشع. فلم يأوه اقتحموا المدن وجاسوا عوراتها هوا من غفلتهم وجمعوا جيشاً من الخماش والمقاتلة زهاء ١٥٠ ألف مقاتل. ويقول جبوع أنه كان في هذا الجيش ٦٠ ألف جندي عربي بقيادة جبلة بن الأهم آخر ملوك الغساسنة. فناجزوا المسلمين وهم متفرقون ليرعزعوا قوتهم وبلغوا أربهم لأن وقفة قرودهم كانت شبه مثلث رأسه في البلقاء مع يزيد "حفظ خط الرجعة" وطرفاها الواحد في الجنوب الغربي من فلسطين مع ابن العاص والآخر مع أبي عبيدة في الجنوب الشرقي من حوران

* قرى صغيرة مهدة في شرقي الأردن قرب ماديا.
وفي الوسط "الأردن" شرحيل "خط المواصلة" ففلطن المسلمين لقصد الروم وعرفوا نياتهم فأشار عمرو بن العاص بأن توحد القوى ويزعجوا إلى أطراف سورية ويستشيروا الخليفة. أما أبو عبيدة فرأى مبادرة الروم وحاربهم فخافقوه واجعمو على رأي عمرو وعسكروا في البرموق وأرسلوا إلى أبي بكر فاشتر عليهم بالاتحاد ريشما بأبيهم المدل وأمر خالد بن الوليد قائد جيش العراق إن يأخذ نصف من معه من الجند وينصرف مسرعا إلى الشام فامتنع الأمر وسار بقطع من الجيش فمر ببدور وأغار على جمع من تغلب وكلب وقاتل بين مشجعة وآتى إلى نبي العقاب. وأغار على غسان يوم عيد فصحهم ثم وفد على المسلمين في البرموق فوجد كل أمير يتساند على جنده فقال لهم: "إن هذا اليوم يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخ والبغي أخلصوا جهادكم. فأشار عليهم بأن يتناوبوا الإمارة العامة فقعبوا منها وولوه أياها فعباؤهم تعبي فنية "كراديسب كراديس". ووضع نفسه في المقدمة يقودهم إلى الأمام وفي القلب أبا عبيدة وفي اليمنة عمرو بن العاص وشرحيل وفي الميزة يزيد بن أبي سفيان والقعاق بن عمرو. وكان قائد الطالب قبعة بن أشيم والقاص أبي سفيان بن حرب يشجع الرجال ويقص عليهم نبا البطولة والنبات. فلما استعرضوا الروم قال رجل خالد "ما أكثر الروم وأقل المسلمين"!! فأجابه "ما أكثر المسلمين وأقل الروم إما تكثر الجنود بالنصر وقيل بالخزلاх" وهنالك.

هو نهر صغير يصب في الأردن بعد خروجه من بحيرة طبرية وكلمة برموك مغاربة عن اللغة اليونانية.

Heiromax: برموكس
كان يستعد الجيشان لمعركة فاصلة فلما أن شنق المسلمون ويسودوا على سوريا وفلسطين ومن هنالك إلى مصر والمغرب والأندلس أو يردهم الروم على أعقابهم إلى مهدهم وباديتهم. فلما اصطدم العسكران أظهر الروم من السكالة والقصير ما كاد يزيل المسلمين عن مواجهتهم لولا إن النساء وحلف النصي والرماج والعمد وضربن بها وجه الخيل إذا الوت وحصنهم قائلات "إلى أي جمئة الإسلام" فاصدروا وقد ضع الروم على ميمنتهم فخشأوه وسحقوه ثلاث مرات وهم صابر وابو عبيدة ينتظى الصفوف فيشجع الجميع ويضمد جروح الجرحى ويعلهم بالنصر إلى أن فازوا وانسحب الروم من أماهم معتصم بيسان تاركين أسلاهم وغالبهم. وقد اختالف المؤرخون في عدد الجند فقال ابن الأثير أن جنود العرب كانت 40 ألفاً والرومية 240 ألفاً. أي أن الجندي العربي يقابل خمسة من الروم. وقال المطران الدبس في "موجز تاريخ سوريا" أن العرب كانوا 40 ألفاً والروم مئتي ألف ومنهم من بالغ ومنهم من أعدأ، والحقيقة أقرب إلى الصحة كلها قل العدد. كانت هذه المعركة مفتوحة النصر ومقدمة للاستيلاء على سوريا وفلسطين فيما إن جميع المعارك الجزيرة التي حدثت بالقرب من هذه البقعة كانت فاصلة فلما تورد هنا بعضها:

1- وقائع مجدور: بين مصر والعراق وما كان يلحق فلسطينين من عواقبها.

2- وقعة البرموك: التي زال بها ملك الروم عن الشرق.

3- معركة حطين: بين طبرية والناصرة وهي المعركة التي قضى بها صلاح الدين على الأفرنج وأخرجهم من فلسطين.
4- اصطدام الترك بالمملك في اللجن ووجوعهم القهقرى.

5- معركة مرج ابن عامر: بين جبن والناصرة التي هزم فيها النبي جنود الألمان والأثراك أسر منهم خمسين ألفاً.

كانت نتائج هذه الملاحم الكبرى في تلك البقعة الضيقة قاضية وفاصلة بين المتنزعين فمن فاز ملك البلاد ومن غلب على أمره خسرها ورجع مخلداً. ولم يك هرقل متوقعاً هذا الإنكسار فلما فل جبهة جزء وانسحب إلى شمال سورية ووإلي أخاه "ثيودور " القيادة العامة وبعث إليه القواد والعساكر وطلب المجدات من قومه ليكرُّن قاتلهم على العرب ويجليهم عن البلاد. أما العرب فأنهم ورثاً بشير بن كعب الحميري مدخل الرموع كي لا يقطع عليهم العدو خط التواصل وخلعوا إلى فتح دمشق وقد فاجأتهم وفاة الخليفة أبي بكر وإستخلاف أمير المؤمنين عمر. فحاصرها المدينة سبعين يوماً ودخلها خالد عبودة وأبو عبيدة صلحاً. وقد اختل السُلطان في الوقت الذي عزل فيه خالد كمان قبل فتح دمشق أو بعدة والأرجم أنه قبله لأن شروط التسليم والعاهدة ومخايرية الخليفة كانت كلها بإسم أبي عبيدة الذي استخلف على دمشق يزيد ابن أبي سفيان وإنقلب إلى فحل (أبل) شرقي الأردن خاربة رافضة جيش الرومان الذين أروا إلى بيسان فوجد الميع وفرحوا واستestrعون الخليفة ولا نية لهم بأن يرومنا فحل حتى يأتي جوابه فظن الروم بهم ضعفاً وأغتروهم ووجدوا المسلمين على جذر وقاتلهم وهيزهم فغاصت أرجلهم في الرحل وقتلاً على آخرهم
وكان نصرًا مبينًا وسمي ذلك اليوم "ذات الرغبة" فانصرف أبو عبيدة في خالد
ومن معه إلى حمص. فذكره وشأنه ولذكر ما تم وجرى في فلسطين.

(30) أجنادين

ملح واقع بين بيت جرين والرملة كما أجمع على ذلك كتب التاريخ
وياقوت. وقد اختلف المؤرخون في وقعة أجنادين ومن يستقصي التواريخ العربية
يشببه عليه أنه حدث مواقف متناقضة والحقيقة أنها موقعة واحدة لأن العرب
لما قدموا البلاد كان كل أمير مستقلًا غير مرتبطة بالآخر فانسابلوا في داخل
البلد فلما نشط الروم لمناهضتهم تركوا ما تفتحوا وانضموا إلى بعضهم في
البرموك تحت لواء خالد بن الويلد. وبعد انتصارهم ذهبوا إلى دمشق ففتحوها
ثم انسحروا ثانية يفتحون ويدمون فسار عمر بن العاص وشرحبيل بن حسونة
إلى بيسان ففتحها صلحًا. وفتح أبو الأعور السلمي طريبة سنة 14 هـ سنة
570 م على صلح دمشق وكان يشاطروا المسلمين المنازل في المدينة وما أخذ
بها مما يصلها لينزل فيها القواد. ثم قصد عمر أشغال جامية الروم
وعساكرهم المرابطة في المدن الم المتهره خشية إجماعهم ف يؤلفوا قوة كبيرة
ورأى أن يفتاحهم غير جماعين فسرح يزيد بن أبي سفيان أخاه معاوية - خصار
قيسارية وانطلق علقمة بن مجرز لخازر غزوة وعلقمة بن حيى ومسروع بن

نظرماً ورد في كتاب التاريخ كان سهولاً وتحديد المكان مغولًا وربما كانت أجنادين جنوب أو اللجن
أو تولوكوم على حسب ما ورد في سير الحوادث الدالة على أنها واقعة بعد مرج الروم "ابن عامر".

90
فلان العكري لقتال إيليا "القدس" وأبو أيوب المالكي إلى الرملة. ونهض هو جنوباً فأقام على أجنادين وفتحها سنة 15 هـ سنة 637 م. وقتل في هذه الواقعة الأمير عون ابن الملك النعمان بن المنذر جد أسرة آرزال ثم ساهم القواد في فلسطين ففتحوا غزة واللد وسبسطية ونابولي ويفا وعمّوس وبيت جبرين. واستعفست الرملة والقدس وقباسية وعسقلان فأجمع معظم الجيش لحصار القدس وقد بلغ 37 ألف مقتاتل وكانت السماء ممطرة فإنزل خالد بن الوليد مما يلي باب أريحا وعروة بن مهلل مما يلي طريق الرملة وواصلوا الحصار أربعة أشهر.

(31) فتح بيت المقدس

عجز الروم وابقروا أن دولتهم دالت وأنهم مأخوذون فيها والموسيمون يحرون بيت المقدس ويقضونها فلا يسمحون بها لغيرهم فناهجا بينهم وأقرها على التسليم وطلبوا إلى جيش أبي عبيدة إن بصاحهم على صلح أهل مدن الشام وان يكون المتوالي للفتنة الحليفة عمر بن الخطاب في ذلك فحضر إلى الجابية وقدم عليه رسول إيليا فطلقاهم المسلمون براية الأمن وصالحهم على الجزية وأمروهم على القدس وخليها وهذى شروط المعاهدة:

التي كتبت في الجابية كما أوردها الطبري وهي:

بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهله

إلياء من الأمان:

"أعطاه أماناً لأنفسهم وأمواتهم ولكنائهم وصلبانهم وسقيهم وبرينها"
وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتفض منها ولا من جيدها ولا من صلبهم ولا من شريق من أموالهم ولا يكرون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود. وعلى أهل إيليا أن يعطوا الجزية كما يعني أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم والنصوص فمن خرج منهم فإنه من على نفسه وماهلا حتى يبلغوا مأمنهم. ومن أفام منهم فهو آمن عليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية. ومن أحب من أهل إيليا أن يسير نفسه وماهله مع الروم ويخلصهم وصلبهم فأنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بهما من أهل الأرض قبل مقتل فلان. فمن شاء منهم فقد وعليهم مثل ما على أهل إيليا من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهل فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يخصدوا حصادهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله بهم رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطاهم الذي عليهم من الجزية كتب سنة 5 هـ شهد خالد بن الوليد، وعبد الرحمن بن عوف، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان.

أما معاهدة الرملة فهي عين معاهدة بيت المقدس، وقد أورد الإنس

الجيل زيادة على هذا العهد منه:

1- أن لا تبنى كنائس ولا تتجدد في خطط المسلمين إذا هدمت.

2- أن يضيفوا المسلمين ثلاثة أيام بلياليها.

3- أن لا يواجهوا جاموسا ولا يكتبوا غشا للمسلمين ولا ينعوا من أراد الإسلام.

٩٢-
إن لا يبيعوا خمراً ولا يضربوا بأحد من المسلمين .. خ
فعل الزيادة التي ضمنها الإنسان الجليل للمعايدة المسطحة في تاريخ
الطري هي ذيول أضافها عليها الملوك والخلفاء المتّخرين بحسب الظروف وإذا
فالطري أولى بدرجها لأن تاريخه مفصل وقد بناه على الإسناد والتحقيق.
وبعد أن أمضى العهدة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شخص إلى يس
المقدس ببابه البسيطة وموكبه الديمقراطي لا كما نراه من قواعد، ولملوك
القرن العشرين الذين لا يسيرون إلا بالقطارات الخاصة أو الأتومبيلات
الفخمة بأبهة عظيمة وحاشية مهيبة فقدم المدينة وحيم خارجها إلى أن سلموها
فدخلها ووزار كنيسة القيامة فلم أنكر كه الصلاة خرج منها وصلن أمانها
حيث كنيسة سيدتنا مريم فأنشئ هناك جامع وأحصى ولم يصل في خشية أن
يدعيها المسلمون ويجولوا إلى مسجد.
ثم طلب إلى البطريرك "صفرونيوس" أن يره مكان هيكل سليمان
فذهب وأباه ودله عليه فلم شاهده مزينة قدر وأطلالاً دهراً دهراً وأخذ يخفن
الراب وينحصه بكفيفه فتبعه من مصبه حتى تصب عرقاً وأمر بناء مسجد فوق
الصخرة في الحرم الشريف الذي يقدسه جميع مسلمي الأرض ثم أمر علّمته بن
مجزر على نصف فلسطين الجنوبي وقاعدته إيليا وعلّمته بن حكيم على نصفها
الآخر وعاصمتها الرملة ورجع إلى الحجاز عاصمة الخلافة. وبعد سبع سنين فتح
معاوية بن أبي سفيان مدينة قيسارية بوشابة رجل يهودي دل العرب على نفسه
فدخلوا منه إلى المدينة وفتحوها وسنة 624 هـ فتحت عسقلان ولم يبق للروم

٩٣
مدينة ولا قرية فزال ملكهم عن فلسطين وأصبحت البلاد عربية في حكومتها.

وشعبها.

طاعون عماس

كانت عماس قرية يزيد بن أبي سفيان وهي اليوم من ناحية بني مالك

تبعد 17 كيلومتراً إلى الشمال الغربي من القدس انشر منها الطاعون فمات

أمين الأمة الإسلامية أبو عبيدة وأتربت مكانه معاذ بن جبل فطعن وكلاهما

مقبور في غور بيشان وصحابهما قبر شرحيل بن حسنة. وتوفي أيضاً يزيد بن

أبي سفيان. ولما عين عمرو بن العاص أميراً عاماً للجند أمرهم إن يتفجروا

وبتزعموا على رؤوس الجبال مباعدين عن بعضهم فخف الوباء وإنقطع

المرض.

ويقدر مجموع من توفي بهذا الطاعون خمسة عشرين ألف نسمة وليس

هذا العدد بكثير لما شاهدناه في الحرب العظمى.

وفي سنة 638 م تم للمسلمين الفتح فقسموا البلاد إلى أربع ولايات

"أجناد" فكانت فلسطين قسمين (1) جنوب الأردن وعاصمته طرطسا وبلادها

بيسان وعكا والفولة (2) جنوب فلسطين وحاضرتها الرملة وبلادها القدس

وعسلان وقيسابة وأريحا وبيافا وعمان (3) دمشق وبدها بيروت وصفد

وسيدا (4) الثغور التي فصل العباسيون جزءاً منها سنة 170 هـ وسموه

عواصم وحاضرتها حمص وحلب وإنطاكية وطرابلس. إما مدينة القدس فكان

لها إمكانيات خاصة لما لها من الإحرام الديني في نفس المسلمين وقد البيس
على بعض المؤرخين فظنوها مستقلة على الرملة والحقيقة إنها كانت تابعة إليها وسنة 612 م، تعيين معايب وبالي دمشق والأردن حاكماً على البلقاء والأردن وفلسطين والسواحل وأنطاكية وكليكيا ومعرة النعمان وما إستخف دعمان أشاف إليه جميع البلاد السورية فإنندب معاوية علقة بن حكيم الكناني واليًا لفلسطين وأبا الأعور السلمي للأردن.

(32) إدارة البلاد وأسباب نجاح العرب في فتوحهم

أ- إدارة البلاد

أبقى العرب البلاد ما كانت عليه فظل أكثر السكان يديرون بديهم متصدين لرغمهم الروماني في القسطنطينية كما يرتبط الآن جميع المسلمين بالحليفة العثماني ومارسون لغاتهم. فأهل فلسطين كانوا يتكلمون اليونانية وأهل مصر القبطية وأهل العراق الفارسية واتهمتها الحكومة لغات رئيسية في دواوينة إلى أن ولى الخليفة عبد الملك بن مروان فأخذتها وألفها واستبددها باللغة العربية وضرب الدينانير الإسلامية فأصبحت الحكومة العربية وقين مستقلة إستقلالاً إقتصادياً ولغوياً وسياسياً. فتهافت الأعجام على تعلم اللغة العربية ليستفيدوا من حرفية الكتابة لأن لغاتهم أهملت فتعبروا ودخل أكثر العجم في الدين الإسلامي وتعاونوا به فأصبحت البلاد عربية إسلامية محبة يتخللها شرذمة قليلة من غير المسلمين.
(ب) أسباب النجاح

ما يُدُعِّى إلى الأعجاب بِهِمَّة العرب وأعظمهم تفوقهم على غيرهم بالرغم من عدم انتظامهم فأنهم تغلبوا على الملوك الراقية وذكروا عروش الحكومات المؤسسة التي كان لها الجند المنظم ولديها الخصون المتسعة وبيدها السلاح والذخائر وقد يُعَلِّل كثير من المؤرخين هذا النصر ويسبونه إلى عوامل معقولة وأسباب علمية مهدت لهم السبل لِلدُّولَم حتی أقصى المعمور وهذه الأسباب:

1. نشاطهم وخفة أتقانهم واكتشاؤهم بالقليل من الحاجيات ووفرة حمافهم ووسائل نقلهم.

2. اعتقادهم المدين في نص الآية (ولَن يَلَوَّنَّ الَّذِينَ يَعْتَقَدُونَا إِلَى جَاهِلِهِمْ، رَبَّنَا أَنْ تَفْخِرْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يُعَمِّدُونَ) (1) ومن الأحاديث: «الجنة تحت ظلال السيف» (2)

3. مهاراتهم وفروستهم ونجابه خيلهم وتفوقهم عدوهم في المبارزة واتقانهم رمي البال.

4. عَظْمَة رِجال النهضة الإسلامية مثل عمر بن الخطاب وأبي بكر وأبي عبيدة وخالد بن الوليد وعمر بن العاص ومعاوية إلخ.

راجع: زيدان - تاريخ النجد الإسلامي.
(1) سورة المنافقون الآية 11.
(2) متفق عليه.

٩٦
(5) الصبر والطموح وقلة حاجتهم للزاد والعلف الذي كان يهظ عدوهم فيمل القتال قاعناً بالسلامة.
(6) العصبية الجنسية فإن القبائل العربية المسيحية التي كانت خاضعة إلى الحكم الروماني الأجنبي صافحت أخوانهم العرب وإنضمت إليهم وحاربت معهم الرومان وهنا رجعت جامعة اللغة على جامعة الدين.
(7) المحافظة على خط الرجعة فانهم كانوا حريصين على خط رجعتهم حتى لا يقطع العدو وينمو عليهم فباخذهم أسرى.
(8) ظهر المسلمون بالروم في وقعة البرموك فانه اكسبهم قوة معنوية واحترموه فاستغروا شأنته وطمعوا فيه.
(9) ظلم الرومان للسكان وفساد الأحكام حتى نقم الأهلي أحكامهم وملوا ولايتهم وتموا تدليها.
(10) اليهود فانهم كانوا آلة نقمة للعرب من الأهلي وأداة إنقاص ودليلاً للطرق شأنهم مع كل فاتح.
(11) عدل المسلمين والنسوية بين الناس فلم يكونون يفرقون بين أمير وحقي ورفيع ووضع "ديموقراطية بحتة".
(12) استبقاء الناس على ما كانوا عليه فلم يتعرضوا لديهم أو معاملتهم أو أحكامهم القضائية والعرفية.
(13) وفرة الغنائم فقد فاض على المغارب بنى من ذهب فكانوا يجهون من فتح البلاد غني عاجلاً وغنائم جاهزة حتى إن كثيراً من العرب المنصرة.
اعتقوا الدين الإسلامي وحاربوا حباً في المال.

(4) ضعف الفرس والروم بخلافاتهم الداخلية وعدم إخلاص القواد وملوكهم وأمرائهم والذي يقابل بين فتح سوريا ومصر وبين فتح العراق يستغرق كيف خضعت الأولى واستعانت الثالثة وتلاعب المسلمين في فتحها بعد فتحها محافظاً على لغتها وعاداتها ولم يمض عليها قرن ونصف حتى استبدلت حكمتها الفارسية الوثنية بحكومات فارسية إسلامية فاصطفت الدين فقط وأنثى أن تتجارب كما فعلت الحكومات الأوروبية فأنها تنصت مع المحافظة على جنسيتها ولغتها والسبب في ذلك أن دولة الروم كانت مستعمرة لسورية فلا غلبت إخسرت عن البلاد. وظل السكان وأكثرهم العرب فاندمجوا في الحكومة الإسلامية والقومية العربية وأصبحوا أمة واحدة. أما العراق فكانت حكومته فارسية وكان سكانه عجماً فلم يصلوا إقطاعهم إلى دولتهم قبله فاعتقوا الدين الإسلامي ولكنهم لم يسموا إستقلالهم فتوصوا حتى سمحتهم الفرصة فاستجابوا ملكهم وقد حاولوا مرات قلب الحكومة العربية فقالوا عمر بن الخطاب وزعيم لآل البيت وساعدوا في ثوراتهم ونصروا بني العباس ولا غرض لهم من كل هذا إلا دك الدولة العربية واستراع دولتهم الفارسية.

الفتح العربي الإسلامي والخليفة الراشدون

شرعت الحكومة العربية تجمع حدودها وأطرافها فتجاوزت سورية

98
ومصر وشواطئ افريقيا الشمالية والعراق وأيران والفينان إلى أن توفي عمر بن الخطاب وانتخاب عثمان بن عفان فضعف عن ضبط البلاد لغير الأحوال وتفرق الزعات والأراء فهم بإدارة المملكة كما يريد مروان بن الحكم ومعاوية بن أبي سفيان فأخذ بإيدهما وولي أهل الأمصار وتعصب لقومه فعزل أهل السابعة في الإسلام والشيرة في الفتح. فاغتنم هذه الفرصة بهدوء الحجاز الذين دخلوا في الدين الإسلامي ليفسدوا ويهدموا أركانه فطافوا الأمصار وقدم زعيمهم الأكبر عبد الله بن سبا "ابن السوداء" الشام ليوغر الصدور مبشاراً بكلمات باقية منها: "إن معاوية يقول المال مال الله إلا أن كل شئ لله يريد أن يتحت دون الناس ويحر اسم المسلمين ويتول الآية (والذين يكترون الذهب والفضة ولا ينقونها في سبيل الله فيشرهم بعداً بخير)"(1) وقال أعجب من يقول برجعة المسيح ولا يقول برجعة محمد وكيف تعصون آل بيت نبيكم ووضع أحاديث كثيرة وزور كتب وأرسلها إلى البلدان يلحب على عثمان. فإختبرت الثورة ونضجت في أفكار المسلمين فاشتغلت الفتنة وإضطرمت في كل الأقطار خلاً سورية لأن معاوية كان ساهراً يقطن فخرج الثوار من مصر والعراق إلى المدينة ناقمين من أعمال عثمان ومطالبين بالرجوع إلى سيرة العمون وبعضهم يقول أن علياً أحق بالخلافة من سواه. فانجلت هذه العاصفة عن قتل عثمان واختيار علي ملكه وشد طلحة والزبير وخدعوا عائشة أم المؤمنين زوج النبي صلى الله عليه وسلم وخرجوا إلى العراق وخلافوا عليه فأصلح الله unsere القلعة الآية ٣٤.
فحاربهم وظهر بهم "في وقعة الجمل" فقتل الأثنا وأسرت عائشة وامتحنت معاوية بسورية ولم يباع لعلي وأخذ يتهمه بأنه رأس الضالة. وأنه هو الذي ألب على عثمان وأوى قتله فأجتمع بين أمية حوله وعاضده عمرو بن العاص على أن يعطيه مصر طعمة. فغضب على وهب لقاتله وعاجزه فانشقوا بصفين سنة 36 هجرية واجتهافا بينهم الرسول وتكرر السفراء طمأناً في الصلح فلم يتوافقوا خبر. وفي سنة 37 هجرية أبلت الحرب وقد أظهر جند الأردن شجاعة فائقة. ثم اتفقوا على تحكيم رجلين فصلاً للخلافة ورقفاً بالمسلمين فأختار معاوية عمرو بن العاص داهية العرب ورضي علي بأبي موسى الأشعرى. ولمّا اجتمع الحكمان وتفاوضاً كاد عمرو أبا موسى وقال له لنخلع الرجلين حقاً للدماء ويكون الأمر شورى فخدع أبو موسى وقام خطيّاً فخلع الرجلين (علياً ومباشرة) ثم قام عمرو فخلع علياً وآخر معاوية فلم ترض شيعة علي بهذا الحكم وافروعوا مختلفين. ومن هنا بدأ أمر علي يضعف ويضحا وشأنه يسيئ وشأن معاوية يعلو حتى قتله ابن ملجم وبايع جنده ولده الحسن ثم انفضوا عليه فاستشار الحسن أخاه الحسين في التنازل عن الخلافة ففهم قالاً "ياك أن تصدق أهودثة معاوية وتكدّب أحدثة أبيك" فلم يسمع منه وخلع نفسه بعد سنة شهر من حكمه وبايع معاوية وسلم إليه الكوفة عاصمة أبيه في آخر ربيع الأول سنة 46 هـ فسمي هذا العام "عام الجماعة" لأنهم أجمعوا به على خليفة واحد ولكن الخوارج كثروا وعاصروا على الخليفة فكان كلما قضى على فرقة تبنت أختها وظلمت طوائفهم تتعاقب حتى حين. فالطوائف الشيعية والزيدية والدرزية والإسماعيلية والأباضية هي بقية أولئك
الخوارج الذين تكرّشت نواتهم من نفاثات إبن سبأ والذين حاربوا نبي أمية وبني العباس وكانوا يهدمون الدين الإسلامي لولا أنه كان فيهما ويتقوون الدولة العربية لولا عصبيتها القومية.

(34) نبذة من تاريخ القران الكريم

إن للقرآن أهمية كبرى في توحيد كلمة العرب وفتوحاتهم العظيمة

تذكر هنا شيئاً عنه:

نزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم في مدة 20 سنة فكانوا يكتبونه على الرقاع وعظام الأكتاف وعصب النحل واللحم أو يستظهرونه ويسمون حفظه الحفاظ. ويقسم القرآن بحسب محل النزول إلى مكي ومدني. أما بأعتبار الناسخ والمنسوخ فله أسماً: ناسخ ليس فيه لا ناسخ ولا منسوخ وهو 44 سورة الفاتحة، يسني إخ، وقسم فيه الناسخ فقط ووهود: الفتح، الحشر، المنافقون، إخ وقسم فيه منسوخ فقط وقسم فيه ناسخ ومنسوخ وهو 25 سورة البقرة، الحج، النور إخ.

والأنسخ على ثلاثة أضرب أحدها ما نسخت تلاوته وحكمه، الثاني ما نسخ حكمه دون تلاوته الثالث ما نسخت تلاوته دون حكمه وكل ذلك تم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فلم قبض وارتد العرب وقيل أكثر الحفاظ في غزوة اليمامة أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر بجمعه فزود ثم جمعه من تلك المخطوطات ومن صدور الرجال. وأبقى عند أبي بكر حتى مات فأخذت عمر فلما قبض بقي عبد إبنه حفصة وفي خلافة عثمان إنشر

- 101 -
المسلمون في كل الأقطار فلذهب القراء في تلاوته مذاهب شتى فشهد حذيفة
بن اليماني اختلافًا بين المسلمين في قراءة بضع الآيات ورأى بعضهم يفضل
قراءة أبي موسى على ابن مسعود فانيًا عنمان بذلك وأنذره بسأ العاقبة
فبعث إلى خفصة بنت عمر أن يرسل الصحف لنسخها وردها إليها إلك
 فأرسلها فدعا عنمان أجلة الصحابة وأمرهم أن ينسخوا القرآن ويستعينوا
على القراءة بما حفظة القراء وقال لهم أن اختلفتهم في شيء فاكتبه بلسان
قريش ففعلوا ذلك سنة 63 ه وكتبوا سنة مصاحف فبعث عنمان بأربعة منها
إلى الأموار مكة والبصرة والكوفة والشام وأبقى أثين في المدينة. والمصاحف
التي نداؤوها الآن هي فرع عن ذلك الأصل. كتب القرآن بلا شكل ولا
أعجام حتى أيام زيد فوضع نقطًا لونها خالفون لون الكلمة "أعجام غير واف'
ثم وضع أبو الأسود الدوملي نقطًا ليتميز بها الاسم والفعل والحرف وربما اقتبس
هذا من السريان والكلدان أما صور الحركات التي وصلت إليها وهي الضمة
والفتحة والكسرة فقد وضعها نصر بن عاصم بأمر الحجاج بن يوسف وجعلها
أوّردةً وأزواجاً. ثم أضيف إليها الحركات المماثلة وهي الإملاء (e) والروم (u)
والإشام (o) فكانت لها أوضاع خصوصية وزيدت عليها علامات أخرى
مقطعة من كلمات تؤدي المعنى المراد نحو متى "صلت" "شدة". ولكن
ومن هنا تفرعت القراءات الشاذة والصحيفة فابدت الفاسدة ولم يبق إلا القرآت السبع وأشهرها قراءة
حقي (راجع الأثنان).
قديم ومنهم من يقول أنه حادث وحدث هذه البدعة درهم بن الجعد إذا المأمون فقد امتتح العلماء القائلين بقدمه ونكل بهم المعتصم من بعده.

(35) آثار الخلفاء الراشدين في فلسطين

الأنبية التي على رؤوس الجبال قد حولوها مناظر "مناظر" وجعلوها يشرف الواحد منها على الآخر فإذا داههم العدو أنذر بعضهم بعضاً نهاراً بالدخان وليلًا بالبار فينتقل الخبر بسرعة كالبئادر ويثبتهم المدد. ومن آثارهم تأسيس دور الضيقات وفرض عطاء للمجذوين وبناء الجوامع في القدس ونابلس وبيت حم وغيرها.

(36) أبطال النهضة الإسلامية

أن جميع النهضات القومية والانقلابات الاجتماعية يتقدمها أعمال تهيئة تسهل لها النجاح فالانتهاء الفكرى والنوع الشخصي ركناً للنهضة.

وقد نبغ في الصدر الإسلامي أساطير عظام كان فم القائد المعلى في تكوين النهضة الإسلامية والدفاع عنها فجدير بما أبناء الأمة العربية أن نرفع لهم التماثيل أكرارًا بفضلهم واعترافًا بعظمتهم وتبويها بأعمالهم لتشفي بهم النفوس المريضة ونداويهم ضعيفه فقتصر هنا على سير من فتحوا فلسطين وكانوا عاملاً كبيرًا في إحياء الأمة العربية فقول.

1 - عمر بن الخطاب

عمر بن الخطاب من بنى عدي بطن من بطن قريش وكنيته أبو حفص كان تاجراً وله السفارة في الجاهلية فإذا ما اختلفت قريش وقبيلة أخرى ندبته
وحدة للمقاومة ولا حق لسواه أن يشارك فيها.

كان المسلمون ضعافًا حتى أسلم فاعز الإسلام به وصاحب النبي "صلى الله عليه وسلم" وخير صحبة وثقيلاً ماقبل القرآن بما أشار به وشهد غزوات بدر وأحد والخرج وبيعة الرضوان. ولما ولي الخلافة قال "الله أكبر وأنا أشده فلنبي وأني ضعيف فقوتي وأني بخيل فسخني ان رأيت في أعوجاجاً فقوموه" فاجابه أعرابي قائلًا لو رأيناك أعوجاجاً لقومنا بسبيفنا. فхожده اللذي أوجده في قومه من يقوم أعوجاجه. وهو أول من وضع التاريخ المجري وفرض العطاء "رتب الرواتب" ودوّن الدواوين فأسس نظارة المالية والحرمية والإعاشة ومنشأ البلاد إلى مناطق وعدين عليها الأمراء ورتب الغزوات في الشتاء "الشواني" وفي الصيف "السوات" ورتب البريد مجاناً وأمر ببناء البصرة والكوفة وستطيع شوارعهما بعرض 20 ذراعًا والأزقة بعرض 7 أذرع وحجر على المجذومين ومنعمهم ملاءمة الناس.

وأقام العيون "الاستخبارات" يواجهون بالأخبار عين قاصاً "مفتشاً" يطرف على المائمين ويتحقق الشكايات سراً وعلناً ويدخل إليه ما وجده بالتدقيق. وأسس الحسبة "مجلس البلدية" لمشارفة المراقبين والكبلاء ومراقبتها وملع الغش وتنظيم الأزقة والرفق بالحيوانات في جازي من حمله أكثر مما يطيق وهدهم البناء ادخت في مجتمع السوق وحظر على الناس الإزدحام في الطرق وأمرهم أن يستروا الكفيف ويحوا مناعها عن السبيل. وكان إذا تكلم أسمع وإذا مشي أسرع وكان ديموقراطيًا لا فرق عنده بين الملك والسوقة وحادثة

- ١٠٤ -
الملك الفسائي جليل بن الأُيمن مع الفزاري مشهورة وقصة عبد الله بن عمر
ال العاص مع القبطي ظهيرة وقوله المأثور "مذكم تعبّدت الناس وقد ولدتهم
أمه مأحراً" فكانت إدارته عرفية شديدة عادلة. كبح جمّاح الغطرسة البدوية
وبني عليها التساهل الحضري.

كان يجب التجارة وحرص قومه على مزاولتها فقال "لا تلهكم الرياسة
وجيها يا معشر قريش لا يغلبكم الغرباء على التجارة فإنّها ثلث الإمارة"
وكان إذا رأى فتي نشيطاً سأل عن حرفته فإن قلب لا حرفة له هان عليه وكان
يكره الكسلون ويكره من يقطف رأسه إلى الأرض وكان يقول للقراء أرفعوا
رؤوسكم ولا تكونوا عيالاً على المسلمين كان يكره التنطع في الدين والولع في
الزهد فأمّر أن يعجل بأفطار رمضان وأن تمشي الناس مشية غير ناكسي
رؤوسهم. وكان يقول للحجر الأسود أني أعلم أنك لا تضر ولا نفع. ولما
أخذ الناس أعظمون الشجرة التي بوعدها النبي صلى الله عليه وسلم قطعها
وفي الحقيقة أنه من أعظم بناء الإسلام ومكوني الأمة العربية. وفي خلافته
فتحت سوريا والعراق وافريقية ثم فجع أبو لؤلؤة العرب بقتله.

2 خالد بن الوليد

هو من بني مزروم بطن من بطون قريش كان قائد فرسان قريش في
الجاهلية "الأعْتَيْ وَالْقِبَاء" فلما أسلم أنفذه النبي مع سرحه زيد بن حارثة لغزو
الروم فكانت موقعة مؤتمة واستشهد فيها القوايد إلى أن رفع المسلمين الراية إليه
فأخذها وقاتل حتى اندخى في يده بضعة أسياف فسماه النبي سيف الله المسلمون

105
ثم اختاره أمير فرسان "سواري" المسلمين وأبلغ في فتح مكة البلاد الحسن
وهذم صنم العزي وهو ينشد.

يا عز كفرانك لا سبحانك وإن رأيت الله قد أهانك
وفي غزوة تبكي بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى أكيدر دومة الجندل
فأسره وكان نسرًا وسورًا للمسلمين. وبعد أن قبض النبي صلى الله عليه
وسلم وارد العرب وجهه أبو بكر لقاتله فأسلم بهو طيقيق قدومه خوفاً
منه ونهد إلى طليحة الأسدي الذي كان قد أدعى النبوة فضل جيشه وهمه
وقصد "أم زمل" فقتلها وتفرق من معها وسار إلى بني تميم وخلف عنه الأنصار
متنظرين أمر الخليفة فقال لهم خالد "أننا الأمير وإلياً تنتهي الأخبار ولو أنه لم
يأت إلى كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة فكبت أن أعلمت بها الخليفة فأتتني لم
أعلمه حتى أنتهزها وكذلك لو إيتينا بأمر ليس فيه منه عهد أشاره قومي ثم
أعمل. وها أنا قاصد ولست أكرهكم" فسار ثم خلقه فقطع مالك بن نويرة
أمير بني بريوع وتزوج أمرته فغضب عمر وطلب من الخليفة أن يقتض منه
فاجبه: أرفع لساقك عن خالد فاني لا أشيء سيفاً سلبه الله لقد تأول فاختاً
واستحلل أمر مسلمة وأدعى النبوة ونكب جيش خازرة وهزم جيش
شرحبيل فرماه أبو بكر يخالد فذهب وقد خاف فرار من معه ففصل الأحياء
عن بعضها ليظهب بلاء كل قبيلة على حدة. وبعد حروب شديدة عزمه وقبله
وأما أن هدأت الثورة الداخلية أرسله الخليفة إلى أسفل العراق ففتح الأبلة ثم
الحفر وقصد الخير فدفع إليه إياض الطائي ألف درهم جزية.
وقدم إليه الفرس هدايا كبيرة فحسبها من الغنائم وأرسل خمسها إلى أبي بكر. وهزم الفرس على نهر الفتي وعند الولجة وعلى نهر الليس فاتهم الدهاقين وصالحوه وسار إلى الأتبار ففتحها وحزف إلى عين النمر وأمتلكها. وقد تضاف القائد عياض بن غنم واستصرخه فاجابه: (من خالد إلى عياض أباك أريد فسار وهزم أمير دومة الجندل وأخذ الحصن وشرع يتمم فتح العراق إلى أن بعثه أبو بكر إلى سورية فأخذ به نصف الجند ومر ببدر وأتى المسلمين في الربوك وقدم قواهم وخطب فيهم وعيى الجيش تعبيةً وعند قتل عنيف هزم الرومان ولم يقم لهم بعدها قائمة ثم ذهب إلى دمشق وفتحها وبعد أن عزله الخليفة عمر عن الإمارة العامة دخل صفوف المسلمين كجندو حارب في بيسان ورجع إلى سورية ففتح البقاع وفتح فسرين وصالحه أهل حلب وفتح مرعاً وحرب حمصاً حتى لا يعتصم به أهلها.

فدهش أمير المؤمنين من أعماله العظيمة وقال "عجزت النساء أن تلد مثل خالد لقد أمر نفسه يرحم الله أبا بكر كان أعلم مني بالرجال.

ثم استدعاه إليه وترضاه تعاية خالد بكلام قاس فاجابه عمر "ما عزلتك لربية فيك ولكن افتن بشيء من الناس فخففت أن تفتين بهم" وكتب بذلك إلى الأمصار وهي أعظم شهادة خفظ كرامته خالد الذي مثله في عرش الأكاسرة ودك أرائه القياصرة وما أنتهرا الوفاة قال عند أحضاره "لقد شهدت مائة زحفة أو زهاءها وما في بدني ووضع كبير إلا وفية ضربة أو طعنة وها أنا آموم على فراشي كما تموت العبر فلا قرأت أغين الجبين" وفي الجملة فأنه رجل الإسلام.
وقام الردة وبطل البرموك ولو أردنا إستقصاء أخباره لطال بنى البحث فنترك
تحليل هذه الروح العظيمة إلى ناهة القراء واستنتاجاتهم.

3- أبو عبيدة

هو عامر بن عبد الله بن الجراح وينصل في فهم نسب النبي صلى الله
عليه وسلم الذي لقبه أمين الأمة وهو أحد العشرة الذين بايعوا النبي صلى الله
عليه وسلم وفي موقدة بدر كان أبوه مشركاً فنصده له وهو يقدر عنه ثم قتلنا
وهذا من أعظم الإمام وأثبت المبادئ الصادقة والعقائد الترددية التي لا يكول
دونها شفقة ولا حقان وقد اختاره الفاروق قائدًا عامًا لجيشه سوريًا فقام
بوظيفته خير قيام وكان الجميع في قومه مستشارًا فيهم رفيقًا بضعفاتهم معروفًا
بالرأي والدهاء. ستمت إليه طالفة من دمشق صلحًا وحاصر قلعة البرموك في
بيسان وحاربهم في فحل فاجهز عليهم. وسار إلى حمص ففتحها صلحًا
وسميت إليه معرة النعمان وحماة وامتصع أهل اللاذقية فاحتال عليهم وأمر بiphers
سربر في الأرض يسرز الفرس والفارس وأظهرأ لأنه المدينة أنه راحل وصار
حتى جنهم الليل فعادوا إلى حفائرهم فظن أهل المدينة أنهم أنصرفوا ففتحوا
الأبواب وخرجوا فلم يرعيهم إلا ظهور المسلمين من كل جانب ودخلوها
عنوانًا. وفتح أنطاكية مرتين وكانت مشحونة بالمقاتلة ووضع فيها جيشًا يرابط
الأعداء لوقوعها على الحدود.

ولم تطب نفس هرقل عن الفتح فعاود الكرة وفاجأ العرب بجد كبثيف
فخطب أبو عبيدة في قومه قائلًا: "أيها الناس هذا يوم له ما بعده أما من حي

- 108 -
منكم فإنه يصفو له ملكه وأما من مات فله الشهادة ولا تكرهوا الموت فأنه خير من حياة المغلوب.

وأما طعن عمر قالوا له استخلف يا أمير المؤمنين فقال "لو كان أبو عبيد حياً لاستخلفته وقلت لربي إن سألني سمعت نبيك يقول أنه أمير هذه الأمة".

وقد توفي في طاعون عمرو ودفن في غور بيسان وله أوقاف كثيرة وبيئ مشهده الملك الظاهر بيريس وأوقف عليه بلاداً وأرضاً واسعة.

٤ - عمرو بن العاص

هو من بني سهم بطن من بطن قريش وكان يعبر بأمه لأنها سبحة ولولا هذا الحيف الذي حقه لزاحم على الخلافة. كان جزاراً وتاجراً وله مكانة سامية.

عند قومه لشهرته بالكبدة واختراع الخيلة وكان يلقب داهية قريش.

تأخر إسلامه ولكن حسن صحبته وقاد سرية ذات السلاسل وفيها أبو بكر وعمر وكانت ليلة قرَّة فكمله أبو بكر كي يسمح للعرب بوقود النار فاجابه لا يوجد أحد منهم ناراً إلا ألقيته فيها فشكره إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إني كرهت أن آذن لهم بوقع نار فيربر عدوهم قلته ويعطف عليهم فحمد رأيه وأرسله على صداقات عمان فلم قضوا النبي صلى الله عليه وسلم أقبل فنزل بقرة بن هبرة فأكرمه مثواه وما عزم على الرحلة خلا به قرة وقال أن العرب لا تطيب لكم نفسي بالإثارة "الزكاة" فإن أعفيتموها من أحد أمورها تسمع لكم وتطبع وأن أنيم فلا تحسب عليكم فقال له عمرو "أكفرت يا قرة أخرى بالعرب فوا لله لا وطن عليك الخيل في حفظ أمك".

١٠٩
وأعماله في فلسطين درجناها ملخصة فلا حاجة لأعادتها. كان شديد النطلع إلى مصر فهون فتحها للخليفة عمر حتى أذن له فسار بأربعة آلاف جندي ثم تبعه التجدات ففتح الفرس وبلبس وأسر بنت المنقولس فيجزها وأعادها إلى والدها فسر بذلك وصالحه ولكن هرق رفع الصلح فأقبل المنقولس إلى عمرو وفرّه أن الملك كره ما فعلت وأمر الروم بقتاله ولكن لا أخرج لما دخلت فيه وأما سلطانяем علي وعلى من أطاعني وأفرق بالقبض فأنهم أوعانك جميع عمرو عده وهاجم الفلسطين فاتمكوه وثبت قواده فسحروا يفتحون المدن والبلدان إلى أن تم له الفتح وقد تألف قلوب القبض فأعاد بطريركه بدمام الذي نفاه الرومان إلى منصبه ولم يقتصر عزمه على فتح مصر فقط بل جهز جيشاً واخترص الصحراء واحتل برقة ونيزاغي وطرابلس الغرب وما جاورها وحفر الخليج من النيل إلى البحر الأحمر ووصله إلى بركة النمساح. وللأصاب أهل الحجاز مجمعة عام القحط والأربدة طلب منه الخليفة زاداً فكتب إليه "أما بعد يا ليك ثم ليك قد بعت إليك بعير أوثا عندك وآخرها عندي السلام".

وهو الذي أبطل تقديم عروس النبل ولقد وصف مصر فقال: "مصر تربة غيراء وشجرة خضراء طورها شهر وعرضها عشر يكتفيفها جبل أغبر ورمم أغر يخط وسطها نهر ميمنون الغدوات مبارك الروحات تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والمجر له أن يدرّ حالبه ويكفر عجاجه وتعظم أمواجه فثفيض على الجانبين فإذا تكامل في زياه تنكس على عقبه كأول ما بدأ في جريته وطما في رده فتخرج محفورة يوزعون بطول الأرض ويدرون بهما..."
الحب فيهما هي لولوة بيضاء فإذا هي عبيرة سوداء فإذا هي زمردة خضراء
فإذا هي دبابة زرقاء فتبارك الله أحسن الخلفين.
وأما صرفه على عن ولاية مصر حقدها عليه وحرك لسانه فاعتزل
السياسة وسكن الرملة إلى أن حدث الخلاف بين علي ومعاوية فكان من أكبر
أنصار الثاني وأعظم أعوانه مستشاره في صفين وأحد الحكمين الظافر الذي
ظل يهدد لمعاوية السبل ويسهل له الصعاب إلى أن أقل نجم علي وتكشفت
حدوده فأخذ طمعته مصر وتملكها (ومن شاء الزيدية فليراجع توجة عمرو بن
العاص تأليف حسن إبراهيم).
الفصل الساوس

(27) فلسطين أموية

بوحابة علي بن أبي طالب انقرضت الجمهورية العربية وتبدلت حكومتها
الشورية بملك عضو. فكان الخلفاء الراشدون لا يرون الخلافة عن آبائهم
بل كانوا يتعينون باتفاق الأمة واجماعها. وكل من كانت تضعف ثقتة بالخليفة
ي(445,278),(620,315)
يربط عن البيعة منزوراً فلا يروَّع إذا ما خفف شره فأن أضمر خلافاً أو سوءاً
بجبر على البيعة واتباع الجماعة الإسلامية طلب إليهم الرجوع إلى السنة فأن
فعلوا سكن مستقيماً والإجاز له خلع الطاعة.

مضت هذه الجمهورية العربية وابتدأت الحكومة الأموية بمؤسسها الكبير
والإداري القدير معاوية بن أبي سفيان الذي لم يكن طموحاً إلى الخلافة شرهاً
بل كان رجلها الفذ وبطل بنى أمة الفرد الذين هم كانوا زعماء قريش في
الجاهلية. فلما جاء الإسلام عابوه وقاوموه باطلًا فأرغموا يوم فتح مكة على
الدخول فيه فورضهم النبي صلى الله عليه وسلم وجعل لهمامتيازات خاصة
فقال «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» وأعطي من غنائم حين لكل من
أبي سفيان وابنه معاوية 100000 بعير ليتألفهم فسموا «المؤلفة قلوهم» وظل
معاوية يتقدم إلى أن صار كاتب وحي النبي ثم اشترك وأخاه يزيد في فتحه.

(1) مفق عليه.

112-
سوريا ونالا في خلافة العمران مكاناً علياً فوليا إمارة الجند وإدارة البلاد فلما
ولى الأمر عثمان وقتل إتخذ معاوية قلعة ذربية لپل الخلافة وصار يطالب بقتله
ويعادل في بيعة على إلى أن فاز عليه ويبوع له بخلافة سنة 40 هـ في بيت
المقدس. وسنة 41 هـ بايعه الحسن فخلا له الجر ولم يبق له مخالف فنالت مدينته
دمشق عاصمته لأن أهالي سوريا وفلسطين كانوا حزب القوى وركبه المثن
فسكنوا بينهم وتألفوا قلوبهم وأقطعوا الضياع في فلسطين فأوقف عثمان
قريه سلوان على فقراء بيت المقدس وعمسوس كانت أقطاع يزيد بن أبي
سفيان والرملة مركز سليمان بن عبد الملك وكانت شرقي الأردن دساكر
خلفائهم فرائد الثاني توفي في أربع من أرض البلقاء وسكن الوليد الثاني بيعالي
وأمواله على ماء الأغفان من نهر السرقاء وكان يطعم من وفده إليه ثلاثة أيام
سواء كان صادراً من حج أو قافلاً من صائفة. وكان معاوية أول من أحدث
ولاية العهد في الإسلام فبايع إلى ولده يزيد في حياته فأنكر ذلك نفر من
الصحاباء الخزازيين وامتنعوا من مبايعته لأنهم ألفوا أن يكون أمرهم بينهم
شورى فيتخبون الأفضل والأصلح خليفة فم فاغدقو عليهم معاوية الأموال
حتى أنسرف بعضهم إلى ملذات الدنيا وطياتها وأصبحت المدينة مصدر اللهور
والطب رغماً عما في عليه من المناخ والأقلام ولكن البعض آخر هذا العمل
وجم مستوفياً فلما قضى معاوية هب الخمسين بن علي ونما نزوتته توجه إلى
العراق مشاقاً يزيد فقتله شر بن ذي جوش (جسد عائلة الشميرة في قرية
طلوزة) وأتى برأسه إلى دمشق فدافن فيها بباب الفرادرس وقيل أنه دفن
بعقلان فين الملك الأفضل في خلافة المستنصر العلوي مشهد الرأس عليه ثم
نقله إلى القاهرة وبنى له مشهدًا.

نشأة يزيد بن معاوية في فلسطين مع أمه ميسونا بنت بحول وكان شاعرًا

مجيدًا فمن شعره:

دلعوت بناء في إناء فجأءني
غلام به خرا فأوسعته زجرا
تبدى به خدي فوهمه الخمرة
فال هو السماء الفراج وإنما

وبعد وفاته بوعيّ لابنه معاوية الثاني فكان في زمنه بيعتان أحداهما إليه في
الشام والثانية في الحجاز لعبد الله بن الزبير ولم تظل مدة الأول أكثر من ثلاثة
أشهر فإنه لما رأى إنشعاب المسلمين وأنه عاجز عن إصلاحهم جمع الناس
وخطب فيهم قائلاً: "أما بعد فأنا قد ضعفت عن أمركم فابتغيت مثل عمر بن
الخطاب حين استخلفه أبو بكر أجده فابتغت سنة مثل سنة الشورى فلم
أجدهم فأتم أولي بأمركم فاختاروا له من أحبهم" ثم تغيب حتى مات فهذا
عمل الشاب المخلص الذي انقرضت بموتته الدولة الصفوية.

اضطرت الأفكار في سورية وفلسطين واتجهت الأنظار نحو الحجاز فأجمع
أمراء سورية على مبايعة ابن الزبير خلاصًاً أمر فلسطين. وهم شيخ بني أمية
مروان بن الحكم لبايعته خلافة الفتنة فنصحته عبيد الله بن زيد وهو بن علي
الصعب وأشار عليه أن يطلب الخلافة إلى نفسه فاستشرف إليها ونصرته أمير
فلسطين حسان بن مالك بن بجاد خال يزيد لأن هواه كان في بني أمية فدعا
روح بن زناع. واستخلفه على فلسطين وقال له إني أرى أمراء الأجداد
يابعون لابن الزبير وأبناء قيس بالأردن كثير وهو قومي فانا خارج إليها وأقيم

-114-
أنت بفلسطين فإن جل أهلها قومك من خم وفدائم وسار إلى الأردن فأخذه بيعتهم بشرط أن يجيبهم أني يزيد خالداً وعبد الله لصغر سنهما فثار نائل بن قيس الجذامي وأخرج ابن زناع من فلسطين فألحق بالأردن وبايع نائل لابن الزبير فأرسل حسان كتاباً إلى الضحاك بن قيس أمير دمشق يعظم فيه حق بني أمية وينظم ابن الزبير فلم يسمع منه فذهب إلى الجانب وقابل بني أمية وبعد نجوى طويلة بابوا مروان بن الحكم سنة ٢٤ هـ وذهبوا إلى الضحاك رئيس القيسية فحاربوه في مرج راهط وظفروا به فبايع من معه مروان وفر نائل الجذامي إلى الحجاز واستولى على فلسطين روح بن زناع فتهام الأمر لبني أمية في سورية. ثم توجه مروان إلى مصر ففتحها وبايعها أهلها ورجع إلى قرية الصبرة "السريرة" قرب طرية فشكر حسان وأثنى عليه وجد في السير إلى عاصمتها دمشق ثم جاء أجله بعد أن عهد بالخلافة إلى إبنه عبد الملك وعده عبد العزير فاعتربت عبد الملك أمور شاقة: ثورات داخليّة، والحوارج، وشيعة علي، ومناظرة ابن الزبير، ومنافسة عمرو بن سعيد، فصر عليها بزيغة ثابتة وهمة راجحة وذلماً فاحتال على عمرو وقتله وذهب إلى العراق فقاتل مصعب بن الزبير وقمله وامثل البلد ثم وجد سنة ٧٦٧ الحجاج بن يوسف بجيش إلى الحجاز ليقضي على ابن الزبير فذهب واحتل المدينة وحصر مكة وخرجها بالجانيق وأضر بالكنع وقسم جراحة أبواب المسجد على البلدان فأخذ أهل الأردن باب الصفا وأهل فلسطين باب بني حم وأبلوا في ذلك الحرب بلاء حسناً فلم تفرق عن ابن الزبير أصحابه دخل على أمه واستشارها هل يسلم إلى عبد الملك وأخذ منه ما أراد فقالت "أنت أعلم بنفسك أن كنت
تعلم أنك على حق وإليه تدعو فآمسم له فقد قال عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك يلعب بها غلمان بني أمية وإن كنت أثنا أردت الدنيا فينس العبد أنت أهلتك نفسك ومن قتل معيك وأن قلت كنت على حق فلما وحن أصحابي ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين كم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن ...
" فقال هذا رأبي فقالت أرجو أن يكون عزاني فيك جميلاً أن تقدمتي احتسبت وإن ظفرت سررت بظفرك فخرج وقتل عظيماً ومن ثم دانت البلاد لعبد الملك وسنة 85 ه توفي وفي عهده عبد العزيز فعهد إلى إبيه الولد ثم سليمان فتباع جميع الناس ولم يتخلف إلا الخوارج والمنددين.

(38) بناء الحرم الشريف

هو أعظم آثار بني أمية في فلسطين ومن مفاخر العرب وشهود حضارتهم ونعم الأثر فإن هندسه ونقضه وجمال تكوينه تفوق أجمل الأبنية في الشرق الأدنى.

إن المكان الذي بنيت عليه الصخرة كان مقدساً عند جميع المسلمين لأنه من أثر الأنباه ولأن النبي محمد صلى الله عليه وسلم أسرى إليه به لياماً. أما أسباب بنائه فقد ذكر أنه لما ظلم الخلاف بين ابن الزبير وعبد الملك وكان كل منهما يطلب الخلافة إلى نفسه خشي عبد الملك أن يصرف عنه المسلمين ويماحوا ابن الزبير لتعلهم بالكعبة والقبلة ومنهم الحج "كما قال" فذموا وضجوا فرأى أن يشاغلهم بناء هذا الأثر العظيم حتى إذا حدث ما حذر منه سلاهم وطيب خاطرهم به.
كتب إلى سائر الأمصار يستشيرهم في بناء قبة على الصخرة القدسة
لوقاية المسلمين من جر الشمس وبرد الشتاء. وكانوا يأخذون زجاجتهم في ترميم جامع عمر
أثناء الخطاب وتحسيبه. وقال أنه لا يكمن على عمل خطيير كهذا دون مشورة
المؤمنين فرضي جميع المسلمين واستحسنوا رأيه فاستعان بهندسي الروم
وصناعهم ورصد للبناء خراج مصر سبع سنوات وعهد بإدارة العمل إلى رجل
أب حبارة الكرد وزيد بن سلام فيهما أولًا قبة السلسلة الكائنة شرق
الصخرة لتكون خرذجا وخرذنا فيها كل الأموال وفرغها من عمارة قبة الصخرة
والمسجد الأقصى سنة 1178 هـ وسنة 791 مـ وقد فضل مع الروكين 1000
ديرار فاخرًا المرأة فسمح لها بها مكافأة فرضي ذلك. فأمر أن يصحب
الذهب وثمنه به القبة والأبواب وقد يرى الآن كتابة كوفية جميلة حول قبة
الصخرة من عهد عبد الملك تدل على تاريخ البناء ولكنه الأمون لما أمر بترميم
المسجد تقرب إليه عمله المتزلفون فاستبادوا اسم الخليفة الأموي باسمه وجعلوا
عن تغيير السنة التي حدثت فيها العمارة. أما الحرم الحالي فليس جميع بناته
أموية وإنما طرأ عليه تغيرات كثيرة بسبب الزلزال والانقلابات السياسية وكر
القرن فالذين رممو الحرم وأضافوا إليه زيدات كثيرون منهم العباسيون ففي
سنة 146 هـ وسنة 755 مـ في خلافة أبي جعفر المصصور حدث زلزال شديد
فتصدع جانباً المسجد الأقصى الشرقي والغربي فأمر بضرب ما كان على
أبواب من الذهب والفضة نقوداً لينفقها على ترميمه، وفي عهد المهدي أصابه
زلزال آخر فأمر بإعادة بنائه وغير شكله فقليل طويل وزاد في عوضه وлага زار
الأموري سورية وفلسطين أمير بسرميم بعض بنايات الصخرة وسنة 301 هـ أمرت

117
أم المقتدر العباسي بصنع أبواب قبة الصخرة من خشب النسيب "kalasbour" (يكثر في جزيرة جاوا) وسنة 704 هـ و سنة 134 1 في خلافة الحاكم بأمر الله سقطت قبة الصخرة الكبيرة وقسم كبير من سور الحرم فرممت في خلافة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي وكذلك عمر فيها صلاح الدين والملاليك والسلطان محمد بن قلاوون وملوك آل عثمان سليمان وعبد العزيز وعبد الحميد إلخ. وقد طرأ عليها وهن سنة 1921 م وسنة 1340 هـ واستدعي لإصلاحها المهندس التركي كمال بك وقد قدر ما يلزمها من النفقة ببلغ باهظ جداً.

(39) وقائع الدولة الأموية

أجمع المسلمون على بيعة الوليد بن عبد الملك وتخلف الفقيه سعيد بن المسبح وحاول حاكم المدينة أكراه فلم يفلح. ولم حج الخليفة أخرجوا كل من في المسجد ولم ينجوا أحد من الحرس أن يتعرض إليه فقيل له لو قمت قال لا أقوم حتى يأتي الوقت الذي كنت أقوم فيه. فقيل له وسلمت على أمير المؤمنين قال لا وآلل لا أقوم إليه. قال عمر بن عبد العزيز فجعلت أعدل بالخليفة في ناحية المسجد لِلَّا يرآه فافتشت الوليد فرآه فقال من ذلك الشيخ أهو سعيد؟ قال عمر نعم وايذرت عنه بعجبه وضعف بصريه فدار الخليفة في المسجد حتى أتاه فقال كيف أنت أيها الشيخ؟ فما تحرك بل قال بل قال بخير. فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله؟ فانصرف وله يقول هذا بقية الناس. وفي خلافته هرب يزيد بن المهلب من الحجاج وقدم فلسطين فنزل على وهيب بن

-118-
عبد الرحمن الأزدي فأخذته إلى سليمان بن عبد الملك في الرملة وتشفع فيه وتجاه وبعد وفاة الوليد أنت البيعة لأخيه سليمان وهو في مدينة الرملة فبابه الناس وهو على سطوح الصخرة وهم أن يحمل عاصمته على من دمشق إلى الرملة أو القدس ثم غسل ولم يستخلف عمر بن عبد العزيز أبضل سب على المباير وأمر كل العمال أن يضعوا مكانه إذا الله يأمر بالعدل والإحسان وإيضاء ذي القربى ويبني عن الفحشاء والمنكر والغبي يعذبكم لعلكم تذكرونه" (1) فقال كثير:

ولي فلم تشم عليا ولم تخف بريًا ولم تطبع مقالة مجرم وأمر بإنشاء الحانات في البلدان القاسية لإعلان مارة المسلمين والمعهد بدوائهم في طعمهم ويقرون يومًا وليلة ومن كانت به علقة يبقى إلى أن يشفى. ولما بيع الوليد الثاني كان مقيمًا في البرية فتفتح أعماله بنفي سليمان بن هشام إلى عمان انتماءه بما فعله معه أبوه. وتبدل كثيرًا ففقدت أحكامه وعكفت على الشراب وجاهر به وإنغمس في الطرف والموسيقى وإقناء الكلاب المطروقة بقلائد الذهب. وانهلك حرمة القرآن فأكث ذلك العرب والمدينون ونفر نحو أمة منه وتناح أمراء قبائل فلسطين وأقروا على خلعه ومبايعة سواه فراودوا يزيد بن الوليد الأول فاجاب طلبهم وظل مكتماً إلى أن انتشر الوباء في الشام فخرج العباس بن الوليد إلى القسطل وأخذ يزيد إلى بادية الأردن وأخذ يدعو إلى نفسه ويباع الناس سراً فعلم أخوه العباس وقال:

(1) سورة النحل الآية 90.

-119-
انني أعذركم بالله من فتى
فنامه لا حصرة تفني ولا جزع
أني أعذركم بالله من فتى
فاستمتكوا بعمود الدين وإرتدعوا
أن البرية قد ملت سياستكم
لاأنذِرهم ذنب الناس أنفسكم
لا تبقرن بأيديكم بطونكم
وتهدد أهلك وانثر بهسلن أو يرسله إلى الخليفة إن لم يقلع عن عمله.
فلم يعقه هذا التهديد وسار إلى دمشق الشام خلصا وأحلها ووابعة جميع أهلها
وضبط الأموال والحجازن وتوافد عليه أعيانه فقدم أهالي جرش من فلسطين
وغيرهم وكان الوليد على ماء الأغذى في ضياعا نافرا من الروباء فغضب وسير
جبدا إلى دمشق فانضموا إلى يزيد ثم سار بنفسه فالتقى العسكران وأسفرت
المعركة عن قتل الوليد فحقق أهل حمص وخلفوا يزيد وبعد معركة خذلوا فيها
باشرها له. وقد وثب أهالي فلسطين بتحريض سعيد وضعبان ولدي روح بن
زباع على عاملهم سعيد بن عبد الملك فأخرجوه وولوا أمرهم يزيد بن
سليمان بن عبد الملك الذي كان سجينا بعما فدعاه إلى قتال يزيد فأجابوه
لأن أهالي فلسطين كانوا ميالين لأبيه. ولم بلغ أهل الأردن ما فعل أهل فلسطين
ولوا عليهم محمد بن عبد الملك وأجتمعوا معهم على قتال الخليفة يزيد الثالث
وفرع بهم الخليفة وسرى إليهم سليمان ابن هشام فاطم ثعدهم وضلوا بين
روح وبذل إليهما المال ومنأهما بالولاية فرحلا بأهل فلسطين وبقي أهل
الأردن فنهب سليمان قراهم فغضب أهل طبرية ونهبوا دروب وسلاح يزيد بن
سليمان ومحمد بن عبد الملك وحقوا بمنازهم وبلدانهم فسار سليمان ونزل في
قرية السمراء "قرب طرية" فاتاه أهل الأردن وبايعوا ليزيد بن الوثيد ثم ذهب إلى طرية فصلي بها الجمعة وبايع من بها وترجه إلى الرملة فأخذ البيعة على من بها واستعمل ضياعان بن روح على فلسطين وأبراهيم بن الوثيد على الأردن. ولكن هذا الإلزاب لم يفد الأهالي شيئاً بل أطمغ في الدولة الطامعين فانكر مروان بن محمد عمل الخليفة وقطعه. ولما مات يزيد قام بالأمر بعده أحدها إبراهيم فزحف مروان إلى الشام وفتحها وبيع له ولكن المملكة كانت فوضى فخرج ثابت بن نعيم بأهل فلسطين وأتي طرية فحصر عاملها الوثيد بن معاوية بن مروان وقاتله أهلها أياماً فهزموه واستباحوا عسكره فارتد مهولاً فتبعه القائد أبو الورد وهزمه ثانية فنفر أصحابه وأسر ثلاثة من أولاده وبعث بهم إلى مروان واستعمل الخليفة على فلسطين الدماس بن عبد العزيز الكناني فظهر بثابت وعده إلى مروان فأمر به وبأولاده الثلاثة فقطعهم أيديهم وأرسل بهم وصلبا. فامتعض أهل حمص وخلع سليمان بن هشام مروان وبعد معركة الغضل جيشه وهزم وظلت البلاد في فلاقيل إلى أن أعنت الدعوة العباسية واصطب نشان العباسي والأموي في وقعة النزاب "قرب الرقة" العظيمة التي هدم بها ملك وقام ملك فجالد بنو أمية حتى خروا صرعي وكان أحد شبابهم يمثل:

ؤذل الحياة وكسر الممات
فاني لم يكن غير أحداً
وفر مروان بن محمد إلى فلسطين فنزل نهر أبي فطرس "العوجاء" فوجد
الحكم بن ضبعان الجذامى قد تغلب عليها. فاستعجار عبد الله بن يزيد بن روح الجذامى فآجروه ولكن عبد الله بن علي كان يهدي أثره ففتح دمياط وجاء إلى فلسطين فنزل على الأدن ثم يسائي ومرج الروم. فلقيه أهل الأردان وقد سرّوا فأفتيته نهر أبي ظفرس وأقام في فلسطين وأرسل بعوثاً إلى مصر خلف مروان بقيادة صحاب بن علي فحارته وقتلوه في قرية أبو صبّ عمه عبد الله على فاتته تبع أولاد الخلفاء ووجهاء بن أمية قتال بالبلقاء سليمان بن يزيد بن عبد الملك وأسر من وجدهم وبطشهم فقتلهم وكان رجلًا على نهر العوجاء فخفّأعوان بن أمية فقبض حبيب المريّ أحد قواد مروان وفرسانه وخلع بيعة بنى العباس ووافقه أهل حوران والبلقاء والقيسية وبعد قتال أخذ الأمان نفسه ولقومه ثم انتقض أهل حمص وبعد محاورته أخفقوا فيها دخلوا في الطاعة وبيّض أهل دمشق فعاد إليهم فتابوا إليهم إلا رشدهم فلا قتال وبيّض أهل الجزيرة وقادهم إسحق بن مسلم العقيلي وهو يقول في عنيق بيعة لا أدعها حتى أعلمه وأن صحبهما مات فلما تيقن أن مروان قتل طلب الصلح والأمان. فانتقل الحكم من دولة إلى دولة أو نزعت من يد إلى يد ليس بالأمر السهل بل يعقبه انقلابات وثورات عقلية واجتماعية كبيرة وخطيرة.

لم يفعق تعصب مروان إلى النزارية فأنهم خذلوه لما غلب على ملكه فورث أهل قنسرين بساقته وخانه الحارث بن عبد الرحمن الحرشي في دمياط وثب به هاشم بن عمر العبسي والمذحجون في شرق الأدن وعندما مر بفلسطين وثب عليه الحكم بن ضبعان بن روح بن زنباع واستقبل جميع القوم والحكومة الجديدة بكل ترحاب.

١٢٢٠
(40) محادثات بني أمية وعمرهم

كانت دولة بني أمية عربية لتعصب للعرب وتعتبر سواهم فرغم
ملوكها في الحضارة ولم يجدوا ونروا البداوة وسارعوا إلى اقتسام ما حسن
عندهم وتكيفوا بحسب الأحوال فأحداثوا ولاية عهد الخليفة وهو حي وقنسوا
إدارة البلاد إلى أمصايل وكل مصر إلى أقسام. فالشام حاضرة وأمصارها
فلسطين والأردن ودمشق وحص وقسنين.

ومن آثارهم المادية في فلسطين قبة الصخرة وأطلال سرايا سليمان بن
عبد الملك في الرملة مكان دار الحكومة اليوم وأشياء زهيدة أعرضها عنها لقلة
أهميةها. لم تقرر الدولة الأموية طويلة وعجل على سقوطها أسباب هامة منها:

1) تعدد ولاة العهد في آن واحد فكانوا يتناقصون في الخلافة فيبنت
الشقيق بينهم ويطعم كل واحد في الوصل إليها ومن ناحية سعي يخلع
أخيه أو ابن عمه ليحرمه منها ويوثها به فيمنع الثاني ويقضي انتهاه
إلى العداء والتنازع وتتسبس الآراء وتفسد البلاد.

2) العصبية الجاهلية فقد نبشت في وقعة مرج راهط وانشطر العرب إلى
قيس ومن وتأجج نارها في خراسان فكان كلما تعين وال من حزب
يقضي على الحزب الآخر.

3) ميل بعض الخلفاء ورغبتهم في طمس آثار السلف كما فعل سليمان بن
عبد الملك بقرواد أخيه الوليد حتى خطرت النفوس الطائفة وفازت الهمم
النازعة وضعفت آمال الأمراء بخلافاتهم ولم يخلصوا لهم فشائر البغضاء

- 132 -
وما الكره في صدور الأمة فانتكست الوحدة وانقسمت المملكة إلى خطين سياصين لاحقهما إلا القضاء على الآخر وتفاضوا عن الدعوة العبائية التي كانت تنتشر بنشاط وسرعة.

(4) احتقارهم الأعاجم والخط من قدرهم مما جعلهم يجدون على هذه الدولة ما حقهم من الذل والصغار فكانوا يلفذون حول كل ثائر ليضعفوه وهددوها ويبدوان غريهم عليه يكون لهم فيها حظ وافر.

(5) تولية الخلافة لغلمان ليستوا أكفاء في العقل والتدبير وسياسة الدول.

(6) انتشر "البروباغندا" بأن أهل البيت هم أهل الملك وبنو أمية مغتصبوه.

(7) انفصال أجزاء المملكة عن بعضها البعض فسوسيات النقل قليلة والمخابرة بعيدة والتجديد بسيط وأطراف المملكة متصلة فإذا حدث فتق في الهند كان لا يصل خبره إلى الام إلا بعد شهر فلو جهروا اليها حمله لما وصلته إلا بعد سنة فصعب عليهم ضبط التغور لعدم ارتباط العاصمة بها. أما القبائل التي سكنت فلسطين والأردن فكثر منها دخام التي نبغ منهم موسى بن نصير ففتح الأندلس وروح بين زنابق وتباداهم بيط صخر والعطاونة في الكرك، ولحم ومنهم بني عقبة في الياها والمسعودي، وتتوخ ومنهم عرب السردية والفحيلي في تل كلخ، وغسان وبيهار ويلي ومنهم البلاونة في بني صعب والسئع وغير يسان وكلب ومنهم الشرارة، وقضاء ومنهم العزايمة. بكر، السكاسك، قيس، الأزد، تغلب، طي.
１- معاوية بن أبي سفيان

هو رأس الدولة الأموية وباقي أركانها. كانت تلوح عليه مخايل الشجاعة من صغره فمر به رجال فقال أحدهم "سيسود هذا الغلام قومه" فقالت أمه هند "نكلته أمه ان لم يسد غير قومه". اختاره النبي ﷺ لكتابة وحية وعينه أبو بكر قائدًا في فتح سورية وأمره عمر ففتح قيسارية وعسقلان وعافا واسترجع أكثر البلاد الساحلية بعد أن كر عليها الروم ثانية في أواخر خلافة عمر، وظل بزرقي إلى أن استوحت له أحكام سورية وفلسطين ثم بوبع بالخلافة فصالح رؤساء العرب وداراهم وترضاهم ونظم السرقة وقسم الطرق إلى منزل وجهها بالرجال والندوب لاستلام مايردهم وإيساله إلي من بعدهم ولقد أحدث السياسة والتساهل في الأحكام الشرعية فاتخذ الحرس وأنشأ أبهة الملك وعمل ديوان الحاخام" تغليف الرسائل" وأنشأ أسطولاً بحرياً مؤلفاً من 1700 قطعة ورتب له أمراً وجعل يغزو الروم برناً وبحرًا وحصار القسطنطينية وكاد يفتحها لولا الدار الأغريقية ورأى تطلع الناس إلى الخلافة وخوف حدوث الفتنة فباع لأبيه زيد وأحدث ولاية العهد وتبعت من بعده وكان يقول لما كان بيني وبين الناس شعرة ما قطعت إذا شدتها أريخها وان أرخوها شدتها. وكان عمر بن الخطاب يقول تذكرون كسرى وقابض ودهاءهما وعندكم معاوية ومن قوله "أني لأرفع نفسي من أن يكون ذنب أعظم من عفوي وجهل أكبر من حلمي وعورة لا أواريها بسري وأساءة أكثر من أحساني" وقال أحب
الناس إلى آشدهم لي تخبأ إلى الناس.

وقد كتب إلى علي بعد وقعة صفين "أما بعد فلو علمنا أن الحرب تبلغ
بنا وبدأ ما بلغت لم يجدها بعضنا على بعض وإنا وإن كنا غلباً على عقولنا فقد
بقى لنا مانرد به ماضي ونصلح به سابقة وقد كنت سأللك على أن لا تلزمك
لك طاعة وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوت إليه أمس فإنك لا ترجو من البقاء
إلا ما أرجو ولا تخاف من القتل إلا ما أخف ود وأنا وأجل الأجناد وذهب من
الرجال وحن بن عبد مناف وليس لبعضنا على بعض فضل يستدله به عزير
ويسوق به حز وسلام".

2- الحجاج بن يوسف "كليب"

هو من قبيلة تقيف كان معلم مكتب الطائف ثم التحق بروح بن زنبع
الجذامي وزير عبد الملك إلى أن فساد جند الخليفة فأصبحوا لا يرحلون برحلته
ولا ينزلون بنزوله فتشار عليه روح بن بتوية الحجاج أمير العسكر فقلده إليه فألزم
الجيش الطاعة وجعلهم على محافظة النظام فتأخر يوماً أعوناً روح بن زنبع
فجاءهم وهم على الطعام فوقف عليهم وقال لهم ما معنا أن ترحلوا برحلته
أمير المؤمنين فقالوا له أنزل يا ابن اللحماء فكل معاً فقال لهم هيهات ذهب
ذلك. ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط وطوفهم في العسكر وأحرق فساطيطهم
ففر روح إلى عبد الملك وكما قال له عليًّا فلما دخل قال له "ماجلسك
على ما فعلت" فأجابه أنا مافعلت بل أنت فعلت إما يبدو وسوى
سوتك وما على أمير المؤمنين أن يختلف لروح عوض القسطاطيني

١٢٦
أرسل مولاه طارقاً إلى الأندلس فاجتاز البحر ثم حرق السفن وخطب قالاً:
"أين المفر!! البحر من ورائكم والعدو أمامكم فليس لكم والله إلا الصدق والنصر وأعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من أيّام في مأزق الليل وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة وأنتم لا وصى لكم غير مسؤولكم ولا أقات لكم غير ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم" ثم لحق به فاكمل البلاد وتم له النصر ونقل الدين الإسلامي إلى قارة أوروبا ولكن سليمان بن عبد الملك قاب أعماله الجليلة بالأساسة والكفران فعذره عن جميع أعماله وحبسه وأغرمه مالاً كثيراً. ومن قواد الأندلس عبد الرحمن الغافقي الذي اخترق جبال البرنيه وأوقع بالأفرسفيين في سهول بواتيه وكانت هذه المعركة الفاصلة لتقهقر العرب من الأندلس بعد حين.

الدعوة العباسية

لم يقم من بين العباسي من يطالب بالخلافة ولم تطمح أنظارهم إليها فنسيتهم الأمية ولم يبتغ لهم أحد فقضوا أوقاتهم بعزل عن الحركات السياسية حتى سنة 101ه إذ وفد عبد الله بن محمد بن الحنفية على الخليفة سليمان ابن عبد الملك فخافه وأرسل إليه من سمه في الطريق فلم يقدح الحميمة(1) قرية محمد بن علي العباسي عاذا به العلوي وبايعه وعهد إليه بالخلافة ومن هنا أبدأت الدعوة العباسية. وقد تطورت في دورين أول دور الدعوة وهو من

(1) هي الحميمة عند طريق الحجازي والعراقي. كانت قرية حثرة أقطعتها الوليد بن عبد الملك إلى
محمد بن علي بن عبد الله عباس وأسمه أباها.
سنة 101 هـ - سنة 129 هـ. نشرت فيه محبة آل البيت ومساواة بين أمية بنت وقاص والثاني دور العمل وفيه أعلنت الدعوة وُجِّه بها.

عرف العباسي أن كل محاولة فاجعة يعقبها الخسران وأن هدف الدول وتأسسيها ليس بالعمل السهل وشني أن هو أعلن اسمه أن ينفض من حوله دعاء العلوين فكتمه وأمرهم أن يدعوا إلى الرضى من آل محمد فقط. ووجههم إلى خرسان فأسسوا جمعية سريعة ذات فروع الفرع الأول النباء وهم اثنا عشر الفرع الثاني المشروط هم سبعون رجلاً يطوفان البلاد ويفرون الناس ضد بنى أمية وانتخبوا موسى الحج مؤثراً عاماً يتناولون فيه الآراء وكانوا كلما اعتزموا عقبات ذلوكاً حتى سنة 130 هـ، فعظم الخلاف بين المضربة والنزارية فتنفسات الشيعة وجدت في أمها، وزى سنة 129 هـ أعلن أبو مسلم الدعوة وليس هو ومن معه السواب شعار العباسيين ونشروا الرآيات السود "الظلم والسحاب" فعرف بهم نصر بن سبأ فكتب إلى مروان بن محمد يقول:

ويشك أن يكون ها ضرامة أرى خلل الرماد وميص نار فان النصار بالعودين تذكو وان الحرب مدؤها كلام يكون وقودها جثة وهام أرقاط أمية أم ينـِـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُـُ~

129
إبراهيم الإمام في يد الخليفة مروان فارسل إلى الوليد بن معاوية بن عبد الملك عامل دمشق يأمره أن يكتب إلى عامل البلقاء فيسير إلى القرية المعروفة بالكداد والحمية من يأخذ إبراهيم بن محمد ويرسله إليه ففعل وأخذ من مسجد القرية وهو ملفوف وحل إلى الوليد فبعث به إلى موان فحبسه في حران فأتته وصيته إلى أخيه أبو العباس السفاح ودفعها إلى مولاه سابق الخوارزمي وأوصاه أن يقوم بالدولة وأن لا يلبث بالحمية بل يتوجه إلى الكوفة فأخذ أبو العباس أهل بيته وسار إلى الكوفة وسنة 132 هـ ظهر أبو العباس ولقب بالسفاح وأخذته له البيعة علناً في المسجد من الصباح حتى جنهم الليل وظل نجهم يشرق وبحمي بني أمية يغور حتى قتل مروان وملكوا جميع الأقطار.

ومن تأمل في فوز العباسيين وهم جمعة بسيطة على بني أمية وهم أصحاب الحكومة والدولة والجند والخروج يأخذه العجب ويستغرب كيف تم لهم ذلك ولكن لو عرف أن هذه الجمعية كانت منظمة ورجاحة مخلصون وأن كل جديد مقبول وكل قديم منفور لزال عجبه واستغرابه.
الفصل السابع

(34) فلسطين عباسية

ينتسب العباسيون إلى العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ وهم الذين نهضوا على بني أمية فاستأصلوا دولتهم من الرق وبنوا دولتهم على أنقاضها فأخضعوا العبصية العربية وأذلوا مصر وعززوا نفوذ الأعاجم الذين استبدوا بالأحكام فأصبحوا هم الملك والعرب أسراهم.

تشكيل الدولة العباسية وعنت ولاتها إلى الأمصار فكان ولي سوريا فلسطين عبد الله بن علي ثم ضمت الأردن إلى دمشق وتبعها صلح بن علي حاكمًا على فلسطين والبلقاء تحت إمرة عبد الله بن علي وأكثراً عابسي فظل تابعًا له حتى خرج عبد الله على المنصور وغلب فتعين صلح إلى مصر.

وقد امتازت الدولة العباسية عن سواها بابقائها على العلم وترجمتها الكتب العلمية والفلسفية ونشرها في الأقاليم وتسنيم المعارف ومساعدة المؤلفين وإدارتها النواقش عليهم وتشويق الأدباء وتشجيع الناس للاقبال على حرف الأمناء ...

وقد عامل هارون الرشيد نصارى فلسطين معاملة حسنة فسمح لابن مطرش شارلت بترميم الكباجة وبناء كنيسة القداس حيث يقوم على آثارها كنيسة الدباغة ويجنها دير يأوي إليه زوار اللاتين. وفي سنة 796م اهتي إلى شرمان ساعة وفيلا وأقمشة نفيسة وأرسل إليه مفاتيح كنيسة القيامة.

131–
وعهده إلى بحماية حجاج المسيحيين الذين يأتون لزيارة القدس.

وفي زمن خلافة الأمام والرشيد زارت الدولة العباسية وأضاء عصرها الذهبي سياسة وآداباً وعلماً لأن ملكتها امتدت من الأندلس وشمال إفريقيا إلى شمال البحر الأسود والصين وتصرف اندلس ومن جزيرة العرب إلى حدود أنقره فكثر العلماء والأدباء في أيامها وترجمت كتب الطب والفلسفة والهندسة والجغرافيا الخ. فكانت بغداد مهد الأدباء والعلماء وعش الجامعات ومعارض الكتب والمكتبات.

وفي سنة 186 هـ هاجت فتنة بدمشق بين المضرية واليمنية وسبها أن رجلاً من بنى القين خرج بطعام له يطبعه في الرحى بالبلقاء فسر بقضعته لرجل حميم فتناول منها بطيخه فتشوه صاحبه فتضرباّ وأخذ كل منهما قومه فكبر الخطب وقال رجل بيني وتناولوا الصلح بينهم فأتبى اليمنية وجمعوا أمرهم وغزوا بنى القين فقتلوا منهم 300 شخص فثاروا واستنجدوا قياً فأجابواهم وساروا معهم إلى السواحل من أنزل البلقاء فقتلوا ناليمنية 800 شخص فتحت الحكومة إلى اليمنية وساعدتهم فانصر عليهم أبو الهيدام زعيم المضرية وفرق جميعهم. وفي سنة 177 هـ استعنت عليه الحكومة وبددت جمعه فنامت الفتنة ثم هاجت ثانية فتنافها الرشيد وأصلح بينهم.

وقد أقطع الأمام أخاه المعتصم "ابن إسحاق" الشام ومصر وفرض على دمشق وحمص والأردن وفلسطين 4000 جندي يقدمون لها لغزو الصناينة وقطع للفارس 100 درهم رابياً شهرياً وللرجال 40 درهماً. وفي سنة 277 هـ.
24 م خرج أبو حرب المبرقع على المعتصم واعتصم يجلي الأردن. وسبب مخالبه أن بعض الجند أراد النزول في بيته وهو غائب فمنعهم امرأته فضربها الجندي بسوط فأصاب ذراعها، فلما رجع إلى منزله شكث إليه ما فعل بها الجندي فخزأ سيفه وقتله ثم دعا رؤساء قومه فاستجابوا له والتقوا حوله ومنهم ابن بيهس المطاع في قومه فأرسل إليه المعتصم رجاء بن أبور الخضرائي بجيش زهاء ألف رجل. فلما رآه في عالم كثير كره مواجهته وتربيص حتى جاء موسم الزراعة فانصرف من مغه من الزراعة إلى أشغافه وبقي في نفر قليل فناجزه رجاء ثم أخذه ابن بيهس أسيرين.

ومن أمكن النظر في هذه الثورة وجد أن سببها الظاهرة غير كاف لاعلانها لأنه ليس من السهل أن يدعو الناس رجل بسيط فيليب مجمع غفير ويغارب لأجل الحكومة ذات الحول والطول ولكن الحقيقة هي أن الخليفة المعتصم استكشر من الجنود الأتراك فعبئوا بعادات البلاد وطائع أهلها فسخط العرب على الخليفة وحكومته تعصياً وغيرة إلى أن نهض أبو حرب فشجعه ونصروه فلم تكن الغاية واحدة والكرمة مستحكماً في نفس الجميع لما اتفقوا على خلق طاعة المعتصم الجنائي على العرب والحكومة العباسية باستكباره من أخواله الأتراك في بلالا والملكسلطته الواسعة حتى تحكموا في الدولة واستبدوا بالملك واستثناوا بالأموال فكان منهم الجنود والقادة والولاة وأصبح العرب وهم أصحاب البلاد غرباء والأتراك وهم الدخلاء حكام البلاد.
وفي سنة 252 هـ عقد لعيسى بن الشيخ سليل الشيباني على الرملة فأنقذ خليفته أبا المغراء واستولى على جميع فلسطين وتغلب على دمشق وأعماقا واستبد بالأموال وقطع ما كان يعمل للخليفة. فذهب سنة 256 هـ إليه اما جور وقتل ابنه منصوراً وأخذ منه دمشق. ولم تقدم عظمة الدولة العباسيّة طويلاً لأنها أسست من عناصر مختلفة متباينة المبول والمبائع والأخلاق فاستهوى الخلفاء موالاتهم ورقوهم من حارس ووصف إلى قائد وامير فلم يخلصوا إليهم ولم يرعوا هذه النعمة ولم يحفظوا ذاك الجميل لأنكرروا حسن الولاء فسلوا الخلفاء أبيه الملك وجلالته وسيطرتهم وأبقوا اسمه فاصبح الخليفة ألة في يدهم محدود النفوذ محجوز الإرادة ضعيف القوة فإذا ما حققوا منه أو تعرضوا فيه الحزم أو النزوع إلى الاستقلال خلقوه أو سملوا عليه وقد شعر المتوكّل بفوذ الأطرّاك والأعاجم فهم بنقل العاصمة من بغداد الفارسية التركية إلى دمشق العربية تخلصاً من جورهم وفرواً من غطرستهم فأنشده يزيد المهلبي:

أظم الشام تشـّمت بالعراق
فان تدع العراق واسكنهـا
فأعظم الإمام على انطلاق
فقل تبلى المليحة بالطـّلاق

وقيل أنه استوفى دمشق وتركها فرجع إلى العراق والأصح أنه خشي نفوذ الأطرّاك وتخوف أن يخلووه ان لم يدارهم فصدق ظنه وقتلوه في بغداد. وقد تماموا في العصف والاستبداد فاحتقوا الخلفاء واستصغروهم وسلبوهم حربيتهم الشخصية حتى قال الشاعر:

١٣٤
الخليفة فصٍ قصص وغَغَغَغَغ
كما تقول البغداد

ورقد أددوا في الحجر على الخليفة المعتمد فكان يطلب الدرهم في خزانته فلم يجده فقال:

أليه من العجب أن مثله
يرى ما قل ممتعاً على
ومن ذلك شيء يديسه

ومن تبصر قليلًا ورأى كيف أن الدخيل ينزل البلاد معدمًا لا يملك شيئاً فيمتص الدماء ويختلس الأموال ثم يحكم الرقاب عرف أن كل أمة لاتسهر على مستقبلها ولا تحافظ على كيانها فمصيرها إلى الدمار.

١٣٥
الفصل الثامن

(43) الدولة الطولونية من سنة 254هـ - سنة 270هـ أو سنة 868م

تنسب هذه الدولة إلى طولون الغلام التركي الذي اهده نوح بن أسد
الساماني عامل بخارى إلى المامون فلم يل ملكاً ولكن ولد له غلام فسماه أحمد
وقيل أنه تباهي ورباه تربية عربية.

وقد نشب عظيماً يتقن اللغة العربية كأتباثها وساعد استعداده الفطري
وسمى به جده فقد قدم مصر نابياً عن الأمير باكياك ودعته مقررته السياسية إلى أن
صار ولياً لمصر فسعى إلى الاستقلال الداخلي وأكثر من الجنر والحش ومقرب
العلماء والقراء وبنى جامع ابن طولون في مصر، ورتب الصدقات والميراث
فاستمال الناس واجذب قلوبهم ولما علم وتيقن أن الدولة العباسية ضعيفة وقد
انهكتها غارات الثوار الداخلية وفترة الزنوج العظمى طمع فيها وقطر أعماص
انهار إلى الخليفة المعتمد غير وجل واعتبر بنفسه فأغار على فلسطين سنة
788م وضعمه إلى دولته وعين والياً للرملة. فاتسع ملكه حتى جاوز نهر
الفرات وبنى قلعة يافا القديمة وحاول الاستيلاء على مكة فلم يفلح ثم أقطع
خطبة وعلي العهد الموفق لمنافسة كانت بينهما فأمر الموفق أن يمنع على المناور
وحذف اسمه من الخطبة واعتبره خارجياً. وفي عهد إمارته سكنت البلاد من
القلاقل إلى أن توفي سنة 884م وسنة 270هـ، وولي الأمر بعده ابنه حماريه

-137-
وفي سنة 271 هـ كانت موقعة الطواحين على نهر روبين، فانتصر المنتصر
أولاً وهرب خارويه وبينما كان جنده منهم متحركاً بهسب السواد خرج عليهم
الكمن ووضع فيهم السيف فقرر المنتصر وظل الجيشان يضطربان وليس لواحد
منهما أمر فانقطع المعركة عن خذلان العراقيين واستظهار المصريين.
فذهب البشاره إلى خارويه وهو في مصر فسر كثيراً وبعد ذلك صاح
الخليفة وتوثقت العلاقات بينهما فقلده أحكام مصر والشام وحدود الروم
بشرط أن يدفع 450 ألف دينار سنوياً ويدرك العواصم وقتسرين. وقد تقرب
للمنتصر قدم إليه هدايا ثمينة وعرض عليه أن يزوج ابنه "قطر الندى" بابنه
فقبلها الخليفة لنفسه وجهزها أبوها بجهاز عظيم أسرف فيه وانفق من الأموال
ما أضعف ماليته فإنساء إلى الأهالي ونفرهم فقتل في الشام ذبحاً ودفن في مصر
سنة 829 هـ وتعاقب على البلاد أبوين به طولون فلم يرو لهم
عمل مبرور أو غير مذكر، وسنة 905 هـ وسنة 992 هـ انقرضت ملكتهم
وأخرجهم محمد بن سليمان من مصر والشام وفي سنة 933 هـ كان عامل
دمشق والأردن وفلسطين أحمد بن كيبلغ فذهب إلى مصر خاربة إبراهيم
الخليفي وأنباه عنه في الأردن يوسف بن إبراهيم بن بغا فاعتقل الفرصة هذـه
الفرصة وساروا إلى مصر وأذرعت [أذرع] 12 فافحشوا في النهب وأخذوا
فقطوا نائب البلاد يوسف ونهبوا طبرياً وغاصوا في الأرض فساداً فانقذ الخليفة

(*) لم تزل آثار الطواحين هناك وقد وجد منها في الشمال.
(**) يوجد ثلاث بلاد مشابهة الأسماء وهي: أذرع جبوب الكرك، أذرع ذرعاء، أذرعات أزرع.
حسين بن حمدون إلى مقاتليهم فانسحبوا إلى البادية وكانوا يغورون الماء خلفهم حتى لا يستطيع الجيش أن يعقبهم لقلة المياه.

(45) الدولة الأخشيدية سنة 232 هـ - سنة 374 هـ (946 م)

أخشيد لقب ملوك فرغانة في تركستان ومعناها ملك الملوك. مثل تبع اليمن وإمبراطور وملكشاه وقيرص وكرسی ...

أما مؤسس الدولة الأخشيدية فهو طغج بن طغج من سلالة ملوك فرغانة القدماء كان من مالك المحتم فاقطعة مالاً في (سر من رأى) (1) وبعد وفاته اتصل ابنه طغج بلوؤه غلام ابن طولون. ثم عرفه أبو الجيش حماروه فأعجب به وقلده دمشق وطبرية. فلما قتل أبو الجيش عاد طغج إلى المكتفي فرشي به وزير الخليفة العباس بن الحسن لأنه أبيه أن يتلف إليه فامر الخليفة بسجنه إلى أن قضى شعبه ثم هرب ابنه محمد إلى الشام واتصل بأبي منصور تكين الخادم فأظهر مقدرة وهمة ودهاء فلقدع عمان وجل الشرارة وتدمر في الرئاسة فعين حاكماً للرملة سنة 318 هـ وسنة 776 م. ثم نقل إلى دمشق فسر به الخليفة الفاطمي وولاه مصر سنة 321 هـ فكمث بها برهة قصيرة وصرف عنها ثم أعيد إليها في خلافة الراضي وعهدت إليه أعمال مصر جميعها فعزل عنها أحمد بن كيغلغ ومنبه الخليفة صلاحية واسعة فصار أشبه بملك مستقل وسنة 328 هـ استولى ابن رائق (2) على دمشق وتوجه إلى الرملة فملكها وسار إلى عريش مصر.

(1) مدينة في العراق تدعى سامراً. (2) حاكم حران وقفسرين والعوام.

- ١٣٩ -
فصاحمه الأخشيده وهزمه فارتد إلى دمشق بأقيح صورة فعقبه آخر الأخشيده
أبو نصر بن طلغ بجيش كنيف فاعترضه ابن رائق واقتلاع على عين اللمجون(1)
قتل أبو نصر وإنهم عسكره فأخذ ابن رائق وكفته وأخلعه إلى أخيه الأخشيده
بمصر وأنفذه مع ابنه مزاحم وأصحبه بكتاب يعزيه بأخيه ويعتذر عما جرى
ويأسف على ما حدث ويكلف أنآ ما أراد قتله وقد قدم ابنه ليقتض منه فتلقى
الأخشيده مزاحماً بالجبل وخلع عليه ورده إلى أبيه واصطحبا على أن تكون
الرملة وما وراءها للأخشيده وباقى فلسطين والشام لابن رائق بشرط أن يحمل
إليه الأخشيده عن الرملة 140 الف دينار سنوياً.
وفي سنة 330 هـ قام الأخشيده من مصر لفتح دمشق فاستأمان إليه
عملها محمد بن يزداد فنقله إلى شرطة مصر وأتضح بها بدر الحرشني. وفي سنة
943 م سنة 332 هـ قلد الخليفة الأخشيده إمارة الحجاز وسنة 334 هـ 946 م
توفي بدمشق ودفن بالقدس وعُيّن الأمر بعده ابنه أبو القاسم أنور جور "الحمود"
فاستضعفه سيف الدولة وقصد دمشق فملكها وأسأله إلى أهلها فخابروا كافوراً
وصى الأمير فجهر جيشاً عرموته وصار غاربة سيف الدولة فتصاف قرب الرملة
وبعد جهد أنهزم سيف الدولة وأسترجع كافور دمشق وفلسطين.
كان أبو القاسم صغيراً وخدمة كافور وصغ قغلب عليه وتفرده بالولاية
ورشح نفسه للملك فقصده الشعراء ومدحه النبي بأبيات فائقة منها:

---
(1) ماه لم يكد عن جنين ساعتين ونصف.
وكان قليلاً من يقول له اقديم
وأمل عزرا يخضب البيض بالدم
فلو لم تكن في مصر ما سرت نخوها
وكان كافور إذا الخيل أحجمت
ابا المسك ارجو منك نصرًا على العدى
بقلب الموثق المستهلك المتين.

وكافوريات المتنبي من خيرة عره فقد أجاد فيها آملًا أن بوليه إقليماً فلم يظهر به وقد أشار بعضهم على كافور ليمنحه أقطاعاً فقال حسبكم أن من يدعي النبوة مع محمد إلا يدعي الملك ع كافور.

أن من يطلب على تاريخ حياة كافور يعرف كيف استوى على عرض مصر وسوريا تحدثه نفسه بكل عظيمة. كان كافور عبدًا زهبيًا خصيًا فأشراه الأخشيد بشممنة عشر دينارًا وقدمته نفسه الكبيرة وشخصيته البارزة إلى أن أصبح قادماً مشهورًا ثم عين وزيراً لأنووجور ومديراً لمملكته فسأس الحكومة بإدارة قوية ورأي سديد.

فلمما توفي أنووجور تولى الملك بعده أبو الحسن ولم ينك له من الأمر إلا اسمه وبعد أن مات استقل كافور بمصر وتلقب بالأخشيد فلقب ولاية مصر وسوريا والخجاز وتوفي سنة 536 هـ وسنة 55 م ودفن في القادس فضعفت الدولة الأخشيدية بعده واستولى جورج الصقلي قائد المعز الفاطمي على مصر وانتزعها من يد أبي الفوارس الأخشيد وأنهى الدولة الأخشيدية بعد أن عاشت 34 سنة.

وقد امتدح المتنبي ولى عهد أبي الفوارس بقصيدة عصياء منها:
فماالي والدنيا طلابي نجمها
من الحلم أن تستعمل الجهل دونه
ومن عرف الأيام معرفى بها
فليس برحوم إذا ظفروا بحنا

وكان قدّلت لم أترك مقالاً لفاتلك
ولا فخاشتي القوافي وعاقبي
جنته على الأعداء من كل جانب
هم المنسترون الكر في جوبة الوغى
وهم يحسون العفو عن كل مذنب
حييون إلا أنهم في تزاحم

(46) بعض أبطال الدولة العباسية

جاها الدولة العباسية والحكم مهداً فلم تخرج لتوسيع حدودها أو نشر
لغتها إلا اقترنت على هدم الحكومة الأموية وبناء دولتهم مكانها وهو عمل
صبب شاق تذل امامه أعناق العظام وقد قام به أقطاب عظماء نذكر هنا
بعضهم...

(1) أبو مسلم الخراساني

اسمه عبد الرحمن من ذرية بزريهم. نشأ في حضن عيسى بن معقل وكان
يختلف مع ابنه إلى المكتب فظهرت نجاحه وتمكنه من صغره واتصل بالقباء العباسيين فعجوه بما يعرفه وأديبه والمرجوه معهم إلى مكة وعبروا إلى الحسماة "عش الدعوة العباسي" فأظهروا إلى الإمام وانصرفوا فلموا رجعوا ثانية سألوه رجلاً عادلاً يقوم بأمر خراسان فقال أن جربت هذا الأصبحاني ظاهره وباطنه فوجدته حجر الأرض فقلده الأمر وأرسله إلى خراسان فبسط الدعوة ونظم الإدارة ثم وتب وحارب قواد مروان وبايع للسفاح فصفت له خراسان وقال:

عبرة ملوك بني مروان إذ حشدوا والقوم في غفالة بالشام قد رددوا من نوعة لم ينها قبلهم أحد ونام عنها توالي رعيا الأسد

ربما ألمحت دولة بنى أمية وأمست دولة بنى العباس طمع أبو مسلم في الخلافة وطلب إلى السفاح أن يسمح له بالحج ألمً أن يوليه أدارته ولكن يتولاها آنذاك إلا وفي العهد فاذن له السفاح بالحج واعتنى إليه إن فقد سبق فوليت إمرة الحج إلى أخى المناصور فهؤلاء أبو مسلم وحج مع المنصور وكان لا يتأمر بأمه ولايسير خلفه ويتقدمه في الرحل ويذل في موسم الحج أموالاً طائلة فنجيه إليه قلوب العرب واستمالوا وادعى أنه عباسي من ذريته سليط بن العباس وكان يبدأ في محاكاة المنصور ومكاتبته بنفسه وخطب عنده آسية واستخف بالنصر فاحظة وأحتمية إلا أنه كظلم غيظه حتى توفي السفاح وخلع عبد الله بن على فارسه المنصور إلى مباربه فذهب إليه وقضى على جيشه

143-
وحاول المنصور أن يصرفه عن خراسان اتفاقه عصيائه فأتي فاحتال عليه وقتله، ثم استشار مسلم ابن قمية في أعي مسلم فقال له الآية: "أو كان فيهما آلهة إلا الله ففسدتهن"، ودخل جعفر بن حنظلة على المنصور وقال له ما تقول في أمر أبي مسلم. إن كنت أخذت منه شعرة فاقتله ثم اقتل فأراه أيها في البساط، فقيل فقال يا أمير المؤمنين عد هذا اليوم أول خلافتك.

(۴) عبد الله بن علي

هو عباسي الأصل عم المنصور وناب من أئم الدولة العباسية وركن من أركانها وعظيم من عظمائها. نادى نفسه إلى قتال بني أمية وصاحب جيش المغرب وقال جيش مروان في وقعة الزاب وثال عرش بني أمية في دمشق، وهاتك أستارهم وناب قبور خلفائهم. كان عامل الخليفة في دمشق في توفّى السفاح دعا الناس إلى نفسه وقال لهم أن السفاح جمع أبناء أبيه وراودهم في محاربة مروان وقال من انتدب منكم إلى فهم وهو وعلي عمهم لتندب غيري فذهب وأبدت السفاح الملك وشهد له بعض أخلاقه ومعارفه فبايعه جميع فسبر المنصور أبا مسلم إلى محاربته والتحم الجيش، وبعد قتال شديد هزم جيشه فذهب والجاء إلى أخيه سليمان بالبصرة.

أن هزيمة جيش عبد الله بن علي لم تكن عن جهل وضعف تدبير وقفة جند وجيئ رجال بل كل شئ كان مؤفروًا اللههم إلا أن الجنيد لم يكونوا يعتقدون بصحة قضيتهم وأنهم يقاتلون على الحق بل كانوا موقين أنهم-

(۱) سورة الأنبياء الآية ۲۴.

۱۴۴-
مبتلون في دعواهم وأن عبد الله بن علي خارجي فلم يصدقا الحملة ولم يحاربا برغبة ولم ينسوا في القتال فهزموا في لواء مؤمنين بصحة دعوة قائدهم لاستيلوا ونصروا نصرًا مبينًا. ومن أبطال دعوة العباسيين سليمان بن كثير وأبي سلمة الخالل وزير بن هاشم ثم البراكسة وغيرهم ولكننا لانقضد هنا أن نلم بذكر جميع القدام العظام ونقتصر على تراجم هؤلاء الأبطال لترسخ في ذهن الطالب شهرتهم ويعمل أن في قومه رجالًا لا يقالون عن رجال الغرب الذين يتفنن بهم قومهم.
الفصل التاسع

(47) الدولة الفاطمية نشوءها ودخولها مصر وبئع القاهرة

اعتقد أبناء فاطمة الزهراء بأنهم أحق باخلافة من سواهم وبدأوا يعملون سراً لاسترجاعها. فتسريع بعضهم وجهر بدعوته قبل أن يكون له جيش يعززه فلاقوا القتل والصلب جزاء فعلتهم.

أما الفاطميين فقد أدركوا هذا السر واختاروا اقليماً قاصياً عن العمرة بعيداً عن مركز الخلافة ليتطور ذكرهم ويخفى خبرهم فأرسلوا داعيهم أبو عبد الله الشهيعي سنة 386 ه سنة 993م إلى شمالي إفريقيا يدعو إلى المهدي(*) ولم يعلن اسمه مما انسحب أبا عبد الله وإاطعة القبائل ناوية الحكومة واستولى على إفريقيا ثم استقدم المهدي فسار عن طريق مصر وحل بمدينة رقاده وأمر أن يذكر اسمه في خطبة الجمعة ولقب بأمير المؤمنين وقد أخذته الوحشة من أبي عبد الله الشهيعي قتلته وأخاه أبا العباس بعد أن دانت له جميع بلاد المغرب.

ثم تاقت نفسه لفتح مصر وقد حاول خلفاؤه من بعده ذلك فحالت دونهم حوالى إلى أن ولى الخلافة المعز لدين الله(**) سنة 341 ه سنة 952م.

(*) هو عبد الله بن محمد وقد اختلف النسابون والمؤرخون في نسبه فهم منهم ي يقولون أن فاطم وهو الصحيح وهم من يذكر ذلك.

(**) كان خطيباً عالماً باللغة اليونانية واللغات الإفريقية شجاعاً قديماً في السياسة حريصاً على النفس.
فوجه همه وقوته إلى فتح مصر وسير إليها أكبر قواده جوهر. فدخلها ظافراً في سنة ۵۸۳م وقضى على الدولة الأخشيدية ثم ملك البلاد وبنى مدينة القاهرة والجامع الأزهر العظيم وسير جعفر بن فلاح الكتامي إلى الشام في جميع كبرها وبلغ الريمة وحارب الحسن بن عبيد الله بن طفيع فظهر به وأسره مع قواده وبعث بهم إلى جوهر في مصر ودخل البلد عنة وقتل من أهلها كثيراً. وجي الخراج وسار إلى طبرية فوجد ابن ملحهم قد أقام الدعوة الفاطمية فسار عنها إلى دمشق وبعد حروب عديدة استولى عليها.

تكون في المملكة العربية حكومات كثيرة ولكن لم يجرؤ أحد على ادعاء امارة المؤمنين واكتفى بالسلطة الزمنية فقط فلم ظهرت الدولة الفاطمية القرشية أحدثت بالدولة العباسية الأخطار لأنها نازعتهم الخلافة والسلطة معاً ولقبوا بأمراء المؤمنين ودعوا لأنفسهم على المنابر أما الدولة الطولونية والأخشيدية والأموية "الأندلسية" والطاهرية وغيرها فكان استقلالهم يحصر في السلطة السياسية وظلوا يؤزرون بالخلافة إلى الخلفاء العباسيين فصار للمسلمين آشاك خليفة عمالم الأولي عباسي على ضفة نهر دجلة والآخر فاطمي في حوض النيل وشرعا يمتزجان السيادة وكل بلاد كان يفتحها أحدهما لتتقلص عنها دعوة الآخر ولكن بني أمية في الأندلس فأنه تربصوا حتى عهد عبد الرحمن الناصر فخطب له على المنابر ولقب بأمير المؤمنين.

تهيئت دول الشرق الحكومة الفاطمية وخافوا بأسها وقوتها فلم يقدموا على التحرش بها لعظمتها وقوتها. وانبرى عز الدولة بختيار البويهي فأغمى.
قائد القرامطة على مقاومة الفاطميين وساعده بالمال والسلاح فسار في سنة 363هـ إلى دمشق يطلب الاتاحة١ من أهل دمشق التي كان قطعوا الفاطميين. فلم يقبل جهوز ين فلاح جمعهم واستهان بهم فكسبوه وقتلوه وامتلكوا دمشق فأمتنعوا أهلها ودفعت نفس القرامطة إلى هدم دولة الفاطميين والاستيلاء على بلادهم فانقضوا على الرملة واحتلوا واستولوا على مافيها وحصروا جند الفاطميين في يافا. وقصدوا مصر وقد اتفقوا خلق كثير منهم حسان بن الحارث الطائي أمير عرب الشام فقتلا جبر عين شمس واقتلونوا مرات كان الطرف فها للقرامطة فاستعصم المعز الأموي وه特殊情况 إلى الحيلة واستمال أمير العرب حسان الطائي ورشا بمبلغ 100 ألف دينار فانسحب وتبعه العرب وثبت القرامطة إلى أن أرهقهم جند المعز فانقابوا راجعين وتأتوا الرملة ونشدو الخصائر على يافا فشير جوهر من مصر 15 مرماً تحل ميرة وحجة للمحاورين فأخذها القرامطة ولم ينج منها إلا مركبان غنمهم الروم ومن قول ابن بهرام القرمطي:

زعمت رجال الغرب أنى هبتها في مصر لم أفق أرضك مــد دم وساروا من فلسطين سنة 363 إلى أذرعوات ومنها إلى الإحساء وفي سنة 361 هـ سار المعز لدين الله الفاطمي من إفريقية إلى مصر ونقل عاصمته إليها. وسنة 364 هـ انهزم أفتكين٢ التريكي من مولاه بختيار وسار في طائفة

(1) كان للقرامطة 300 ألف دينار يأخذونها سنوياً من ابن طنج. (2) يسميه الأتراك الأرشيدوق والدورز نتشكي.
صالحة من جند الترك فوصل إلى حمص ومنها إلى دمشق فدخل المدينة وأخرج حاكمها ريان وقطع خطة المعز وخطب للطائع العباسي، فلما مات المعز جمع بحجة واغتصاب بلاده وأغار على صيدا وانتصر على حاكمها وقصد طريبة فنهمها وعاتها فيها فغضب الخليفة العزيز وأرسل جهوداً بقية ضخم فانسحب أتفيكين إلى الشام واستصرخ القرمطي فلباهم فعرف جهود وانصرف فسارا في أثره فادركان بظاهر الرملة ونزلوا على نهر الطرايين (نهر روبين) فقطعوا عن الماء، فترجعوا إلى عسلان فحصراهم مدة ثم فسحا له فذهب إلى مصر وأعلمن العزيز فيز وفرق الأموال وجمع الرجال وسار إلى محاصرة القرمطي وافتقي وعليه مقصدته جهز فاصطف الجيشان على مقرية من الرملة وبعد قتال عنيف انهم القرمطي وتبعه أتفيكين ومن معهما فبذل العزيز مائة ألف دينار لكل من أتاه باتفيكين أسراراً فأدركه المفرج بن دغفل الطائي وقد كظه العطش فأخذته إلى بيه وأكرم منوها لما كان بينهما من الأنس القديم. ثم أعلمن العزيز به فدفع إليه الجعلة وتسليمها فحصناه إليه وقبه وأعطاه الخياط وأعطاه مكانه وأعاد إليه من كان يعرفه وحمله معه إلى مصر وجعله من أخص أعقانه. أما القرمطي فقد بث إليه العزيز رسوله يدعو له حسن إليه فلم يأمن وحلف الفجر فعين إليه ألف دينار سنوياً. وفية سنة 236 هـ تغلب المفرج بن دغفل بن الجراح الطائي على الرملة ونالتها وأظهر طاعة العزيز من غير أن ينصرف بأحكامه فعظام شاه وكثر جمعه وعاث في الأرض فساداً فجهز العزيز بالله العسکر وأمسى

(2) كان ينحدر الماء إلى الرملة من عين بردة وهي تبعد 15 كيلومتر من شرقها وآثار الفناء الباقية للآن.

١٥٠
عليها القائد يلتفن فسار جداً إلى الرملة وقد الفن حوله القيسية "العرب" فقابل جيش الفرج وكان منظماً وبعد حرب قصر فر ابن الجراح إلى أنطاكية واللجأ إلى أميرها اللحمي التمودي. فانقضت خلافة العزيز وداخلة البلاد في اضطراب وخلاف مع أنه كان حليماً عادةً غير معتصب كثير الاستشاح لا يفرق بين المذهب والأديان فكان كاتبه الخاص عيسى بن نسطور مسيحي ونابه في دمشق منشا يهودي وقد اعتز المسيحيون واليهود في خلافته وهجاه شاعر فقال:

تنصر فالتنصر دين حق وقتل بثلاثة عزر وجلروا عزر ابن وروح القدس فضل فامتعض وغضب ولكن عفا عنه فأطاعه أحد الشعراء وغض من هيبة الملك وقال:

وكلمته راجي نديم ملعم على قدر الساجور فبلغ الخبر وعرف القائل فقال لا ابن كلس قد اشتركنا في الهجاء فشاركنا في العفو وتوفى سنة 376 هـ وعهد إلى ابن أبي على المنصور الملقب الحاكم بأمر الله ولغزابة أطراف هذا الخليفة نفرد له نبذة خاصة ...

151
(48) الحاكم بأمر الله

وهي الخلافة سنة 966 هـ وعمره إحدى عشر سنة ونصف فأوصى به والده ارجون الخادم وجعله مدير دولته فغلب عليه الحسن بن عمارة شيخ قبيلة كنامة وسيدها وبنى عليه الخليفة وحكم في المملكة وتلقب بأمين الدولة وهو أول من تلقب في الدولة الفاطمية وعصب بالخليفة واستضافه فتبعت كمامة في البلاد ومدوا أيديهم إلى أموال الرغبة فألف ارجون وصي الحاكم وكانت بعض القواد والعمال لا استخلاص البلاد سنة فسار حاكم دمشق منجوكتين إلى مصر فأنا يابن عمر أنصح الخليفة وندب العسكر مغاريته وأمر عليها أبا تيمم سليمان بن جعفر بن فلاح فتم فتحا قرب عقلان وأمر منجوكتين وهزم جمعه وبعث به أب تيمم إلى مصر فغصب ارجون وثار في مصر وأخذ السلطة من يابن عمر وباب الحاكم ثانية فطبق المفرج الطائي ونزل على الرملة ونهب ما وجد فألف إليه كفاح جيش بن الصصامة فاسترد الرملة وهرب المفرج الطائي من بين يديه ثم ثار ثانية فملك الرملة وما وراءه وأتى باب تيمم أب القاسم المغربي وزيبر شرف الدولة وانسل إليه وجب إلى الخروج عن طاعة الفاطميين وحسن له أن يابع سواهم فراسل أمير مكة الشريف أبا الفتوح وخاطبه بأمير المؤمنين ورغب في القدوم إلى الرملة لباث يعلى بالخلافة فاستناب بركة وحضر وخوطب بأمير المؤمنين فسرقا الحاكم ورسل المفرج وأبى حسان ومجدهما وترضاهما وضمهم فهما الاقطاع الكثير والعطاء الجميل فعدلاً عن الريف وردالفه إلى مكة وعادا إلى طاعة الحاكم الذي جهز عسكراً إلى الشام بقيادة أبى بن جعفر وأمره أن يكسس بين طيّ. فلما

-١٥٢-
وصل الرملة أزاح حسان وأبيه المفرج وعشيرتهما عن تلك الأراضي وأخذ ما كان لهم من الحصون بجبل الشراة ونهب أمولهم وذخاتهم واستأنف السير إلى دمشق. ثم أمر الحاكم المفرج وأكرمه ووضع عليه من سمه فارتح من شغبه.

ومن أعمال الحاكم المناقضية التي تشهد بضعف عقله ووهو أنه ادعى الألوهية وسمى نفسه الحاكم بأمره واصطنع الديانة الإسلامية وأمر بسب الصحابة وترك صلاة الزاويج ونشر مذهبًا جديداً أباح فيه زواج الأخ بأخته وحرم كل الملوخية لأن معاوية بن أبي سفيان كان مغرماً بها وأكرم النصارى واستوزر منهم فهذ بن إبراهيم المسيحي ثم اضطهدتهم واليهود فأمر بهدم كنيسة القيامة في القدس وغيرها من الكنائس ثم أمر بعمارتها على نفسه وسلب أمولهم وأمرهم أن يلبسوا السواد شعار العباسيين احتقارًا لهم.

ونهى النساء عن الخروج من بيوتهن وقد أجمع الشعب على كرهه وتوقعوا ببطش فضجرت منه أخته ست الملك وتوقعت نقمها فاحتاطت لنفسها واتفقت مع القائد ابن دوّاس على قتله فأمر من اغتاله قرب المقطم وأخرج جثمان. ومن آثار شبهة الحاكم في سورية وفلسطين الأمة الدرزية التي تنسب إلى أنورشكيان الدروز ومحمد بن السقايني اليماني وهمة المشتران بالروحية الحاكم ومذهب التمسم الذي صادف هو في نفوس الفراملة الدروز فاعتقده. وبعد أن فقد الحاكم جمع ست الملك الناس وأحسن إليهم وربت الأمور وبايعت للظاهر للاعزال دين الله وجعلت الأمر في يد ابن دواس تطبيقًا له ثم أمرت بقتله وأعلنت للقوات أنه هو الذي قتل سيدهم وممتز جدها إلى الملك فاستبدت به.
وسنة ٢٠٤٨ هـ استطاع حسان الطائي واستفحل أمره في فلسطين
وعقد حلفًا مع صالح بن مرادس أمير بني كلاب وسان بن عليلان واتفقوا على
أن يقتسموا سوريا بينهم فيكون من حلب إلى عانة لصالح ودمشق وملحقاتها
إلى سان ومن فلسطين إلى مصر حسان فاستولى صالح على حلب وبلادها
وحصر حسان الرملة وامتلكها ومن تأمل قليلاً في هذا الخلف يجده منطويًا
على أسرار خطيرة لأن هؤلاء الرجال كانوا أمراء القبائل العربية في عصرهم
ويش بو في الحالة الراهنة ابن سعود وخزعيل وابن الشعلان وابن مهيد... إخ.
وقد رأيت مما مرّ بنا أن أصحاب القدام والعمال كانت أجنبية ولم يبق للعرب حظًا
في دولتهم فتقموا هذه السياسة وعقدوا حلفًا عربيًا صرفاً ضد الأعاجم الذين
كانوا يحكمون قومهم ويسعونهم سوء العذاب. وقد تبع الوزير مهيبًا
إلى هذه الأخطار وأشار إلى ماترمي إليه الحكومة من سوء الإدارة باقصاء
العرب وتقترب الأجانب.

وقد لمح المتني في شعره إلى أن البلاد العربية أصبحت أعجمية فقال
قصيدة منها:

كأنت الفتى العربي فيها
بغير الوجه واليد واللسان
ملعب جنة لو سار فيه
فمن هذا يظهر أن البلاد العربية والشعب العربي انفصل عن حكومته
وسادت عليه العناصر الأخرى فكان يشكر ويتألم ولكن بلا جدوى لأنهم
كانوا غير قادرين على دفعهم والخلفاء لا يأخذون بيدهم، فعقدوا هذا الخلف

١٥٤
وحاولوا أثبات حقهم وكان يجب على الخليفة الظاهر أن يوزعهم ولكنه سخط وغضب نم جهز قائدته أنوشتيكين البريدي بيش كبر فسار إلى فلسطين ودلف إليه حسان وصالح فتصافوا في سهل الأفواحنة (3) وبعد قتال عنيف قتل صلح وابنه الأصغر وأرسل أنوشتيكين رأسيهما إلى مصر واستولى على جميع البلاد ونجا نصر بن صالح فأس في حلب الدولة المرداسية واستكان حسان حتى سنة 334 هـ ثم نهض مع بي كلاب وثاروا ثانية ولكنهم لم يفلحوا وسنة 346 هـ كثرت الزلازل بمصر والشام فانظام سور القدس وانهدم أكثر منازل الرملة وهلت تحت الردم حلق كبير فتحولت المدينة إلى قرية وانهقت صخرة بيت المقدس. وسنة 349 هـ سمح الخليفة المستنصر بتعزير كنيسة القيامة وهادن ملك القسطنطينية.

وفي أيام هذا الخليفة اجتاز عرب بني هلال فلسطين وعبروا مصر وقد بولغ في قصصهم حتى اختلط الصحيح بالفاسد ولكن ابن الأثير وابن خلدون ذكروا ما نورده هنا بعد التمحيص فقالا: أن المستنصر استوزر الخمس بن على من قرية يازور (قرب يافا) ولم يك من أهل الوزارة بل كان قاضياً على الرملة فآكرم العلماء وجلبهم فأحبوه وساعده الحظ فاتركى الوزارة ونال الإمارة بجده وعلمه واتفق أن والي إفريقيا المعز بن باديس قضى خطط حكمه سنة 444 هـ وخطب للقائِم العباسي فحقق المستنصر وشهد فأغفل المعز في الجواب وخرج عن ما أヲوف المخاطبات مع اليازوري وكتبه بصيغته "وليس بعده" فعاتيه فلم

(3) القحوانة قرب طبري على شاطئ البحر
يرجع وطغي فلما ان قدمت قبائل بنى هلال رغبة ورياح وسلم وعديد وخوفة وأميرهم مؤسس بن يحيى المرداد انتهز المستنصر ورجاله هذه الفرصة وأصلحا ما بينهم وأزالوا أحقادهم وأعطوه أملاً ووجههم إلى القيروان وعاهمهم بأن يعطى لهم كل ما يفتحونه ووعدوهم بالمدد والمساعدة فدخلت العرب أفريقية وكتب البايزوري إلى الغزير: "أما بعد فقد أرسلت إليك خيولًا فحولًا ورجالًا كهولا لبضيع الله آمروًا كان مفعولاً" فجاسوا الديار وعذروا فيها وامتلكوها وظلوا في حروب مستمرة حتى أواخر سنة 546 فاصطلموا زنانة ولم تهم النصر.

وفي عهد المستنصر بالله كثرت الاضطرابات في مصر فاستقدم الخليفة بدر الجمالي حاكم عكا لاصلاح ما فسد فنشط بسر ودخل مصر في جيش من أهل فلسطين ففتك بجيجل الأتراك ولكن الخليفة لم يتعهد بلاد سورية فشغرت وهب ملكشاه السلجوقى لامتلاكها وفي سنة 577 توفي الخليفة المستنصر وكانت مدة خلافته ستين سنة وأربعة أشهر.

(49) الدولة السلجوقية

زحف من تركستان إلى البلاد الإسلامية قبائل متحدة كانت خاضعة إلى الأمراء السلاجقة الذين انقسموا فيما بعد إلى دول ثلاث: خراسانية وسوريا وآثوبانية. وقد اشتهر طغرل بك حفيد سلجوق بالشجاعة والفطنة وساعده الحاز والاجتهاد إلى أن دخل بغداد وخشب له على منابرها واختضع من تمرد على العباسيين ولكنه توفي عقيماً فانتقل ملكه إلى ابن أخيه السلطان.
ألب أرسلان الذي امتد نفوذه واتسع حدود بلاده واستولى على حلب فلما قضى خلفه ابنه ملكشاه فهم بفتح مصر واستئصال الدولة الفاطمية وسُر سنة ١٣٤٨ هـ وسنة ٧٧٠ م حذٌ أحد قواده اسبر "اقصر" بين أقوى خوارزمي إلى فلسطين ففتح مدينة الرملة وحاصر القدس وفتحها وملك ما جاءهما من البلاد خلا عصفران وقطع الخطبة الفاطمية وأجبرها الخطبة العباسية وفي سنة ١٣٤٨ هـ حاصر دمشق وفتحها ومنع الشيعيين أن يهجروا في آذانهم بفقرة "حيّ على خير العمل" وان يؤذوا كالسنيّين وفي سنة ١٣٤٩ هـ سار لفتح مصر فقابله أمير الجيوش بدر ومعه جمع كبير من العرب فهزمه وقتل أخاه وأكثر أصحابه فعاد اسبر منها إلى الرملة ثم سار منها إلى دمشق وقُدَّد خالفة أهل القدس حاكمهم فنهد إليهم وحصر المدينة ففتحها عرعة ونهبها وقتل أهلها حتى من النجاة إلى المسجد الأقصى وكف عمّ عدّ بالصخرة. وفي سنة ١٣٤٩ هـ أقطع السلطان ملكشاه الشام لأخيه تاج الدولة وتشف فكه هجمات المصريين عن البلاد وقتل اسبر لأنه لم يستقبله وبعد وفاة ملكشاه استقل في سوريا ودوا لنفسه. وفي سنة ١٢٨٧ هـ هضت عساكر مصر لاسترداد سورية فلم يتوفروا إلا لفتح عكا وبعض بلدان فلسطين فعين أمير الجيوش عليها الأمراء والعمال وفي سنة ١٢٨٦ هـ فتحوا مدينة صور. ولما توفى تن شمل القسم ملكته إلى قسمين كانت قاعدة أحداثها حلب وملكها ابنه رضوان وحاضره الأُخرى دمشق وسلطانها دقداق ونشأ رضوان أخا وسار إلى فلسطين لفتحها فجاء إلى نابلس والقدس ورجع خانًا ثم مات دقداق ملك سوريا وأستبد بالملكيّة أتآبه "ملكه" طغتكين وأسس الملكاً لولده بسوريّة المنسبة إليه هذه

١٥٧
الدولة وقد وهم بعضهم فظنها دولة سلجوقية والواقع أنها بورية وهكذا ظلت الدولتان السلجوقية والفاطمية في عراك وصدام فإذا ما استضعفت أحدهما الأخرى كانت تغير على بلادها وتقطعها فتريص الثانية حتى يوهن عدوتها فتق أو طارئ جديد فتتال به غرة وتتهب بخفة وتسرب منها ماسلب. فباغتهم الصليبيون وهم منهوكو القوى وبلادهم فوضى وجوههم قد سرمدت الحرب وملته وزيدت في القتال والدفاع وطما عليهم السيل الغربي وأيقظهم التيار الأوروبي فغمر بلادهم وحكم في رقبتهم وطردهم من أوطانهم وسلم أطيب رقادهم حتى قيض الله لهم صالح الدين فأخذ ثارهم ونقى عارهم واسرد استقلاهم ونجاهم من عذاب أليم.
الفصل العاشر

(50) الصليبيون

توالى على العرب في فلسطين لنزع السيادة منهم هجمات كثيرة.
أعظمها الحملات الصليبية الأوروبية التي كان يبعثها هر آسياً خطيرة
لايسعنا تفاصيلها في هذا الموجز بل نكتفي بسردها مختصرة فقال:
ظهرت هذه الحرب لعامة شعوب أوروبا بمظهر ديني فقط فأشاروا أن السلاجقين
اهانوا حاجي المسيحيين واعتدوا عليهم غير أن التواريخ العربية لم ترو هذا
الخبر قطعاً بل ذكرت أن المسيحيين كانوا يعمون في حريتهم مثل المسلمين
وما كان يقره بعض الملكاء مثل الحاكم الفاطميين من الظلم ويجوز كان يشمل
المسيحيين والمسلمين على السواء ولكن هذه الحروب كانت منطوية على أمر
سياسي كما ورد في خطاب البابا أوربانوس الذي حرم به الممالك التجارية
على اغتنام هذه الفرصة ويشير أن روم القسطنطينية خافوا سلاجقى
الأناضول فاستغاث امبراطورهم بالبابا ووعده أن يضم كنيسته إلى كنيسة روما
ويقال أن الحكومات التجارية حرصت على أستواية الشرق لما اضطرت
العلاقات بين آسيا وأوروبا فهبت تداعب عن مصالحها وقيل أن أيدي أمراء
المقاطعات في أوروبا سموا في أنكلترا كفت وألغت امتيازاتهم فأخذوا يبحثون
هم عن بلاد أخرى يستيضآن بها عن مقاطعاتهم. وما هو جدير بالذكر أن
أوروبا كانت حينها مسقية بتيار ديني وهو مسيحي وكان ذلك الوقت زمن

-159-
الفروسية والنجدة فنذر كل فارس أن ينقذ الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين ويغيب الضبع والملوك. وهذا الشعور الذي كان عاملًًا عظيمًا في الحروب الصلبية لأنّه عز على أبناء المسيح في أوروبا أن يروا أقدس بقعة لديهم في يد عدوهم.

فلم أاُجتاز القدس بطرس النائب الفرنسي في أواخر القرن الحادي عشر وشهد خشونة التجربة والمرارة التحكم التي تلت في صدره نار الحمية وقابل بطرق قدس فقد شهد فيه هذه الشدة والقساوة ووعده أن يستبدل هذا الذل بالعز وصمم على إثارة نفوس زعماء أوروبا إذا هُو لم يصدر فلما رجع أعلن ما رآه وحدث البابا بما عاين ولمّا فقد الاجتماعات وأرسل المناشير وخطب ووعظ نجاح وأقع الأمم الأوروبية وهاجمهم وحرضهم على فتح فلسطين والاستيلاء على الأماكن المقدسة ولكنّه نضرب صفاً مما يتعلق منها بأوروبا يحتنا بما جرى في فلسطين لأن هذا المنتصر لاينحل التطور، فقول كانت فلسطين قبل قدم الرافنج محطة للنوائب لأنها توالت عليها الزلازل وفتكت بها الحروب والفتن واهزأتها المجاعات بل كانت شبه كرية يتلفظها فريق ويتطرفها آخر فيما تكون تحت النفوذ العباسى وربما في يد القاطميين يتزاح مع عليها القواد ويعتبرهم الأمراء ويقابلهما العمال وليس للخلفاء إلا الخطة والسكة والطرز وأصحاب الأقاليم والبلدان هم السلاطين والملوك يحكمون ويحرون الأموال يقولون الحروب ويؤدون الخليفة ويتمسكون به ليهم الألقاب ويكتب لهم على المناجر.
فرحت جموع أوروبا إلى سورية باذالة أرواحها ويهج بها وحشوا على الشرق تسع حملات تخللها كثير من النجادات بعضها هوى في الطريق والبعض الآخر وصل فلسطين.

الحملة الأولى: سنة 961م أو سنة 490هـ

كانت الحملات الصليبية خليطاً من الفرسان "Knights" والجنود المنتظمة والمتنوعة تسير جماعات بمواشيها كالقبائل الرحالة فلا قائد يتعهدهم ولا أمير يدير شؤونهم كأنهم قطيع من البشر ساهمهم التعصب الدينى إلى الموت.

اجتمع في فرنسا سنة 951م جمهور مختلط يبلغ عددهم مئتي ألف نفس بلا رابطة تجمعهم ولا ألفة تمسكهم إلا عاطفة رسم الصليب + المنقوش على سلاحهم وصدورهم. فساروا إلى ألمانيا فانحسا فهنغاريا فالآستانة وهناك أحصى عددهم فإذا هم النصف والباقي غطت أهل البلاد فقتلوهم ومنهم من مات جوعاً أو ضل عن الطريق ومنهم من رجع فانتفاً أمله بإعداد القبر المقدس. فاستأنف الباقون السير براً إلى الأناضول فصدتهم السلاجقة إلا أنهم عجزوا عن إيقافهم. وبعد قتال عنيف استولوا على أنطاكية سنة 961م وسنة 962م ومنها اخدرموا إلى المدن الساحلية كطرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا وبافا نجدين في سرمهم مصممين على فتح بيت المقدس فلما أعرف الفاطميون بقدمهم ورأوا الخطر اخذن بهم طلبوا مصالحهم على شرط أن يسهلوا الطريق لمن أراد زيارة القدس من المسيحيين فرفض الأفرنج وقادوا

-161-
الرملة فذهب إليهم نفر من أهالي بيت حم ورحبا بهم وحتىهم على قول
الفاطميين فصعدوا من الساحل إلى القدس وكان عددهم 40 ألف مقاتل
فحاصروا وتحملوا من المشاق والصعوبة ما أزعجهم.

(51) فتح القدس

كانت القدس قبل الفتح الصليبي في يد سلاجقة الشام فخرج عسكر
الخليفة الفاطميين بقيادة الأفضل بن بدر الجمالي واستولى عليها أماناً في شعبان
سنة 849 هـ فدخلت في ملك المصريين وأنابوا عنهم فيها أفخاخ الدولة فأتاه
الأفرنج وحصروها نيفاً وأربعين يوماً وعانا صعوبات شديدة نأتي على أجلها.

1- قلنا الماء: فإنهم كانوا يقلونه من البرة وعين كارم ولفتا.

2- نافذ الذكرة: إذا قد شهدنا أثناء الحرب العامة ما كان مجموعاً لتحقيق
المجاعات ومع ذلك فقد شكا الجند الجوع والعطش وكانت الحكومة
المغنية تحرسهم والشعب يوزرهم فكيف يجدون بجماعات غريبة في بلا يمتهن
أهلها ويقيهم أعيامهم وينرون فظائعهم.

3- لوازم الحصار: فإن الخياصر يتحاج إلى أخشاب وأدوات أخري وهؤلاء
الدخلاء لم يحضروا عليهم شيئاً من ذلك وانتقلت البلاد قاحلة والأحراج
بعدة العهد قد سود السفن الإيطالية التي كان معها كثير من
الأخشاب لم قدروا على بناء الأبراج بما استطاعوا تسليط على جدران
المدينة ولكنهم ذلوا كل هذه الصعوبات والحصار المدينة ودخلها
غودضة من باب الساهرة وهو أول الداخليان ثم فتحت جميع الأبواب

-162-
فملكون القدس عنوة يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة 493 هـ وسنة 1009م ولبث الفرنج يقتلون ويفتكرون في نساء وأطفال وشيوخ ومرضى المسلمين أسبوعًا ويقدر ما قتل منهم في المسجد الأقصى ما يربو على 70 ألف نفس وفيهم أئمة المسلمين وعلماؤهم وعبادهم من جاوروا بيت المقدس وما نجري لو تجلي السيد المسيح وآهم يرتكبون تلك المحاذي والمذكرة ماذا عساه يقول هم وهو القائل "أحبوا أعداءكم" ولو أنا قايسنا بين دخول عمر بن الخطاب البدوي وبين دخول غودفري الأفريقي الذي عاش في القرن الخامس بعد عصر هجول الفرنج من سيرة قاتدهم وفظائعه وأفخطر العرب بعدد خلفهم ومآثره. فلما رأى المسلمون ما حل بهم استجاشوا جموع خاربة الفرنج واسترجع بيت المقدس فهتف الأبيوردي بقصيدة عصما منها:

إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
وقدس يلحنان الذرى بالتانين
على هسفات أيظنت كل كنان
ظهور المذاكك أو بطون القشاعم
تجرن ذيل الخضف فعل المسلم
تواري حياة حسنا بالمعاصم
لسلم يقعر بعدها سن نادم
رماحهم والدين واهلي الدعائم
عن الدين ضنوا غيرة بالخمار
فهاجت نفوس المصريين وحشد الأفضل أمير الجيوش عساكره وسار إلى عسقلان وأنكر على الفرنج ما فعلوه وتهديهم فعاجلوه وهزموه وقتلو من جيشه كثيراً وغدوا ما في العسكر عن مال وسلاح فانسحب إلى عسقلان ومنها إلى مصر فحصر الفرنج عسقلان وأخذوا من أهلها 20 ألف دينار قطيعة لهم وعادوا إلى القدس محاذلين فأسسو مملكة لاتينية صغيرة على شكل الاقطاع الأوروبي القديم واختاروا غودرفي أميراً عليهم وشرعوا يفتحون ما بقي من مدن فلسطين فعاجل غودرفي أجهل ودفن في كنيسة القيامة على يمين الداخل ووجد هناك سيف يزعمون أنه سيفه ولا يعمل حقيقة ذلك الزعم وانتخب بعدها أخوه بلدوين ففتح مدينة أرسوف أماً وحيفة وقيسارية وقتلو أهلها.

ثم فتحوا كافة مدن الساحل خلاً صور وعسقلان وظلوا في حروب مستمرة مع الفاطميين وبوربي دمشق فلم يظهر أحدهم بالآخر وعجز المسلمون عن رد غاراتهم لأن بلادهم كانت منقسمة إلى إمارات وملوك عديدة واتفق أن استحكم الخلاف بين السلاجقة فشغلو عن مقاومة الأجانب بمحاربة بعضهم بعضًا حتى إن بكشاف بن تشي آخر ملك سوري وايتكيين الحلي صاحب بصرى حالفهم فاطم أن الصليبيون وظفوا أنهم ملكوا البلاد فبئوا قلعة الشوبك والكرك وحصن عينات وصفد وطربة. وفي سنة 519 هـ انضم أمير العرب ديس بن صدقة إلى الفرنج وحارب معهم العرب والمسلمين وفي سنة 946 هـ سير الأفضل أمير الجيوش مملوك أبيه سعد الدولة خاربة الفرنج فلشمو بين الرملة ويافا وبعد قتال عنيف كيا به الجيوش فقثلوها وهزمو جنده.
وملكوا ما في خيامه فأرسل الأفضل ابنه شرف العالي في جمع كثيرة وصادمهم قرب يازور وهم واثن من فهم وأسر كثراً من زعمائهم وأرسلهم إلى مصر وفتح الرملة وعزم أن يذهب إلى فتح القدس فجاءت نجدة صليبية من البحر فيت عزمه وخارت قره فانسلح إلى عقلان وأهمى بها فحاصروهم ثم قفوا راجعين إلى القدس.

وفي سنة ٥٠٠ هـ سار طفتكين إلى طبرية فحارب ابن أخت بلدويين وانصراً منه وارسرهم ثم هادن بلدويين أربع سنوات. وفي سنة ٥٠٧ هـ نزل طفتكين بشبه الأقحونة وحارب الفرنج فخضهم وغرق منهم خلق كثير في البحرية ونهر الأردن فاستغفروا بالأفرنج طرابلس وانطاكية فانجدوهم وأعادوا الكرع ولكنهم جبنوا والناجوا إلى جبل غرب طبرية فحاصروهم طفتكين ٢٦ يوماً ثم سار إلى بيسان فنهب بلاد الفرنج بين عكا والقدس. وفي سنة ٥٢١ هـ خف طفتكين غازية الفرنج فلقيهم بين دير أيوب وكرس بصل (فت حوران) ودخل طبرياً ونهبها وما حوضها وقصد عقلان واتفق مع الجيش المصري المرابط فيها ثم عاد إلى دمشق وهكذا ظل المسلمون والصليبين في كورفر حتى سنة ٥٤٧ هـ وسنة ١٦٣ م فانقض الفرنج على مدينة عقلان وفتحوها ونزعواها من يد الفاطميين فاستراحوا من غزواتهم وغاراتهم.

ثم قام بعد بلدويين الأول بلدويين الثاني والثالث والرابع والملك أموري ولكن همهم أخذت تضعف وتفترز وهم الوطنيين تقوى وتنسر لأن حامية الصليبين تلاشت وانفتت حرارة فنزال المعركة الذي ساقهم لانتقاذ البلاد
والقبر المقدس مما رأوا من فساد الرهبان وأطماع الأمراء الذين رجعوا إلى سيرتهم الأولى فاختلفوا وانشقت كلمتهم وانصرف كثير منهم إلى بلادهم وتخاصم الباقون على الناحية والألقاب والسلطة والأموال وتفاقم بينهم الخلاف والانقسام ووجبت شمسهم بقدوم بطل الشرق السلطان صالح الدين فدك عرشهم ونكس أعلامهم.
الفصل الحادي عشر
صلاح الدين الأيوبي
مؤسس الدولة الأيوبية
(52) حالة العالم الإسلامي

قبل أن نشرح سيرة السلطان صلاح الدين فنقول: كان العالم الإسلامي في سبات عميق فالإشراف يتناثرون الخلافة حتى لا يكاد يمر عام إلا ونسمع أنه خطب لفلان على منابر اليمن أو الحجاز أو مصر وآخر في شمال إفريقيا والعراق أو طرستان إلخ. والأمراء والملوك اقتسموا البلاد فاقتطع بنو زنكي "ملايك السلاجقة" ولاية الموصل وامتدوا إلى سورية واشتهر منهم نور الدين بمعاوية فمات في دمشق سنة 549 هـ، واختار أسد الدين شير كوه عم صلاح الدين قائداً عاماً لجندوه.

فلما احتلت أحكام مصر وغلب الخلافاء على أمرهم ترابل الأمراء وطمعوا في الوزارة فتوالاها في سنة واحدة أربعة ونهض أمير الصعيد ضرغام وغصبها من شاور الذي انتجا إلى دمشق وطلب إلى نور الدين أن يساعده بقوة عسكرية لاسترجاع منصبه بشرط أن يعطيه ثلث حاصلات البلاد خلاً أقطاعات المساكر ويظل شير كوه بمساكره في مصر "احتلال عسكري". 

١٦٧
فأرسل معة أسد الدين شيركو فدخل مصر وقتل ضرغاماً وعين شاوراً محله ففك وعده واستعان الصليبيين على إخراج أسد الدين من بلاده فاجابوه وردو الجيوش الشامية.

وفي سنة 562 هـ سار أسد الدين ثانية إلى مصر بجيش مجهز ففتح ثغر الاسكندرية وفتح في الصليبيين وعساكر مصر وفتح الصعيد وجبي أمواله وأخيراً اتفقوا على أن تبرج جنود نور الدين والصليبيين مصر بشرط أن يدفعوا إلى شيركو خمسين ألف دينار سوى ما جاه من الأموال فتمت المعايدة ورجع إلى الشام. لكن الصليبيين نقضوا وتوثّقو مع المصريين على أن يكون لهم بالقاهرة شحنة خرس أبواس المدينة ويعطي لها معاشاً سنويًا مائة ألف دينار من واردات مصر فتجاوزوا هذا الحد وتحيزوا وطماعاً في استنخلاك البلاد وأرسلوا جنداً للاستيلاء على مدينة بلبيس وافتحوا فيها وحاصروا القاهرة فاستغاث الخليفة المعتضد بنور الدين واستنجه فلباه بارسال أسد الدين مع جيش كبير مجهز بالكثير وأعطى لكل جندي علامة على راتبه عشرين ديناراً فساروا حتى قاربا مصر فرحل الفرنج عنها واستمر أسد الدين في سبه حتى قدم القاهرة فدخلها ورضي عنه المعتضد لكن شاور أخذ يمتلك في اقطاع الجناد وثلاث البلاد ففرغ صلاح الدين فشك به خلع المعاضد على شيركو خلع الوزارة ولقب الملك المنصور. وبعد شهرين وخمسة أيام من تاريخ زارته توفي "حتى إذا فرحوا بما أوترنا أخذناهم بغثة" فهب أمراء الأجناد يطلبون منصبه وكل منهم جمع أصحابه ليغالب عليه فاختار المعاضد يوسف صلاح الدين ابن أخي أسد الدين وولاه الوزارة خلع عليه مراسيمها ظانًا أنه صغير

- ١٦٨ -
السن قليل الاختبار والدرية فيتمكن منه بما يريد ويستميل الجنود ويخرجه من بلاده ويسترد استقلاله.

وطمع الفرنج في صلاح الدين وحاولوا امتلاك مصر فساروا إلى دمياط وحاصروها سنة ٥٦٥ هـ وسنة ١١٦٩ م فقاومهم صلاح الدين وأغار على بلادهم السامية وناوا الكرك فخافوا العقبى وارتدوا على أعقابهم فاقتفاهم وكس عقلان والرملة ونهب رشب غرة وفتح فرضة أبلى "العقبة" ثم أرسل أخاه نصر الدولة إلى اليمن ففتحها وتوغل هو في السودان وضمه إلى مصر. فدبت الغيرة في صدر نور الدين وخشي أن يتفق صلاح الدين والفاقطيين ويتخلعوا طاعته فطلب إليه أن يقطع خطة العاضد ويخطب إلى المستضيء العباسي اتباع جمع الكلمة فتردد صلاح الدين قليلا ثم أمر سنة ٥٦٧ هـ وسنة ١١٧١ م بلبس السواء شعار العباسيين وخطب في الجوامع للمستضيء وقطع خطة الفاطميين فانقرضت الخلافة الفاطمية. بعد أن دامت سنة ٥٦١ هـ سنة فلم تطب نفس نور الدين وخف العقى فاستحوذ صلاح الدين وسعى ليبقى الفرنج حاجزا بينهما وكمل حراكة نور الدين الاجتماعي به فلم يتفق لأنه كان إذا ما اقترب منه فقل رابعا إلى مصر متعلا بالأعدار وظل يراه أن أهدوه الآخر حتى توفي نور الدين واستخلف بعده ولده الملك صالح. إستخدم فخطب له صلاح الدين وضرب السكة باسمه وترخص مزيا حصول فتنة أو خلاف في بيت زنكي فلما حدث أسرع إلى دمشق وفتحها وهو يظهر الطاعة إلى الملك الصالح الذي كان يخاطبه بالملك ثم فتح قلعة حمص وعليكم وجهه وغير ذلك.

١٦٩
وفي سنة 572 هـ سار صلاح الدين إلى ساحل الشام فوصل عسقلان
وبث السرايا للغارة والارهاب والانفجار بثقة قليلة من الجند فباغته الفرنج على
نهر روبين وتكوا به في خندق وأرسل إلى أخيه توران شاه يقول:
ذكرت وكلا اللتين يخطر بينهما
وقد تأهلا من الثقافة السمراء
ما ثبت إلا وفي نفسها أمور

وفي سنة 580 هـ بني الفرنج حصناً مبنياً بخضاعة الأحراز "جسر
بنات يعقوب قريب صفد" فطر على صالح الدين واقعهم وبعد معركة شديدة
أسر فيها حكام الرملة ونابلس وطبرية وجنين فتح الحصن وهمله وكان فخر
هذا النصر إلى فرخشاه ابن أخي صالح الدين الذي غشي الوعي وهو يتمثل
فكان تكن الدولتين قسمًا فانها
ومن هوئ الدنيا على النفس ساعة
والفتيس في هام الكماة صليسل

إن الحركات العربية بين الصليبيين والوطنيين كانت تدور شرقى
القدس على الكرك والشوك لأنهما في طريق الحج وجرى اتصال بين الشام
واللبنان وعُجم ومن جهة غربيهما على عسقلان لأنها تحطة الارتباط بين مصر
ودمشق فمن كان يملك هذين المركزين كان يقطع المواصلات ويعيق الحركات
وقد أدرك الصليبيون مكانة هذه النقط فامتلكوها واحتفظوا بها وحصنوها
فهجروا ما بين مصر والشام وضيوبوا مجرى تنفسهما بل داخلهم الغرب
وطمعوا في مهاجمة مكة والمدينة القديستين للقضاء على الدين الإسلامي فسار
البرنس ارنو "رينو" صاحب الكرك إلى تيماء في سنة 572 هـ وسنة

-170-
182 م مستطاعاً فسمع بذلك عز الدين فرخشاه وandatory دمشق وسار مجدداً إلى الكرك فنهب بلادها وصد أرناط عن التقدم ولكن في سنة 785هـ نضحت فكرة فتح الحجاز في دماغ البرنس أرناط وعزم على خضد شوكة المسلمين فعمل أسطولاً وجمع قطعه مفكرة وحملها إلى بحر إيلاء ثم ركبها وشحنها بالمقاتلة وسيرها في البحر الأحمر وحصر من في ايلة ومغير من معه بحر عيذاب وأفسدوا السواحل فعرع الملك العادل وامر قائد أسطوله لولوًا مطاردته فسار وبلغ إيلاء وقتل من عليها وتبعت من في البحر مراكبهم وجدت فادركهم في ساحل الجوزاء وأوقع بهم فاعتصموا بشعاب البحر فأخذ خيالاً من الأعراب وأركبها جنده ومالزال يقاتلهم حتى ظفر بهم وأسر منهم كثيراً وخرهم وسار صلاح الدين من دمشق إلى طرطيس فخيم في الأفخوان ونزل الفرنج طبريا فشاد فرخشاه على يساس وفتحها وغنم ما فيها ثم أغار على جنين واللجون ومرج عكا.

وعاود الكرّة ثانية فغزا يساس وخربها وأغار على الكرك ما صدر عنها نهب مدينة نابلس وأحرقها ونهب كل ما على طريقها ونهب سبطية وجنين وفي سنة 1825هـ اتخاذ كونت "قَمْص" طرابلس إلى صلاح الدين فوعده بالمناصرة وضمن له أن يجعله ملكاً مستقلاً وأطلق من عبد من أمه. وقد طاش سهم البرنس أرناط فغر بالدهنة وأغار على قافلة عظيمة كان فيها أخت صلاح الدين فنهبها وأسر رجاتها. ففضت الأفلاش بين صلاح الدين وغزا بلاد عكا وحارب الأعداء في قرية صفورية فكسرهم وقتل عدداً من شجاعتهم ولكن جميع هذه المواقع مع الفرنج لم تكن سوى مناوشات ومقدمات
لمعركة فاصلة أما أن تكون له أو عليه.

(53) معركة حطين(1)

رأى صلاح الدين أن الفرنج قد أسسوا أربع مقاطعات في داخل مملكته: الأولى مقاطعة القدس والثانية طرابلس الشام والثالثة أنتاكية والرابعة الرها وارفا وأن تلك المقاطعات كانت بؤرة ثورات وفساد في قلب مملكته. وكان أشدهن تنكيلًا برجاله وأشعثهم عليه مقاطعة فلسطين وأعظم أبطالهم واعتنهم البرنس أرناو صاحب الكرك الذي حاول احتلال الحجاز وتعرض لاخت صلاح الدين وكرر تكرهه للجهود مما أسخط المسلمين وأحفظهم على صلاح الدين فأطلقوا ألسنتهم فوقعوا إليه سهام السباب والعين وقالوا ترك قتال الفرنج وأقبل على المسلمين قاتلهم وفتح بلادهم. فتحركت لذلك غيرة صلاح الدين واستفز الناس للجهاد وجمع جيشًا عرموًا وعسكر في سهل الأفواه واستشار قواده فأشار عليه بعضهم بترك مناضلة الأعداء والاكتفاء بشن الغارات وأشار عليه الآخرون بملاماتهم ومنازجتهم فعزم على المنازلة والدخول مع الفرنج في ملحمة كبرى فسار إلى طريف وفتح المدينة دون القلعة وأخرج ما فيها من الخسائر الفاصلة عن حاجته واحتفظ بمدافع المياه وله أحس الفرنج بعمله استخفوا به ويجمش وساروا إلى ملافاته في 27 موزو الموافق 422. ربيع الآخر فاشتغل عليهم العطش من حارة القيط وقابل الفريقان في سهل قربة بويا وعزم الفرنج على ورود الماء فأدرك صلاح الدين مرادهم وصدهم

(1) قربة صغيرة واقعة فوق تل يشرف على غرب بحيرة طبريا.
عة وأمر باحراق العشب والأشواك فأخذ منهم الظماً كل ما أخذ وحملوا جحاث عنيفة كادوا يزيلون بها المسلمين لولا ثبات أبناء فلسطين الذين استمتعوا في حومة الوغى حتى هب عليهم ريح النصر وكسروا الفرنج وركبوا أقفيتهم ودحروا جيشهم حتى لم تقم لهم بعدها قائمة وتقدر قتالهم في حطين بلثلاثين ألفًا خلا الأسرى فقد أسر أكثر من أبطالهم منهم الملك (Guy) غاي ورنو "أرناط" صاحب الكرك وبعد أن فرغ المسلمون من القتال فاتزين جلس صلاح الدين في خيمته وأحضر ملك الفرنج ورنو صاحب الكرك وأجلس الملك إلى بجته وأعطاه ماء مثلوجاً فشرب وأعطى فضله البرنس أرناط فغضب السلطان وقال للملك أن هذا الملعون لم يشرب بازني ف限り أماني ثم انتهى إلى البرنس وذكره بهذته وعدد عليه عوراته وقام إليه بنفسه وضرب رقبته وقال كنت نذر مرتين أن أقتله إن ظفرت به الأولى حينما أراد المسير إلى مكة والمدينة والثانية لما أخذ القافلة غدراً ثم أمر به فسحب إلى خارج المكان وباست الملك وأمنة.

كانت معركة حطين من المعارك الفاصلة التي ختمت بها الحروب الطويلة بين الشرق والغرب وجدل بأهل فلسطين أن يجازوا يوم السبت الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة 583 هـ عيداً سنوياً وتذكارة ورحياً عظيمة فإن فيه خضضت شواكته الشرقي وفلج حده وقريت جموع الوطنيين وانبعثت نفوسهم فعادوا إلى طبريا وتسلموا قلعتها من زوجة صاحبها أمانة ورفى لها صلاح الدين ثم سار إلى عكا وامتكالها وجاء الملك العادل من مصر وفتح حصين مجد بابا "مجد الصادق" ويفا وساحت عساكر السلطان في البلاد.
ففتحوا الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعاليا فالثقيف وغيرها من البلاد المجاورة ثم سبسطية ونابلس واجتمع عسكر الملك صلاح الدين بنوذ أخيه العادل وساروا إلى عسقلان وفتحوها وبنوا السرايا في أطراف البلاد المجاورة ففتحوا الرملة واللد وزقة والخليل وبيت لحم وبيت جبرين. وأمر قائد أسطوله حسام الدين لوزوا أن يقطع طريق البحر ويتضيأ مراكب العدو ومنعها أن ترسو على سواحل البلاد وأرسل رسولًا لفاوضة أهل القدس كي يسلموا المدينة فرفضوا فهد إليهم جنده وخيام وكنفورية بين الخطة وبركة ماملا وظل حصار أيام يطرف حوالها لينظر أي الجهات أسهل للمهاجمة ثم أتت جيشه إلى الشمال الغربي جبهة المسكونية وباب العمود وباب الساهرة وشدد الحصار فسلمت المدينة يوم الجمعة في 27 رجب سنة 583 هـ وفي 2 تشرين أول سنة 1187 م على شروط منها:

أن يؤخذ عن كل رجل 10 دنانير والمرأة خمسة والولد دينارين فدية ومن لم يدفع حتى أربعين يومًا يصبح مملوكًا للعرب فبذل باليان عن فقراء قومه ثلاثين ألف دينار ووضع صلاح الدين على أبواب البلدة أمناء ليأخذوا ما ضرب على الفرنج وأظهر من العدل والعظمة ما شهد له به الأعداء فسمح لنساء المماليك والأمراء بخوضهن ومقدمهن ولم يأخذ من الأفرنجاء إلا عشرة دنانير ولم يشره إلى ما كان معةً من الأموال والذخائر وعامل نصارى العرب معاملة حسنة وترك لهم أموالهم وأملاكنهم وسمح لهم أن يشتروا منازع الأفرنجاء وقد وجب لمظفر الدين كوكبوري ألف مملوك من الفرنج فأتفقهم ورهب أبهاً لأخيه العادل ولكل من الأمراء أمثال ذلك ووزع الأموال والدواب على 

- ١٧٤ -
الضعفاء وفرق بالقراءة فسمح فهم بالخروج من باب العمود وأرسل معهم جنوداً لِإِيْصَالِهِم إلى المدينة التي كانت لا تزال في أيديهم فأنكره أخوانهم وأبروا قبولاً وأغلقوا الأبواب في وجوههم وأرسلوا خلفهم من نهب متاعهم. فناها في الفيؤا وتئتوا في أنحاء البلاد فرّى فهم عدوهم العربي ورجعهم واغلبهم صديقهم العربي وحافهم مشايعهم الأفراجي، ولم أنَّا قابلنا هذا العمل بما آتاه الفرنج قبل 88 سنة لرأينا الأخلاق والإنسانية والمكنار وعزة الملك وكبر النفس جلية في أعمال صلاح الدين وشهدنا القساوة والفساد والتوحش والتعصب واضحًا في أفعال غودفري الذي قضى على ألف من المسلمين.

أكمل صلاح الدين الأيوبي عمله وشرع ينظم المدينة فأزال كل أثر صليبي في الصخرة والمسجد الأقصى وكسر الصور والتماثيل الصغيرة والصلبان التي نقاسها ونقل إلى المسجد الأقصى المبر الذي أمر بصنعه نور الدين زنكي في جلّب ومال في إتقانه فاستغرق عمله عدة سنوات، وكان بين صنعه ونقله إلى القدس 20 سنة وأمر بعمارة المسجد الأقصى وخشيه وترصيف بالفسقساء والرخام وغير ذلك مما يحتاج إليه وجعل كنيسة القديسة حنة مدرسة للشافعية "الصلاحية" وأخذ قسمًا من منزل الطريرك وحوّله إلى جامع وخانقاه للصوفية "الخانكي". وفي سنة 584 هـ فتح الملك العادل قلعة الكرك والشوبك وسار صلاح الدين إلى صف فامتلكها وذهب من فيها إلى صور وفتح حصن كوكب بعد عناوين والتحق فوجه بصور حتى غصت بالمهاجرين وانقلب أفراد صالح الدين وتساهله مع الفرنج وبالاً عليه حتى...
قال ابن الأثير "لم يكن لأحد ذنب في أمر صور غير صلاح الدين فانه هو الذي جهز إليها جنود الفرنج وأمدته بالرجال والأموال من أهل عكا والقدس وعسلان" فأصبحت مركزاً لحملاتهم وتخاذلهم ولكن سورية ومصر أصبحت متصلة بعضها ببعض لا يفصلهما خم ولا يحجز بينهما عدو.

(54) الحملة الصليبية الثالثة

كان العالم الإسلامي يظن أن الحروب الصليبية قد انتهت ولم يدران وقوع القدس في يد صلاح الدين أحد تأثيراً عظيماً وصدى سييناً في نفوس الغربيين فقام منهم رجال كثيرون وحضرموا قومهم على استرجاع القدس وانتزاعها من أيدي المسلمين فنجحوا وأجعت أمم أوروبا وحكوماتها ثانية على محاربة الشرق الأدنى وأعلن النفير العام لاسترجاع القدس فهب ركادس البطل الشهير الملقب بقلب الأسد وترك عرشه في إنكلترا رغبة في اقناع بيت المقدس ونهد إمبراطور المانيا بربروسا "ذو اللحية الحمراء" وآثرهما فيليب أوغسطس ملك فرنسا ففرق ملك الألمان في نهر سالون قرب أنطاكية ورجع فيليب إلى فرنسا بعد فتح عكا وقام بالمهمة قلب الأسد.

تكاثرت جموع الفرنج في صور فتحمسوا ووجدوا نشاطهم واضطرعام النار بغثة في صدورهم فساروا بجموعهم إلى عكا فخف لصدهم صلاح الدين فسبقوه لأنه كان وقتذ موعكفاً فمر بكفر كنا وخيم على تل كيسان وامتدت ميمنته إلى تل العباسية ومسرتها إلى نهر المقطع وأنزل الأتقال في قرية صفورية واستعرت الحرب بين الفريقين وحدثت موقعة طاحنة انهزم
السلاطين على رأسهم فايز بن عبد المنعم، أو ما يعرف بإسم "شل كيسان"، بقيادة الفرسانANCED، ونظرًا للأوضاع الحالية، كتب الثاني مشاهداتهم الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأولى من خلال تقريرهم. يذكر أن الفرسان ورغم ذلك، فإنهم تابعًا للفرسان، كتبوا التقارير الأو
خيفة هجمات الخصون الساحلية فهدم صلاح الدين مدينة عسلان وباع أسلافه كل 12 دجاجة بدرهم وانقلب إلى الرملة فخرب حصيتها وهدم قسم منه وجرح كلب الأسدة في نصفه، فأخذ المركز كورناد وقلب الأسدة على مكعبتين أعدانه من هدم وتزوير عسلان ولكن قلب الأسدة لم يعبأ بتقريعه ومال إلى عقد بدرية وفاوض الملك العادل وكان يدخل مخيم المسلمين ويطرد إلى موسيقى العرب ويعجب بنغاماتها وبعد المذكرات اتفقا على شروط وثيقة:

أن يتزوج الملك العادل أخت قلب الأسدة أرملة ملك قبلي وتعيد القدس وما في أيدي المسلمين من بلاد الساحل للملك العادل وعكبك في أيدي الفرنج من البلاد لأخت قلب الأسد مضاربًا إلى إقطاعها في بلدها ووافق على ذلك صلاح الدين إلا أن القسيس والأساءقة حالوا بين ذلك ومنعوه فانقطعت المفاوضات وعادت البلاد إلى الحرب فانجز صلاح الدين الفرنج حتى الشتاء ثم انسحب إلى القدس ينفثوه إلى الأطراف ففسر منهم وأمر بعمارة سور بيت المقدس وتجديد ما رث منه وكان ينقل الحجارة بيئه مع العمال واحكم أخيل الذي ملك منه البلد وأتلقته وقواه وأمر بحفر خندق خارج السور وسلم كل برج إلى أمير فرجع الصليبيون إلى الرملة ومضوا إلى عسلان وشرعا في عمارةهما بما من المركز الحربي والتجاري.

وفي سنة 1585 ه استولى الفرنج على حصن الداروم، ورجعوا إلى قرية بيت نوبة ومما إلى قلنية فردتهم سرايا المسلمين فأغاروا على قافلة بحوار (ب) بين غزوة الفرعي وأنظه إلى العجول وفي جنوب غزوة محل يدعى باب الداروم يؤدي إلى ذلك النيل الذي يبعد فرسخها عن البحر كما ذكر.
الليل وأوقعوا بها ونهوها. فغضب لذلك صلاح الدين وحاصر يافا وملك المدينة دون القلعة ثم تركها وعاد إلى الرملة وفي شهر شعبان الموافق لشهر أيلول من السنة المذكورة عقده بين المسلمين والفرنج هدنة على شروط منها:

1. أن تظل عسقلان خراباً وتبقي أملاك صلاح الدين في يده وAMLAK الفرنج في أيديهم وهي يافا وقيسارية وارسوف وحيفا وعكا وعماهما جميعاً أما اللد والرملة فيبقى "مناصفة" مشتركة بين الفريقين.
2. وأن تكون الهدنة 3 سنين و8 شهور.
3. وأن لا يتعرض الصليبيون لبيت المقدس.
4. وأن يسمح صلاح الدين لزوار الفرنج بدخول القدس فتأتي الزوار إليها وفازوها فعلاً وسمى هذا الصلح "صلح الرملة" وبعد انعقاد هدنة رحل قلب الأسد إلى عكا ومنها إلى انكلترا فتنفذ صلاح الدين القلاع والحصون ثم ذهب إلى دمشق بعد أن أناب على القدس الأمير جورديك ولكن فاجأته الميّة في صفر سنة 589 هـ الموافق شهر شباط سنة 1193 م فقد في القلعة ثم نقل إلى جوار الجامع الأموي وقبره مشهور ولابد هنا من أن نذكّر صفحة من حسنات هذا البطل العظيم والقائد الكبير فنقول:

إنه وإن كان صلاح الدين كردياً فإنه كان من عظماء رجال الإسلام

(*) ذهب كثير من المؤرخين أن بعض القبائل العربية تزحت إلى بلاد الأكراد فأمعنت بالميّة الكرديّة
ويرجعون بسبب صلاح الدين إلى الحسن بن علي بن أبي طالب.

- 179 -
وقد خدم العرب خدمات جليلة وأظهر من مهاسن الشيم ما خلد ذكره فمنها:

1- معاملته الحسنة الصليبي بيت المقدس مع أنهم من ألد أعدائه.

2- ملطفة أسرى حطين وتقديم الماء الخلوج إلى الملك.

3- اكرام وفادة أرملة ندو صاحب الكرك لما جاءت تطلب ابنها.

4- حفظه للعهود واستكباره غدر الفرنج ونكتهم بها وعفوهم عن أراد قظه.

إلا أنه كان مفرطا في الحلم وكل شئ تجاوز حدوده انقلب إلى ضده فإن قواده طمعوا فيه وأخذوا يخالفون أمره.

فإن صلاح الدين لم يكن قادما فقط بل كان رجل أخلاص ودين يغار على الإسلام ويدافع عنه بكل غيرة وإخلاص فقد جمع كلمة المسلمين المتفرقة وألف بين قلوبهم وأخرج الأجانب من ديارهم وأبدى الفاطميين وأبد كلمة العباسيين وبنى المدارس والراباتات ومات ولم يترك في خزيته سوى دينار وأربعين درهما فمن للشرق اليوم تمثل هذا البطل العظيم ينهض به من كبوته وينقذ أهله من براش الموت والشقاء؟

(5) صلاح الدين ومواسم فلسطين وشي عن القبائل

فتح الفرنج البلاد فأخذوا يظلمون العرب مسلميهم ومسجحيهم فنزع بعضهم إلى الأقطار العربية الحالية عن سلطة الفرنج فلما استجاش صلاح الدين الملك والأمراء والقبائل وصمم الفرنج في وقعة حطين وأزاحهم عن البلاد شغرت أكثر مدن فلسطين فاسكنها القبائل واقطعها لهم فتوطن القدس
مؤقتاً قبائل بني حارث وكانت منازلهم خارج المدينة عند القلعة وحارة بني مرة من جهة العرب الشمالي إلى سوق الفناء "خان الزيت" وحارة السعدية لبني سعد(1) ويلي عقبة الشيوخ من جهة الشمال حارة بني زيد وحارة الجرامنة سوق القطانين ثم وزعهم على البلدان إلى حول القدس فأخذ بني زيد 9 قرية شمال رام الله وألحق بهم بني مرة وهم ثمانية قرى وبني سالم وهم في أربع قرى وعهد إليهم بحماية برج مجدل يافا "مجدل الصادق" ومهما نهر الأعرج والطريق بين القدس ونابلس. وأنشأهم موسماً في مقام النبي صالح يقام في جمعة زفة الياقوت "الجمعة الحزينه" في القدس وأعطي بني حارث 17 قرية جنوب بني زيد وعمل لهم موسماً في البيئ عنبر يوم الجمعة ووداء الصراط وبيت عمر وأخذ بني حمار 11 قرية وجعل لهم جميعهم موسى النبي صالخ في الرملة وأخذ بني صعب 28 قريه واجبرتهم على الزعوية وعين لهم موسماً في أبي العون وعلى بن عليم ثم تحول زمانه واختلف عن المواسم الأخرى وأنشأ بهزوة موسم الداروم وعمل إلى ببدو موسم المنطور وإلى بدو عيسقان وأطرافهم موسم الحسن وعين إلى عرب المساعيد والمشاحلة والصقر موسم أبي عبيدة بن الجراح وجعلها جميعها تابعة لموسم النبي موسى الذي جمع له بني مالك وهم 24 قرية وبني حسن وهم 13 قرية وجبيل القدس وهم 22 قرية والوادية وهم 9 قرى وعُزهم بجبيل الخليل وجبيل نابلس الذين يردون معاقبين إلى القدس. وتواجد قبايل -181- منهن دار نجم وغيرهم كان له حراسة باب الخليل ومفتاحه في بدته وكان له مفاضة في حيهم.
شرقي الأردن إلى مشهد النبي موسى فتصادف جميع هذه المواسم عيد الفصح الذي يأتي فيه الأوروبيون لزيارة القدس فتكون آنذاك الآلاف في نفير عام قد تجمهروا في شعبان أحد عسكري النبي صالح بن زياد ونبي عبر بن حارث ونبي صالح الرملة وروبين يافا وحسين عقلان ومنطار العريان وداروم غزّة وأبي العون بن صبّ وأبي عبيدة الغور ونبي موسى القدس مست두ين بسلاحهم وذخائرهم ومؤونتهم لفجأة الطوارئ فإذا ما حدث فرقوا لرتقى لأن السلطان صلاح الدين ألف من غدر الصليبيين ونكتهم بالدوادوم ما جعله يحتاط ويشتكي أن هم دخلوا القدس زواراً ينقلبون جنوداً ويدخلون المدينة ويمتلكونها سلماً فأنشأ هذه المواسم موافقة لأيام عبدهم لتكون القدس حينئذ غاية بأهلها الخليل ونابلس المجاورة وتكون البلاد كأنها ثكنة عسكرية متأهبة لرد كل غارة ودفع كل عداء. وهذا العمل استطاع أن يأمن غدر الأجانب وبعض البلاد من التعديات المتكررة ولما جاء الملك الظاهر بيبرس ومن خلفه من الملوك استحسنوا رأيه ونظموا هذا العمل وهو نظر بعيد وفكر صائب يستحق عليه الشكر الجزيئ والثناء الخالد لأنه عيد استقلال البلاد وذكرى خلاؤها. وحاجد بالأمة أن تستفيد من هذه المواسم الوطنية فوائد اقتصادية واجتماعية.

(56) فلسطين والدولة الأيوبيّة سنة 590 هـ - 486 م - سنة 193 م

182–
صلح الدين بهذا الخطر الذي يهدده دولته فجمع القواد وانغمس كر عبير مره وأخذ عليهم عهد الطاعة لولدها الأكبر الملك الأفضل نور الدين واقتطعه دمشق والساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخة وبصرى وبانياس وسورية الغربية فلما توفي صلاح الدين انتك الحزول وانتزرت جماعته افراداً وطمغ بعضهم ببعض ونسوا عدوهم الغريب فاستقل الملك الظاهر في حلب وسورية الشمالية وربض الملك العزيز في مصر واستولى عليها وطمغ الملك العدل أخو صلاح الدين في الكرك والشوفك واحمي بهما. فأصبحت فلسطين بهذا التقسيم موزعة بين ثلاثة دول الملك الأفضل والملك العدل والفرنج ولكن هذه الحالة لم تدم طويلاً لأن الملك العدل ولع بإغراقاً بهي على بعضهم بعضاً وأنساه عهد صلاح الدين إلى الأفضل ومنه بملك فشوف كل منهم إلى حصر السلطنة في يده والقضاء على ما سواه.

فتبه لذلك الملك الظاهر وقال للأفضل: "أخير عمداً من بيننا فانه لا يجيء علينا من يقرر ومدخن تحت كله ماتريد" فرفض الأفضل وظل صم اً لدساتين الملك العدل فتحت العزيز وسار إلى دمشق وحصر الأفضل بها فاستنجد عمه العدل واستحثه بأنه جدير وترددت بينهم الرسل على أن يضم إلى العزيز القدس وما زورهم فرضي وقفل راجعاً ولكنه عاد إليها ثانية فلم يحل بطلاب. ثم اتفاق الأفضل والعدل على فتح مر وضمها للأفضل مع دمشق فسارا وملكنا القدس من وعليها سنقر الكبير وقادوا بلاد مصر فانقلب العدل عن الأفضل ونكت عهده ومنعزز سراً وتوسط في الصلح على أن تظل البلاد كما كانت بشرط أن يقيم هو في مصر فنجح

١٨٣
وبعدها اقتحم العزيز وراوده على فتح دمشق واستخلاصها من الأفضل ففعلوا وأخذوا منه ووعوضاه قلعة صرخ فاستوطنها وشكا أمره إلى الخليفة الناصر فقل:

"مولى أنا أبي بكير وصاحب
من الأواخر ما لاقى مسان الأول
فانظر إلى حظ هذا الاسم كيف لقي
فأجابه الناصر:

"عثمان قد أخذ بالظلم حق على
وأنشر في مسرك الإمام الناصر
مستحكما بين العرب هاجموه
فناضهم العالدي وخيل على عين جالوت "بين جبين وبينان" ثم رحل إلى يافا وملكها. وبعد أن توفي الملك العزيز سنة 96 هـ ولى الأفضل الديار المصرية فقتحتها الأمير جركس "جهاركش" وفر إلى بيت المقدس وغلب عليها ثم انضم إليه ميمون (الفصر) حاكم نابلس فقويته شركته وأرسلوا إلى العالدي فاجأ وأخذ البلاد من الأفضل ووعوضة ميافاردين وبلادا أخرى ولكن لم يسلموا له.

وفي سنة 595 هـ حدث زلزال هدم قسمًا من عكا ونابلس وفي سنة 600 هـ تمكن الفرنج ونهبوا قرى الأردن فهد إليهم العالدي وعسكر قرب.

(1) المنسوبة إلى المدرسة "المامونية"
جبل طور الناصرة ثم عقدوا معاهدة على ما يأتي.

أن يأخذ الفرنج الناصرة ويافا يتنازل العادل فض عن البلاد المشتركة بنيها كالفلد والرملة وغيرها.

ثم في سنة 926 هـ خرَّب الملك العادل حصن كوكب "قرب طربا" ومحا أخرى وبنى حصنًا على جبل الطور ثم خربه الملك المعظم سنة 1416 هـ. خلافة أن يملك الفرنج لأنهم ثاروا وملكوا بيسان وعثروا في البلاد ثم توفي العادل بعد أن قسم البلاد بين أولاده فجعل الملك الكامل على مصر والملك المعظم على جميع سورية فصار الملك المعظم وهدم أسوار القدس لعجزه عن حمايتها وخوفه أن يحتل الفرنج ويشتعم بها وعمل أبواب الخشب التي على باب المسجد وأوقف لمسلج الخليل حاصلات قرية دوره وكفر البريك. وفي سنة 526 هـ سار الملك الكامل بعد وفاة أخيه المعظم وامتلك القدس ونابلس ثم تأخر إلى تل العجول (3) مشاهداً لإخوانه فقابله الملك الأشرف وحذره عاقبة الخلاف فرضي ولكن نفسه كان تحدث بهامتلاك جميع البلاد غير متفتح إلى النجادات والحملات الصليبية المعاقبة التي حاولت استرجع القدس ولم تصل. فلما استحكم الخلاف وأعلنت المشاجرة بين أبناء العادل تسابقوا إلى مرضاء الفرنج اتباع التفرغ إلى بعضهم البعض فأيده فردينريك إمبراطور المانيا سنة 1229 هـ وعقد معه الكامل هدنة على هذه الشروط:

(3) تل يعد إلى الجدوب عن غرة 15 كيلو متر تقريباً وربما كان حصن الداروم.
1- أن يسلم إلى الفرنج بيت المقدس مع بعض ملفحاتها بشرط أن لا يمروا بالسور الذي خربه الملك المعظم ولا يتصدوا لقبة الصخرة ولا للجامع الأقصى.

2- أن تظل "الرساتين" الخليل ونابلس وطبريا وغور في يد المسلمين.

فتم هذا الاحتلال السلمي الذي لم يصادف قبولاً من الفرنج لأن الإمبراطور فريدريك كان مهووساً من اليابابا وغضب المسلمين على الكامل لأنه حمل القدس للفرنج بلا داع يستند عليه إلا ليتحوي بهم على إخوانه وأبناء عمه. وفي سنة 1345 هـ توفي الملك الأشرف ملك دمشق وعهد بها إلى أخيه الملك الصالح إسماعيل. وفي سنة 1346 هـ أعطى الصالح أبو بسنجار والرقة إلى الملك الجواز وأخذ منه دمشق فطمع بمسير سنة وسار بعساكره ليأخذها فغدره الملك الصالح إسماعيل والملك المجاهد "صاحب حمص" وهجماً على دمشق وأخذها فأبلغ الصالح أبو بسنجار وهو بالغور تفرق عنه جنوده فقبض نابلس ونزل بها فسار إليه الملك الناصر صاحب الكرك وأفسقه فاعتقله في الكرك وأكرمه ثم جاء القدس فحصرها وفتحها وخرب قلعتها التي بناها الفرنج وخرج برج داود وعاهد الصالح أبو بسنجار على الصخرة بأن تكون مصر للصالح وسورية للناصر إذا هما امتلكاهما فتوجهها إلى مصر وفتحها فخاف الصالح إسماعيل وسلم الفرنج سنة 1346 هـ وصل والشقيف وفي سنة 1341 هـ اتفق الصالح إسماعيل والناصر داود مع الفرنج واعتضدا بهم وسلما إليهما طبريا وعسلان فعمروا قلعتهما ثم أبحا لهم القدس.
فغضب الصالح أيوب واستدعى الخوارزميين المهزمين من وجه المغول
وحنكيز خان.

(57) الخوارزمية

ينسب هؤلاء القوم إلى بلاد خوارزم شرقي بحر قرین وهم تئز كانوا
 أصحاب حكومة ودولة فلما طمع عليهم سيل المغول وأبان حكومتهم ساحوا
 في البلاد يقتلون يبهرون كل من أعترض طريقهم بل نفي هم بين دين ومذهب
 وصدف إن كان الناس فوضي قد انقسموا على أنفسهم وتفريق كلمتهم
 فأصبح كل زعيم لا يهمه سوى الاستنقار بالسلطة ولو بهدم أمه وذوبه
 فمصايره الشخصية فوق كل شيء إذا زاهية قريبه استعان عليه بعدرهما الذي
 يجهز عليه بعد القضاء على ابن عمه فكون بذلك كالفمح عن حتفه بظلهه
 قد طعن نفسه وهم عشيرته وأهل الأقربين بعول حب الذات والنهوض.

ظل حنكيز خان المغول يدحرج الخوارزميين وهم يتحرون أمامه ولم
 يعقبوا حتى إذا وصلوا العراق جمعوا فلولهم ونظموا صفوفهم وأخذوا
 يتوسلون إلى الملك الصالح أيوب بقربى الدين لظنهم أنه أقوى الملوك
 فأستدعاه إليه خاربة الفرنج وبنى عمه فاتلقوا معه على شرط أن يقطعهم
 الاقتراحات ويسكنهم البلدان فساروا إلى غزة سنة 462 وانضموا إلى أمير
 العسكر المصرية وقاتلوا الفرنج وعسكر الشام بظاهر غزة فهزمهم واستول
 الملك الصالح أيوب على غزة والساحل وفتح القدس وقطع رؤوس الكهنة
 وخرَب القرى المقدس وألقى الروع في قلوب الأهلين.
ثم بدر الصالح إلى دمشق وحاصرها. وفي سنة ١٥٨ ه فتحها وحاس بعده مع الخوارزميين فقموا عليه وحالفوا الملك الصالح اسماعيل عم الصالح أبواب وانضم إليهم أمراء المصريين والملك الناصر داود صاحب الكرك وحاصرها دمشق فقلت بها الأقوات وقاسي أهلها شدة عظيمة ولكن وليها حسام الدين قام في حفظها خبر قيام فانغذل المتحالفين وردوه على أعقابهم خاسرين فهاجم الصالح أبواب شرقى الأردن واستولى على مدنه وتسلم الكرك سنة ١٥٧ ه وفي سنة ١٥٥ ه استعاد المسلمون عسقلان وطبريأ من الفرنج فتحمس أهالي أوروبا وجردوا حملة صليبية سنة ١٥٧ بمقيادة لويس النابع ملك فرنسا فصبر على مصر وحاصرت دمياط فغببهم المصريون وشتتوا شملهم ففرؤًا أكثرهم إلى فرنسا ونبع الآخر إلَى عكا ومكث لويس ملك فرنسا ٤ سنوات في فلسطين وهو يحسن قياسارية ويافها خائفة أن يأخذها منَّ اليوان ولم تحدثه نفسه بمهاجمة القدس وأخيرًا رجع إلى فرنسا محنولاً ولم يقم للصليبيين بعد ذلك قائمة لأنهم مكشواً في البلاد أذلاء غرباء ضعفاء حتى سنة ١٩١ ه وسنة ٢٠٦ ه فسلموا عكا وصور وصبرها وبيروت وعندما وانطرتوس وتركوا فلسطين وودعوا الردوع الأخرى بعد ندامت حروبهم فرسن وهم القوم الأشداء البواسل الذين عضدتهم أمم أوروبا أجمع فلم يظفروا بما أملوا وظلت البلاد عربية وانتهت روايتهن بالخسارة.

(٥٨) أضرار الحروب الصليبية بفلسطين وفوائدها

هل أفادت الحروب الصليبية فلسطين أو اضطرتها؟
ليس من السهل الجواب على هذا السؤال لأنه يفتقر إلى تفصيل ولكن
نجمل البحث فنقول:

تضرر الشرق عامة وأهل سورية وفلسطين خاصة بالحروب الصليبية
أكثر مما استفادوا ولكن الفرنج جنوا منها نفعًا أرجح من أضرارهم. وهذه نبذة
من مصارها الجسيمة...

1- أنّا أشعلت نار التعصب الديني بين المسلمين والمسيحيين وعرعت النفور
بين الأهل ونظن أن مداخلة الفرنج في أحوال سورية وفلسطين اضطرت
بعض المسيحيين الوطنيين فأفسدت عقيدتهم الوطنية ومنتهم باحلام جميلة
فاذ هي سراب. وقد رأوا بأم أعينهم أن مسلمي العرب قد أحسوا
ورفقو بمسيحي العرب في حين أن الفرنج قد أساءوا إليهم وأنكرهم.

2- أن هذه الحروب الطاحنة أضعفت روح القومية العربية في نفس نصارى
الشرق وزادوا ولاة لبني دينهم الأجانب وأكرم بنصاري فلسطين العرب
الذين حافظوا على جسديتهم ولغتهم ونبذوا التعصب الديني وراءهم
ظهروا ولزموا إخوانهم مسلمي العرب وأثبتوا أنهم من أبناء غسان وطبي
وتغلب الذين هم من صميم العرب.

3- فطاعة الحرب وسفك الدماء وتخريب البلدان والمدن وقطع الأشجار
وتعطيل الأرض وانتشار الوباء وهدم المنافع العمرانية وبعبارة أخرى
القضاء المبرم على الحركة الاقتصادية ولذلك ارتفعت أسعار الحاجيات
ستة أضعاف ما كانت عليه سابقاً.

١٨٩
4- تلطيخ الدين المسيحي والازدراء بتعاليته ومبادئه لأن مسيحيي الصليبيين كانوا أبعد الناس عن دينهم. وقد أجمع المؤرخون على أن المسلمين تقيدوا بالقضاء الدينية وراعوا المصلحة الإنسانية أكثر من الفرنج الناكي العهد والقاتلي الأسرى والذين أفصحت بهم سفك الدماء لما دخلوا القدس وحقروا الديانة المسيحية في مهدها ولكنهم ذهبوا وخلفوا بقايا كثيرة من جنسهم مما ستشine في تاريخ قبائل وأسر فلسطين. فبعض الأقاليم الموجودة في يت خم والناصرة والقدس ويت جالا وزغة ويعبدا ندل على أن حاملها ليسو عربا ولكن اصطعبنا وطبقنا في معامل العربية وتزوجنا نساء شرقيات عربات وتوطننا في البلاد واندغمنا في أهلها وكذلك يوجد قبيلة بدوية خلف الجروف تدعى "صليبة" شقر الرجلو لابن روج العرب منهم ويدعون أن أصلهم صليبيين كما ورد في تاريخ سينا والقسطف.

أما الآثار الصليبية فلم يبق إلا قليلها: منها كنيسة الصلحية وبقايا كنيسة الدير والقرية في الرملة وحصن عطث وقلعة صفد وطرية والشوبك والكرك. ولم يؤذوا على لغة السكان وهم بنا يهاوهم بل ظل العرب عرباً يخطبون الفرنجة عند الحاجة بواسطة من تجاوز ولم يتعلم أحد الفرنج لغة الآخرون لم يقروا من سابق العداوة المتواصلة فكان إذا تغلب فريق على مدينة نزح عنها الآخرون ولكن لما طال بهم الأمد امتزجوا قليلاً فبخ الكره والبعض كما ورد في رحلة ابن جبير الأندلسي وما قاله عن مدينة بانياس أثناء زيارته لسوريا.
"هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين وهي صغيرة وفا قلعة يستدير بها تحت النهر يفضي إلى أحد أبواب المدينة وله مصب تحت أرجائها وها محرث واسع في بحاء متصلة يشرف عليها حصان الفرنج يسمى "هونين" بين الفرنج والمسلمين وهم في ذلك حد يعرف بجد القاسية ويشتاطرون الغلة على السواء وواصله مخلطة ولا حيف يجري بينهم. إلخ. ثم جاء إلى تيبين في عجلون حيث يقدمون فيه الضرائب "جامع" فقال والضربة دينار وقيراط صورية ولا اعتراض على الناجر ثم مرت ضياع كثيرة وعمائر منظمة سكانها كلها مسلمون يؤدون للفرنج نصف غلتهم ودينارا وخمسة قرارت جزية على كل رأس ونزول بضيعة من ضياع عكا الناظر فيها من المسلمين مقدم من جهة الفرنج فأضاف القافلة ضيافة حافلة وزوار مدينة عكا ونزل بالخان ووصف كتاب الفرنج والسفن والمرق وصركتها وكره سكانها ثم ذهب إلى صور ومنها إلى الأندلس.

أما ابن بطوطة فجاء إلى فلسطين بعد ختام الحروب الصليبية من مصر عن طريق الساحل فقال أنه قدم قطعة حيث تأخذ فيها الرباك وتتفضن أميال التجار "جمرك". وهناك كتاب ووجاه كل يوم ألف دينار ذهب ثم جاء غرة ووصف عملاها ومساهمتها وعملاءها ومنها عطف على خليل الرحمن فقال أنها مدينة صغيرة الساحة وذكر مسجدها وموقعها الطبيعي وخرج على تربة بونس عليه السلام ثم زار بيت حلم وقال أنهم يضفون الغرباء وأتى القدس ووصف قبة الصخرة ودهش بها وذكر فضلاء القدس وعلمائها وروى أن الأمير سيف الدين تكرز حاكم دمشق جر الماء إلى القدس وسافر

-191-
ابن بطرطة إلى عقلان فوجدها خرابًا بابًا [ولا ندري لماذا لم يزر عقلان لما كان في غزة] ثم سافر إلى الرملة فقال أنها كثيرة الخيرات حسنة الأسواق وبها الجامع الأبيض وذكر بعض علمائها منهم مجد الدين النابلسي. ثم خرج منها إلى نابلس وقال أنها مدينة عظيمة كثرة الأشجار مطردة الأنهار من أكثر بلاد الشام زينًا ومنها يحمل الزيت والصابون إلى دمشق والشام وبها تصنع حلويات الخروب ثم ذهب منها إلى عجلون فوصفها واجاز غور أبي عبيدة ومر بمدينة عكا ومنها إلى صور فمكث في سورية ليلة ورجع إلى زيارة الحجاز فركب بصحبة الأمير محمد بن رافع شيخ قبيلة العجارة وفر بذراعه ثم بصرى وزراء جزيرة واللحرم وحصن الكرك ووصفها وبالغ في مناّعته.

أُسس الصليبيون هذه الفرقة وألفوها لتمريض الجرحى والمرضى وخدمة الإنسانية الشابة "الصليب الأحمر" فاتخذوا اسمًا خاصًا وهي رسم صليب ذي ثمان نقاط على جنب لباسهم الأيسر وجعلوا ديبر مار يوحنا في سوق الفنادق جنوب كنيسة القيامة مستشفى لمواجهة الضعفاء ثم تغيرت مهمتهم أثناء الحروب وأصبحت عسكرية محضة حتى أنهم كانوا أشد الجنود الصليبي على صلاح الدين وأكثرهم نكابة جندهم وأثبتهم امامه؛ ولما خرج الفرنج من القدس تحولوا إلى صور ثم إلى عكا وهناك استمروا في الدفاع عن الصليبيين ولكنهم جلوا وسكنوا جزيرة رودس حتى أخذوها منهم العثمانيون فنزعوا إلى مالطة ولا يزال منهم جماعة منهم وثي ذكرهم فإنهم أنشأوا في

١٩٢
القدس مستخفى عيون في البقعة واقعاً بين بركة السلطان والخسمة ولا أحد ينكر ما له من الخدمات والأيادي البيضاء على سكان البلاد بمعالجة عيونهم مداواتها و sócته في عهدنا هذا ألوُن من الناس للاستشفاء. ولم أيضاً مضافاً في آخر شارع الحائطي بالقرب من سوق خان الزيت. (Hospice)

(٢٠٠) فرسان الهيكل

تألفت فرق صغيرة أخرى غير فرسان مار يوحنا أهمها فرسان الهيكل (الداوية) وكانت مهمتِهم حماية الزوار وأيضًا إلى القدس وحراسةهم من تعدي المسلمين غير أنهم تحولوا إلى فرقة عسكرية شديدة البأس والشامية واتخذوا الجماع الأقصى مقرّاً لهم وجعلوه مخزناً لطعامهم وأسلحتهم وبنوا فيه محال أخرى فاستُعِدوا وظلموا وولعوا بالنهب والسلب ولذلك أنذرهم صالح الدين بأنه لا يأسيء أحداً منهم إلا قتله ونقم عليهم البابا والناس أجمعون فتلاشوا وانترضوا.

أتى الصليبيون ففتحوا البلاد وتمكنوا بها إلى أن قضى الله للشرق البطل الكبير صلاح الدين رأس الأسرة الأوروبية فقطى عليهم وفتح معظم البلاد العربية ثم أورثها أخاه وأبناءه وتداولوها حتى سنة ١٢٥٠ م. وسنة ٨٤٨ هـ حيث ضعفت شوكتهم وتقلص نفوذهم ودالت دولتهم فقتل الملك الظاهر بيرس توران شاه سنة ٦٤٨ هـ وانتخب بعده "شجرة الدمر" وهي الملكة الوحيدة التي توجد في الممالك الإسلامية العربية وضربت السكة باسمها وخطب لها فنفر أمراء دمشق وانضموا إلى الملك الناصر يوسف صاحب
حلب فأعلنوا طاعته ودخلت جميع بلاد سورية في حكمه فعظم الخبر على المصريين خلعوها وولوا أمرهم عز الدين أيبك "المملوك" ولقبوه بالملك المعز فنورة شجرة الدر ليرضى الشعب ولكنه لم يرض لهم هذا العمل واختاروا الملك الأشرف موسى بن يوسف صاحب اليمن وقررها أن يكون أيبك أتابك جنده فغضبت دولة دمشق الأيوبية وسار الملك الناصر يوسف إلى مصر وحاول الاستيلاء عليها ولكنه فر منهزا واحتفظ الأغراف بين مصر الأيوبية تحت إمارة المماليك ودمشق الأيوبية البحثة إلى أن أصلح بينهم الخليفة العباسي على أن يكون الجند الفاصل بينهما نهر الأردن ثم تار أيبك سنة 526 هـ وخلع الأشرف واستبد بالملك فشغ ذلك على المماليك ورحلوا إلى دمشق وأطمعوا صاحبها في ملك مصر واستحثوه فسار إلى غزة وهنا اتفقوا على أن يكون حد الدمشقيين العربيين. وفي سنة 577 هـ قدمت عساكر هولاكو النزي وتملكوا الشام وقتل الملك الناصر ابن الأشرف سنة 599 هـ فأنقرض ملكهم من الشام كما انطفي من مصر.

***

-١٩٤-
الفصل الثاني عشر
فلسطين في حكم المماليك

المماليك جمع مملوك وهم الجماعة الذين دخلوا خدمة الملوك والأمراء
فزرقوا من خادم إلى ملك ومن أجار إلى أمير ورجع أصلهم إلى الأسرة المغولية
من سكان أواسط آسيا. فالسلاجقةون والخوارزميون والمماليك والعثمانيون
من فصيلة واحدة بعضهم نزح بيئته ومواشيه إلى حدود المملكة العربية خشية
بطش جنكيز خان أو غيره وبعضهم كان يجلب ويباع في العواصم أو يقدم
هدايا للملوك والأمراء فهم كان منهم قرباً ذكياً كان يقدمه جده ومقدرته
فيليس التاج ويؤسس جدًا بأسقا ومن كان منهم ضيفاً عاش خاملاً ومات
خادماً ومن يتصف تاريخ الحكومات العربية ويستقصي حوادثها يدرك لأول
وهلة سراً خطيراً وهو أن جميع الدول كانت تستثمر من الخدم "المماليك"
وتكرمهم وترقبهم وترفعهم وتتحجح الألق الأمراء وتقطعهم البلاد فيستبدون
ويتحكون ثم يمسؤولون حكومات تكون فروعاً للجذع الذي نبتوا عليه فإذا
ما عظموا قطعوا عنه وأصبحوا وهم العبيد أصحاب البلاد. وما من دولة إلا
ارتكت هذه الغلطة فانفرست وتلائست جميعها عن أبدى مماليكها وخدمها ولم
تعظم واحدة منها بالأخرى وليس هذا بعجيب لأننا معاشر الشرقيين بسطاء
القلب مخلصون سمحون متساهلون لا تدفقنا عظة الأدهار، ولاتبهنا حوادث الأعصار شائنا في جمع أمورنا وأعمالنا ولو انا طفنا بيوب الأسر الكبيرة لكشفنا ذلك السر ولاطلعنا على أمور توضح لنا أسباب رقي أولئك المماليك ونجاجهم والليك ابنا القارئ الكريم مثالاً.

يأتي السيد العربي جناد أو خادمة إلى بيته فيجعله فرداً من العائلة ويشركه في أمره ويد له ويطلبه على أسرار البيت وに出رات أهله ودخائلو فيعرف فقره و غنه و مقامه الحقيقي والظاهري ويتدخل بينهم في جدهم أحزاناً يساعون به أحدهم على الآخر ويقؤوا به أضعفهم ويستند عليه أعزهم فيحرون ويكرم وينانسون في استمالة إليهم حتى يصبح مستشاراً لا خادماً في خالفهم وي تخشينهم. أما الغربون فظل خادمهم خادماً لا يعرف من أمورهم شيئاً وليس له عليهم من سبيل و ربما طردوه لأقل ذنب أقوفهم أو خطأ جناه ولو كان طفيفاً.

تشعبت الدولة الأيوبية وطمع بها كثيراً وأصبحت البلاد لمن غلب فاستكر الملك الصالح المماليك وقربهم منة و ولاهم الإدارة فاستحل أمرهم وقويتم شوكتهم و سطع فهمهم وأبدهم السلاح الذي بين أيديهم فنالوا المناصب العالية وأصبح الحلف و اللب متواً بهم فاحترقوا آخر ملوك الأيوبيين و خلعوه واستبد بالملك أيبك الجاشنكير أول ملوك المماليك البحرية الذين لقوا بهذا اللقب لأن مقرهم كان في جزيرة النيل عند نقطة سمي ب البحر لاتساعها تيزاً هم عن المماليك الجراكسة.
قلت الملك المظفر

ولي السلطان قطر الملك سنة ٥٦٢ هـ وهو الثالث من ملوك المملكة

البحرية ولم يدم سلطانه سوى أحد عشر شهرًا لأن هولاكو زحف جميع

_xlabelاد المنتشر فدخل بغداد "دار السلام" وقضى على حضارتها ومدينتها

الباهرة والونا نسرت هذه الفاجعة الأليمة الحزينة فنقل: كان هولاكو تزيراً من

أخفاف جنكيز خان وله حكومة قوية فاستدعى مؤيد الدين العليقي ووزير

المستعمر لفتح بغداد فلباه وهاجم البلاد العربية وكان لا يأتي إلى بلد أو مدينة

لا وتحت فاهلها فتكاً ذريعاً فلا يترك رجلاً ولا امرأة ولا طفلاً ولا شيخاً إلا

قلته فوصل بغداد وحراها وضيق عليها فخرج الوزير مؤيد الدين بن العليقي

[سبب هذه النقطة] إليه وتوثق منه لنفسه وعاد إلى الخليفة المستعمر وقال له

ان هولاكو سيقفك في الخلافة كما فعل بسلطان الروم في "الأناضول" ويريد

أن يزوج ابنته من ابنه أبي بكر وحسن له استقباله فخرج المستعمر في جميع

من أكابر أصحابه ونزل في خيمة ثم استدعى الوزير الفقهاء والأمائل فاجتمع

هناك جميع سادات بغداد والمدرسين وطلبوا يخرجون إلى الطر طائفه بعد ظاففة

حتى تكاملوا وكان منهم محي الدين بن الحوزي وأولاده فامر بقتلهم جميعاً ثم

مدوا الجسر ودخلوا بغداد وعملوا السيف في أهلها وهجموا على دار الخلافة

وقتلوا من كان فيها من الأشراف ولم يسلم إلا أصغر ودام القتل والنهب نحو

أربعين يوماً وقتل الخليفة ولم يعرف طريقة إغتياله ثم نودى بالأمان.

هكذا ختمت الخلافة العباسية البغدادية التي أجلتها واجتزتها وحابها

١٩٧
السلطانين والمملكتين فداسها هؤلاء البرابرة بأرجلهم القذرة سنة 1257م و56 هـ، بعد أن عمرت خمسة قرون ونيفاً وترك من الآثار الجليلة ما برزت بها على الأولين وذات السبقين.

انقضت هذه الصاعقة أو الفاجعة بل الطامة على العرب فذعروا واستسلموا أو تمزق هولاكو فاستولى على العراق وتقدم غربًا وجنوبًا إلى سورية فقر الملك الناصر من دمشق بأولاده ونسائه وأتباعه ورفائسه ذخائره إلى بركة الكرك "جزيرة" فجاء نائب هولاكو القائد كتبغا وتسلم دمشق بأمان ثم بحث عن الناصر حتى عرف مقره فأمسكه وبعث به إلى هولاكو فقتله وانفرضت به الدولة الأيوبية المنكوبة ثم زحف النتر إلى عجلون وفلسطين وقدموا غزوة وامتحكوها فانتفاهم الملك قطع وصحبته المنصور صاحب حماة والنجم الجيشان في الغور على عين جالوت بين يسائ، وجبين فكانت موقعة كبرى قتلت فيها كتبغا وأسر ابنه ثم قتل وتأثر فلوقهم ببرس ومازال يفتقد بهم حتى أخجلهم من البلاد ورجع فقتل الملك المظفر قطع واستوى على العرش.

(3) الملك الظاهر بيرس البندقداري

لا يرب أن السلطان بيرس هو أعظم المماليك وأشدهم باشا فان حكم فلسطين وحارب مابقى فيها من الصليبيين وانزوع منهم الشوبك والكرك وفتح قيسارية وأرسوف وصفد وذبح أهلها وفتح يافا واهتم بالأماكن القدسة ورسوم قبة الصخرة وزاد في أوقاف الحرمين الشريفين الأقصى والخليفة وفي سنة 1268م سنة 1269م عصر النبي موسى وزاد فيه ورتب موسمه وحسنها وقاموا

-198-
الفرنج.

(5) محمد قلاوون

ولى الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد أن خلع مرتين وعمر في القدس المساجد وأنشأ المآذن وصد هجمات ملك النصر قازان الذي أوغل في البلاد وتجاوز حدود فلسطين فوجس الناصر وجهز سلاح ويبيرس الجاشنكير ببجيش غاربتهما فاجهروا عليهم وردوهم على أعقابهم منقليين.

ولا حاجة للافاضة في هذا المختصر عن سيرة كل ملك من المماليك البحرية لأنه لم يحدث بفلسطين شيء جدير بالذكر غير خلع الملك هذا وتعيين ذلك مما لا يهم القراء معرفته.

المماليك الجراكسة أو دولة المماليك الثانية

(6) كانت منازفهم في سيريا حول بحيرة بكال فهجروها واستوطنا بلاد الجراكس وفوقاسية وما وراءها فاستقدموا الملوك والأمراء واصطفوا واستكثر منهم العبابيون وبني أتوب والمماليك البحرية فقضوا على سلطتهم بأسلوبهم العجيب وهو تنصب الأحداث والضفاء من أبناء الملك على سدة السلطنة تزوعها منهم ثم يكلفه أحدهم ويديرون شؤون المملكة فيسند بالسلطان ويترضى له وخلعه وأول ملوك المماليك الجراكسة.

(7) أبو سعيد برقوق "الظاهر"

هنا أحد موالي بن قلاوون النابهين ساعد جده فبرز على قرانه ونال

- 200 -
انتقال الخلافة العباسية إلى مصر

وبمجرد وصولهم إلى مصر وضمهم لمكة، بدأ شان الخلافة في الضعف منذ عهد الراقي سنة 322 هـ الموافق 934 م. عندما فصلت عنها السلطة الزمنية واستبد الملوك والأمراء وأصبح الخلفاء شيوخًا وراءهم. فبدأ وفاة بعضهم وعمر بعضهم، وعمر بعضهم فنقلوا إلى مصر ونزلوا على قضاء بعضهم حتى بلغ من الملك الناصر أن تبقى الخلافة المستكفي إلى قرية قوص ومن ملوك هذه الدولة السلطان الملك قلاوون الذي فتح طرابلس الشام واستردها من الفرنج بعد أن مكنت في أيديهم سنة 185 هـ خلفه ولده السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل الذي هدم قبور الخلفاء الفاطميين في مصر وبنى مكانها خانًا دعاه الخان الخلیق بقرب مشهد الحسين وفتح عكا وقتل أهلها ومنها خرجها وتسرب عنها سنة 190 هـ خلت سورية وفلسطين من
حظوة عند أسياده فاغدقوا عليه نعمهم وأحلوه صدر مناصبهم وأعلاهما
فنجحت نفسه للعرش ونهج منهج أسلافه المماليك فاختار حاجي الصغير ابن
السلطان شعبان وكفله ونائب عهده في المملكة وما زال به حتى خلعه واستوى
على عرشه فانتقض عليه الأمراء وبعد عراك شديد تغلب عليهم وشردهم
فانتجا أحدهم منطش إلى آل الفضل غراب الأمير محمود الفاعور واحتمى بهم
فدافعوا عنه وحاربوا معاً وأخيراً أخذوا له الأمان وسلموه فخسق برقوه بعده
وفتم به فضفصة له الجو وقرت عينه بالملك. وفي سنة 796 هـ كان ناظر
الحرمين الشريفين ونائب السلطنة بالقدس شهاب الدين الأمير أحمد بن
البغموري "وله أسرة في الخليل والشام" فأبطل المظلم والمكرس التي عملها
سواء ولا زار الناصر فرج بن برقوه القدس رأى على نياتها ونظرية الحرمين
حاكماً واحداً فلم يستحسن ذلك وجعل لكل منهما مأموراً خاصاً فعين الأمير
ناصر الدين النشاشيبي ناظراً للحرمين فقط وأسرته في القدس كبيرة
ومشورة.

(28) محى الطور

اشتهر من النثر ثلاثة ملوك عظماء الأول جنكيز خان مؤسس الدولة
والثاني هولاكو مبيد مجد العرب وطافي سراج مدنهم ومحرق مكتباتهم
ومدارسهم في بغداد والثالث تيمور لنك ملك زرقد الذين اجتاح البلاد وفتح
خراسان وتركستان والهند وفارس واركور الأناضول وأسر السلطان العثماني
بايزيد ثم انقلب إلى سورية سنة 680 هـ فامر فرج بن برقوه سائر النواب
بالتوجه إلى حلب لينعوها منه ففعلوا ولكنهم عجزوا عن رده وصد غاراته فحاربهم وانتصر عليهم وفتح حلب وأمعن في النهب والفك وسفك الدماء البريئة وسار إلى الشام فامتلكها وأحرقها ونكل بأهلها وأحرق الجامع الأموي وفت فلك بالأهلية وعاث في الأرض فسادا.

ولما ولي السلطان الملك الظاهر خشقدم عمر قناة السبيل وأجرى بها ماء العروب إلى القدس ومن ملوك هذه الدول السلطان قايتباي الذي عمر كثيرا وطالت سلطنته وقد حصل في عهده وقائع عميقة نذكر بعضها باختصار فنها:

أنه في سنة 878 ه نشبت فتنة في الخليل بين الأكراد "الحموريين" وبين الدارية "الثيمة" المتشاب منهم سكان قريتي النبي صالح ودير نظام وتمو نابلس فقتل من الفريقين ثمانية عشر رجلا، ومنها الفتنة التي حدثت بسبب كنيسة اليهود وتشدد متعصب المسلمين إلى أن تفاقم الخطاب. وفي سنة 880 ه خرج السلطان على بركة الجاموس قرب الرملة فسرق له اللصوص بقية قماش من الخيمة التي كان نائما فيها فاستدعى الشيخ بني صعب حرب الجيوي وحبسه ثم غرمه مالاً.

ومما يدل على ضعف الحكومة وقتئذ أن حاكم القدس قتل جماعة من بني زيد فهجم عليهم وأعوانهم ونهبوا المدينة ودخلوا المسجد شاهري السلاح وهرب من وجههم الحاكم فتمروا وكسروا باب السجن وأخرجوا من السجن.

٢٠٢
وسنة 888هـ اختلف السلطان قايتباي والسلطان بايزيد الاعظم
فجمعوا من فلسطين الجنود "تجريدة" وصرفوا لهم المعاشات فأخذوها ونكلوا
عن الحرب.

وفي سنة 94هـ حضر أبو العويس أمير عرب الجراحنة "جد
العويسات في بيراما عين والبرج" وطرح مظلمة على الفلاحين فعارض فلهم
الدين ابن جماعة "من أجداد دار الخليل" واستراح من الدوادار (1) أن ينعته
فلبّ طلبه.

وفي 19 ربيع الأول سنة 891هـ الموافق 7 كانون أول تساقط
النحل في القدس من يوم الثلاثاء حتى يوم الخميس زاؤكم كثيرا مثل تلجة سنة
1919 وم في هذه السنة حدث خلاف بين حاكم غزة وحاكم القدس وتدخل
بينهما السلطان وأصلح ذوات البين وظلت البلاد في أخطاط حتى النهوض
الأتراك العثمانيون.

(*) هو الدمداش "قائد المزخرة" والبيشداش "قائد الطلعة".
لاقسم الثالث
فلسطين إيالة عثمانية
الفصل الثالث عشر

(69) تمهيد

ان دولة حكمت فلسطين وخفت روابطها على ربوعها أربعة قرون
لدينا باباً ندوءً فيه أعظم المواقع وأشهر الحوادث التي جرت
في أيامها ولا يبدأ من أن نبدأ بمجرد ذكر خلاصة عن أصل هذه الدولة وما
وفق إليها من الأعمال الجليلة دون سواها من الدول الأخرى.

أ - حاول العرب فتح القسططينية وذلك عرض الرومان والقضاء على
ممتلكاتهم بطأرداً كبيراً من حرص امبراطوريتهم ولم ينافذوا إلى قلبها
فيت ذات حول وقوة تكافحهم وتنازعهم البلاد ثم طمع مسلميقو
الاناضول في القسططينية ولذاهم التحرر فهاجموا الرومان من الشمال والشرق
والمغرب فنفظوا بهم فنكاً ذريعاً فلم يقدروا عليهم فلم يستطعوا مساومة
ال perso في أوروبا وحاصرت الأسبانيا من كل
الجهات وبعض حروب طويلة دامية دخلوها سنة 875هـ وسنة 1453م
واستولوا على مملكة الرومان في أوروبا وآسيا.
ب - أصلهم

كان وسط آسيا مهد القبائل التركية ومصدراً للأمم التي كانت تبدو صغيرة ثم تنتشر تزداد عظمتها كلما نأت عن بلدها الأصلية كحجر يلفق في بركة ماء فتسع دائرته كلما بعثت عن مركزها أو كصخر انحدر من علٍ فكلما طال في جريه زادت سرعته واشتد اخماره، أما الأتراك العثمانيون فهم من جيل النتر "القبيلة الطورانية" الذين سكنوا حدود الصين ثم زحفوا إلى تركستان فتجنباً الأكاسرة وهابوا صولتهم فلم فتح العرب إقليمهم احتك الأتراك بهم واقتسموا مدنهم ودانوا بالدين الإسلامي في القرن الحادي عشر وأشهر هذه القبائل السلاجقة الذين ينتمون إلى جدهم سلجوق والعثمانيون الذين ينتمون إلى السلطان عثمان الغازي وهو الحجر الأول في أساس دولتهم.

ج - تكوينهم

في سنة ٩٨٧ هـ وسنة ١٨٨٨ م بدأ نواة الدولة العثمانية تتكون في الأناضول على أصل الدولة السلاجقة ومازال يمتد جذورهم ويستقر فرعهم حتى تغلبوا على أخواصهم واحتزا الملك دونهم ومدوا ظلهم إلى البلقان وفيما عاصمة النمسا وامتلكوا العراق وسوريا ومصر وإيران وشمال البحر الأبيض ولم يقفوا عند هذا الحد كاأسلافهم السلاجقة أو الدول الإسلامية الأخرى بل تعدوا طورهم وضموا على العرب بالخلافة "السلطة الروحية" وتطوعوا إلى اغتصابها منهم. فإن العرب قبلهم همجًا وهذبهم وصقلهم وربوهم.
وعلمواهم الدين الإسلامي الحنيف وعرفوهم عبادة الله عوضاً عن عبادة الأصنام وليقوهم إصلاحات علمية وفنية فلم يع الأجانب لهم هذا الجميل وغلبهم على تلك المملكة الواسعة التي فتحوه بجهد ونشاطهم وروحهم الدينية وسلموهم أياها وهذا يشبه مباحث للرومان مع رابرة الألمان الذين ظهروا من أحراج أوروبا الشمالية فسقطوا على مدنهم وانتزعوها من أيديهم.

فاز الترك على العرب بيد أنهم سلكوا شريعة نبيهم ودخلوا في دينهم واقتبسوا تقاليدهم فأصبح الأتراك وهم الغالبون مغلوسين لارتباطهم باللغة العربية الدينية وزيارة البلاد العربية لأداء فريضة الحج فهذه العائقة المتبينة ربطت الأتراك بالعرب وأخضعتهم إليهم إلى أن قام الحزب الوطني في أنقرة وقرر أن تتلي خطب الجمعة في البلاد التركية بلغتهم فدفعوا بهذا الحكم لغة محمد.

(۷۰) نشوء الدولة العثمانية حتى فتحها فلسطين

مؤسس هذه الدولة أرطغرل بن سليمان شاه الكركماني سلطان بلاد ماها نقرب بلخ نفر من جنكيز وارتحل إلى بلاد الروم بعض قبائل الترك فلمما انتهى إلى الأناضول رأى جيشين يلمثمنان ويتجاربان فعلاً نشأ من الأرض حركاتهم العربية وما آتى من أحد الفريقين ضعفاً وخذلاً هب بفرسانه لنصرته وأعمل النهيف في الجيش المتصور فهزمه وبيّد جيشه وبعد أن اكتشف الغيار علم أن من انتظره كان الأمير علاء الدين سلطان قونية (۱) الذي شكره.

(*) إحدى الأدوات السلجوقية المتجرئة من مملكتهم بعد احتلالها.

۲۰۲٧
على نجده، وصبغة واقعه عدة مدن واتخذه ركنه وعماده في حربه وغاراته، وأغدق عليه النعم ومنح قبيلته لقب "مقدمة السلطان" ولما توفي أرطغرل خلفه ولده عثمان وأخذ لقب بك مسلى، أمير، لورد، فكونت، وأجز له ضرب النقود وأن يذكر اسمه في ختام الجمعة فخرج إلى قمة الرقي تدريجًا حتى قدم التحرر وقتلوا الملك غياث الدين السلجوقي فاتسع أنجال عثمان ولقب نفسه "بادشاه آل عثمان"، واتخذ مدينته بكشي هر عاصمة له، وخليفة ابنه أورخان فاستولى على جزء من أوروبا الجندية بمشورة ويزره لابن الدين بالا الذي جمع الباب من أسرى الحرب فرباهن ترقب أن يستهم أسلهم وجنبيتهم وباركمهم يخ طريقة البكشايشة المقيم في أماسيا وسماءهم (باتك جاري) "الجيش الجديد" فنحرف الاسم إلى أنشاشاري فكان هذا العمل من أكبر العوامل لثبيت دعائم هذه الدولة الفتية وقد سلك هذه الخطة فردريك الكبير ملك الألمان إذ نظم الجيش فرفع شأن بروسيا وأورد مالك أوروبا.

ارتقى جيش العثمانيين الجديد "باتك جاري" وزاد عدد فاخر قرب البلقان ومقدونيا وفتح الأستانة.

وفي عهد السلطان سليم تحالف ملك مصر قنوصو الغوري وشاع إيران إسماعيل واتفاقا على محاكمة العثمانيين فسار السلطان سليم بجيش إلى بلاد العجم وفتح بعض ولاياتها وأقاليمها ثم انتهى إلى محاكمة الملك الغوري فقتادف الجيشان في مرج دابق "قرب حلب" ولم يصبر المصريون على مدافع الأتراك وانهلزوا فقتل ملكهم وأسر الخليفة واستولى السلطان سليم على مدن
سورية ثم تقدم إلى فلسطين فالقى جيش طومان بِأَرَبِّيْلُ الْجُلُون فِحْمَل
عليهم بَيْجِش وردهم على آثقالهم واستولى على فلسطين وفتح مصر فقضى
على آخر ملوكها وضمها إلى ملكه في سنة 962 هـ وسنة 517 م وقَسَم
مصر إلى أقسام ادارية ووزع النفوذين الأمراء فكان كل منهم رقيباً على
الآخر وقف راجعاً إلى الأستانة مستحيباً محمد المتوكل آخر خلفاء بني العباسي
الذي تنزل للسلطان سليم عن الخلافة وسلمة الآثار النبوية البيرق والسيف
والبردة وأعطاه أيضاً مفاتيح الحرمين الشريفين فصارت الأستانة من ذلك
الوقت مقر الخلافة الإسلامية وأصبح كل سلطان عثماني خليفة لرسول الله
وأميرًا للمؤمنين فجمع السلطان سليم السلطتين الزمنية والروحية وحصراهما
في نفسه وفي أحفاده من بعده ولم يك عمله هذا حرصاً على الدين أو حماية
للإسلام وحسب ولكن أراد أن يستأصل منازعه ويوحد كلمة المسلمين
ويجعل هم امبراطورية عظمى.

السلطان سليمان وما بعده من الأحداث

إليك تعباً تاريخ هذا الخليفة لوجدناه مملوءاً بالأخلاق الجميلة والمأثر
الجليلة الحالية ولكننا نقتصر على ذكر ما يتعلق بفلسطين فمن مآثره فيها:
وأعماله الحميدة سور القدس الذي أنشأه سنة 1542 م وسنة 945 هـ
ولازم اسمه مُنقوشاً على صفحاته ومنها عمل باب قبة الصخرة الغربي وفتح
باب السيدة مريم وسد الباب الذهبي "شرقي الحرم" ومنها عماره بركة
السلطان الواقعة على طريق اغْطِيَة من باب الخليل وهو الذي نظم القرآن

- 209 -
فلقب بالقانوني وكان سلطاناً عظيماً واداريًا حازماً وبطلاً قديراً وصلت تركيا في أيامه إلى ذروة مجدها حتى أنه هدد المجر وستریا وملك سائر بلاد البلقان وأصبح البحر الأسود بحيرة تركية تحيط به الأقاليم العثمانية من كل جهاته ودخل في طاعته خير الدين باشا بارباروس فولاه قيادة الامساتول وأوقع الرعب في دول أوروبا البحرية. وفي عهده خرج حاكم سوريا وفلسطين جان بردي الغزالي فاستولى على قلعة دمشق وأعلن العصيان فأرسل إليه السلطان أحد قواده فرحات باشا وعاجله فاجعد تلك الفتنة وقطع رأس الغزالي.

وفي أواخر القرن السادس عشر فشي استعمال النبض في سورية ومصر وأقبل الجميع على تدخينه. وفي ذلك القرن استولى الأمراء المعنيين على نابلس وأطرافها وعينوا عليها ولاة من قبلهم وسار الأمير فخر الدين إلى نهر العوجاء وحارب بدو الساحل وبد جمعهم ولكن أهل بلاد حارقةٌ حاصروه في قلعة جنين وأخرجوه منها.

وفي هذا القرن عظم شأن الأناضولية وأستبدوا بالملوك فأخذوا يجعلون من شاءوا ويولون من أرادوا وفي سنة ١٧٦٤م عضى أمراء جبل نابلس الحكومة فاستنجد والى الشام عثمان باشا الكرجي بالأمير يوسف الشهابي فامده بجيش كثيف من أهالي لبنان وحاصروا عاصمتهم "قلعة صانور" فلم يستطيعوا فتحها فقال شاعر جرار:

(٣) ناحية مؤلفة من ٣٥ قرية تابعة إلى جنين

٢١١
العرب ودرعأ أجنون صايلين

وقال شاعر اللبنانيين

جيبا بلاد جدي ماوصلها
عربيستان يارب نصلهما

بجع البيت أو ما زاره صاحبها

خرجوا الأمير على بك المصري والشيخ ظاهر العمر

في أثناء الحرب الروسية العثمانية أرسلت روسيا استطولاً إلى البحر المتوسط وأثارت الشيخ ظاهر العمر وعلى بك المصري الملقب بشيخ البلد فخرج على الدولة وحشد على بك الجنود وأرسلها مع محمد بك المكنى "بابي الذهب" إلى الحجاز فاحتل جدة وطرد الشريف من مكة ودعى له على المنابر وضرب السكة باسمه. أما الشيخ ظاهر العمر فأن أصله من الحجاز جاء أجداده الزيادنة في الفتح الإسلامية الصلاحي وكانت اقطاعاتهم خمس قرى وهي: بيت أكما والبيت صموئيل والجيب وبيت نابلس وبيت حنينا فسكنوا في القرية الأولى ثم رحل جده زيدان ونزل في شفا عصرو فأكرمهه محافظ القلعة وظل يتقدم إلى أن تعين ولده عمر على عكا ثم خلفه ابنه ظاهر المشهور فاتفق مع المناولة حكام صور وبلاد بشارة وخالفة الدولة فسر إليه وعلي دمشق جنداً فاستصرف زميله على بك المصري وزين له الخروج على سورية والاستيلاء عليها فجهز إليه عشرة آلاف مقاتل مع القائد إسماعيل بك وأمره بطاعة

- ٢١١ -
الظهر فساروا إلى فلسطين وقابلهم أبناء الظهر في يافا باحتفاء وأتباعهم إلى عكا فحاول الظهر العمر أن يوجههم إلى طريق الحج لوقعوا بوا لي دمشق فألبوا وعاد بهم قادتهم إلى يافا فباشص على بك المصري عسكراً آخر بقيادة أبي الذهب وانضم إليه عسكر ظاهر فكانوا ستين الف مقاتل وحاربوا والي الشام فلم يثبت أمامهم وولى هارباً فاستولى أبو الذهب على دمشق واعترض على أن يملك بقية البلاد غير أن القائد الأول اسماعيل حول عزمه وأفسد اختلاسه فرجع إلى مصر موياً للدولة مفاجأً على بك ومزامه فغلبه على أمره واجه أن يفر إلى ظاهر العمر في عكا ومن هناك استنجد الأسطول الروسي فساعدته من البحر وامتلكا صور وصيدا وطردا الواحد درويش باشا(*). ..

ثم اتفقا على محاربة أبي الذهب ودلفا إلى مصر فقابلاهم قرب غزة وحاربهم فكسمهم وجرج على بك في وجهه وأخذ أميراً فلافطة أبو الذهب ولكنهم مات من جرحه. ولم رجع الظهر إلى عكا مخدولاً عفنا عن السلطان وولاه إبادة صيدا وعكا فلم يخلص نيته فخرج إلى أبي الذهب من مصر بعسكر كيف وخي رحمة وحاصر كريم بن ظاهر العمر في يافا ۲۰ يوماً ففتح المدينة عنوة ونهب أمورها وقتل من كان فيها وأقبل على عكا ففر ظاهر منه ملتهباً إلى غرب عنزة.

ولما مات أبو الذهب رجع الشيخ ظاهر إلى عكا واحتلها فسير إليه السلطان العثماني الأمير حسن باشا فهد ظاهرًا بالحرب إن لم يؤد ما عليه

(*) من أجداد آل رضوان في غزة الذين خدر منهم أكثر من عشرة باشاوات وصدر عظمة.
من الأموال فلما لفتت إلى طلب بل رده رداً قاسياً، فأصابته وضيق على المدينة وضطربها وأسره واحتز رأسه وأرسله إلى السلطان ومن آثار ظاهر العمر سور عكا وسرايا شفا عمرو وبعض مساجد وعماريات أخرى.

إذن من استقصي حوادث هذا المختصر وجد أن البلاد كانت مضطربة فتارة في حالة سلم وهدوء وطورها تبهج فيها نار الحرب والثورة وتكشر فيها الخوارج وما السبب إلا تنافر الأمة والحكومة إذا تفافهما ساد السكون وأمن الناس وإن ساء ظن الأمة بحكمتها احتمل الأمن وثارت الفتى ونشأ عن ذلك ما لا يحمد عقباه من سفك الدماء وقتل النفس البريئة.

كانت حكومة سورية في القرن الثامن عشر حكومة لامركزية أي إقطاعات أو حكومة أمراء ومشايخ يقوم كل منهم بحكم منطقته فكان مشايخ أبو غوش أو البراغية يحكمون بنى مالك وبنى حسن وبنى زيد وبنى مرة وبنى سالم، فإذا اختلف اثنان كان يتقاضيان عند الشيخ "العدلية" ويقبلون حكمه لامتحالة. ومن خالف عادات البلاد أو أخذ بقاليدهم يسجن في سجنهم وكان الشيخ أو الأمير يخبض الضروب ويقدم المطروح عليهم للوالى ويأخذ الزيادة وإذا حدثت فتنة أو خلاف من وقوعها كان يطلب الوالي المعاونة من أمراء مينتهنيه فيخرجون بأنفسهم ومن ورائهم رجالهم وفرسانهم. فالشيخ أو الأمير يحكم مقاطعته كما يحكم الأمير إيلائه وكثيراً ما كان يستبه هؤلاء المشايخ بالفلاحين ابتعاداً مرضاء الأمراء والولاة فأدى هذا النظام إلى انتشار الفوضى واختلاط الأمن وسبب للحكومة خسراً كبيراً في الأموال والرجال وقد
تنهت الحكومة هذه الأضرار الناجمة فعمدت إلى اضعاف قوة المشايخ والأمراء وأيقت الجزائر في عكا وأشارت إليه باباد منتدبين ونصر ولاتها المختلين لكنها لم توفق إلى انجاز هذا العمل إلا سنة 1877 م وسنة 1878م حيث ألقت الآمال ومناطق النفوذ وإدارات البلاد بموظفيها. وهذا الأسوب يشبه ما فعله لويس الحادي عشر في فرنسا فانه مازال بالأمراء والبلاء حتى قضى على سلطتهم وخلص من نفوذهم الذي كان حاجزاً بين الشعب.

(73) أحمد باشا الجزائر

هو رجل بشحاني الأصل من بلاد البوسنة كانت نفسه نزوعة إلى الأعمال الجليلة وتذليل الصاعب فبعثت به الحكومة إلى مصر ليستأصل شوكة المماليك الذين كانوا شبحاً في حلقها فاتبع سياسة البقاء بذور الفساد والفتن بين المشايخ والأمراء وفاز ب любимه وكان طائش السيف ظالمًا بطاشا استحل المويقات ووقع في النفس فسكن عليه عامة الشعب والحكام فقرر ملتحداً إلى الأمير يوسف الشهابي ليتبع أمراء سوريا بمماليك مصر.

وفي سنة 1770م أنيطت به المحافظة على مدينة بيروت ففحصها ومعن أهل الجبل من دخورها وأزعج على العصيان فقطن لذلك الأمير يوسف وباغته وهم أن يبطش به قبالي الجزائر بالخضوع والطاعة واستمته 40 يوم ثم جاهر بالانفجار فغلب على أمره ولم يفلح. وحدثه بينه وبين عين بن ظاهر العمر وقات جذل فيها على وفرض من البلاد فبطل وزالت إمارة أهله واستحوز الجزائر على ما كانوا يملكون من المقاطعات وأخذ عكا عاصمة له.
ويبي عليها سورة ثانيةً وجامعةً كبيرةً هو خير حسناته وآثاراته.

وما في الجزر يقتل ويديج ويثير بعض المشايخ على بعض حتى أصبح من أكبر ولاة وأبطال سورية قردة ثقته الدولة بها واعتمدت عليه في تنفاذ غاياتها وتكثر واراداتها فازداد بئسه وصنع وتدا "جازوقًا" كأن يجلس عليه من خالقه لأعانه فأهره الناس وأخاف أهل البلاد لأنه كان لا يثبت على حال مع صديق أو عدو فين نرآه اليوم يحسن إلى رجل ويعطف عليه إذا به غداً قد أصبح فريسة له فيه وهدياً لسهام انتقامه. فيروى أنه ذلك لأداء فريضة الحج بلغه ما جعله يرتاب في أهل بيته فلمما رجع شواه فت النار ومات الجزر سنة ١٨٠٤ م بعد أن بلغ من العمر ٨٤ حجة ودفن في عكا في الجامع الذي بناه.

مر على فلسطين قرنان ونصف وهي نائمة لم يحدث فيها شيء سري ما انتابها من الحوادث الداخلية البسيطة فأغفلها التاريخ واجابURES في أخبار غيرها ويهيات أن تكون فلسطين الصغيرة عضوا في جسم ملكة واسعة الحدود ولها نصيب في صفقات التاريخ لاسيما إذا خلت من الحروب أو الانتقادات السياسية وتناولت من الهياطات الأدبية كظهور نوافذ وعظما في العلم والشعر والأدب.

***

٢١٠٥
الفصل الرابع عشر

فلسطين في القرن التاسع عشر

(74) بونابرت في فلسطين

ظلت فلسطين منذ فجر التاريخ والأرباح الآسيوية تقف إلى أنها أمواج القبائل المتلاطمة غير أن تلك الحريت تبدلت وهب عليها من الغرب ريح عاصفة فرماها بالاسكندر وبومي وغودفري وقلب الأسد ونابليون بونابرت أكبر القواد وأشهر نواب الحروب الذي ترقى من ضابط بسيط إلى قائد "جبران" ومبراطور عظيم فحارب إيطاليا والنمسا وروسيا وأسبانيا وزنل عروض ملوكةهم واستولى على كثير من بلادهم ومالكهم ولم يبق أمام دولة فرنسا إلا انكلترا التي ظلت تنابضها العداء وتحرك عليها الدول فأثارت غضب الفرنسيين وأخذوا يفكرون بالقضاء عليها فلم ت كنت بارقة أجل إلى نابليون وخطر له أن يبن حكومة شرقية زاحم بها انكلترا فكم ما في نفسه وطلب لزملائه أن يجهزوا له جيشا ليحتل بصرى مجرى تفس الانكليز ويسب عليهم طريق الهند ويجز ناصيثهم فجعلوا له جيشاً وأسطولاً واستصحب معه 126 رجلاً من الخصائص في جميع العلوم لدرس القطر المصري وتسيل خلسة وهبط مصر فأخذوا ونظم إدارتها فاستنشأ الانكليز غضباً وشجعوا الدولة العثمانية على ممارسة الفرسايين واسترجاع مصر ووعدوهم بالمباصرة فأمر العثمانيون الجزائر والي عكا بأن يتقدم إلى مصر فذهب وامتلك العريش فاغتاظ نابليون
من ذلك وجاء بعد حملة لفتح بها فلسطين وسوريا وبقية عُلّى الهند.
فاسترتفع بعضًا من علماء الدين الإسلام ليستعين بمركبه الدينى على تنفيذ
مآربه السياسية وفي سنة 1999 م سار الجنرال كليبر Kleber قاد قيصر جيش
 مقابل قائد جيش الجزائر قاسم بك عارض العرش وحارب وشست جمعه وأخذ
ذخائره وحزة نابلن بائى عشر ألف مقاتل فاحت عرش وأمّن أهله ثم
سار إلى غزء(1) مفتاح فلسطين الجنوبي ف وسلمها بلا حرب وانى بعد ذلك إلى
الحملة(2) فأرسل فرقة من جيشه لمحاصرة يافا الغاصية بحدود الجزار المؤلفين من
عرب وأتراك ومغارة وأردنوتو وأكراد وجركس فحاصرها المدينة مدة ثم
فتحها فانسحبت الحامية إلى بعض الحانات وأبواء التسليم قبل أن يؤمنهم عُلّى
حياتهم فاجابتهم إلَى طلبهم القائد الفرنسي فاستمأّ من اله رأبى شخّص
فساقهم إلى العسكر ولا رأهم نابلن سأل قايمه عن هذه الجموع المعتددة
فأخبره أنها حامية المدينة التي سلمت إليه أماناً وقبلهم حظًا للدماء فبنت
وحار في أمره وقال ماذا تريدون أن أفعل بهذا الساعدين? أعددكم زاد يكفيهم
الكم مراكب تنقلهم لمصر أو فرنسا؟ ومن يطول خدارتهم إذا أرسلناهم؟ يجب
أن تعطوا الألما إلى الأطفال والنساء والشيوخ لئلا للرجال الأشداء المقاتلين ثم
استشنار ضباطه في قتلهم فخافوه ولكن أسر عُلّى رأيه وأمر بهم قتلاً رميًا
بالرصاص في 10 آذار سنة 1799 م.

(1) ومكث مدة في بناء عل رضوان "عُلّى الدرك" اليوم.
(2) كان مركز أركان حربه دير اللاتين وقد دخلت غرفته لوقدنها بسيطة.
وأمر بقتل مرضى جنده وجرحاه ولم يوار سوائتهم ولم يعرى أن هذا
من أفتح القتلى التي تسبيها همجمة الأشوريين وتساويهم مع أسرىهم وذكرينا
بربرية جنكيز خان وهولاكو وتيمورلق واتيلا الذين كتبوا تاريخهم بمداد أحق
وسرد له حجة قاطعة تبيح له قتلهم ليتخلص من مؤونتهم أو لأنة أسر
بعضهم في غزاة والعرش وأطلق لهم بشرط أن لا يحاربون ثانية فإن كل هذه
الأعدار لا تبر علما.

1 - لأنها عاش في القرن التاسع عشر عصر المدنية كما يقال لا في أيام
الهمجية.

2 - ولأنها جاء من فرنسا مهد المدنية وأم الحرية ذات العواطف البشرية
الرقيقة.

3 - ولأنها ظهر في الثورة الفرنسية وكان غصناً من دوحة دعاتها الذين
كان شعارهم الحرية والمساواة والعدالة والأخوة.

ولكن ليس من السهل أن نفصى في الحكم علّى نابليون فقط
فأنا لم وضعنا في مركزه لودندرورف وجوفر وفوش والنبي ولم يحددا من
يسوق الأسرى إلى مصر ولم يكن لديهم طعام بكفيهم جوزوا لأنفسهم قتلهم
واعدامهم وما قتل 4000 شخص في حكم الطبيعة إلا كجمل دب علّى
سرب غل فداسة وحظمه وأبابه.

٢١٩-
عجب رجال الدين من نابلس كيف أهل القدس ولم يبال بها مع أنها البلد التي يجلها المسلمون والمسيحيون وغاب عنهم أن نابلس ما كان ينظر إليها إلا من الوجهة العسكرية ولذلك لم يجوز لنفسه أن يركب جيشه الأهوال قبل أن يمهد السبيل ويقضي غلَّى الجزار عدوه العين فطلب من حامية القدس تسليمه فأجابته بأن مدينة القدس تابعة لعكا فمثلي فتحتها تسليم إليك فتركهم وشأنهم وانصرف خصار عكا عاصمة فلسطين وحصنها المنيع وبعث بحراً إلى أهلها مصر نرويه بالحرف الواحد كما ذكره زيدان ونلتقي أنظار القارئ إلى أسلوب بونابرت الذي اتخذه لاراضى المصريين والمسلمين وهيئات أن ينجح ساسة العرب بتملهم بعد أن أدرك الشرقيون نباتهم ومقاصلهم.

(75) منشور نابلس

بسم الله الرحمن الرحيم مصباح مالك الملك يفعل في ملكه ما يريد هذه صورة تملك الله سبحانه وتعالى جهور الفرنسيين لبدار يافا من الأقطار الشمالية.

عرف أهل مصر وأقالبها أن العساكر الفرنساوية انقلوا من غزوة ثالث وعشرين شهر رمضان ووصلوا الرملة في 45 منه في أمين واطمئن وشاهدوا عسكر أحمد باشا الجزار هاربين بسرعة قاَلِين القَرْنِار.

(6) تأريخ مصر الحديث.
وجدوا في الرملة ومدينة اللد مقدارًا كبارًا من خزان البقسماط "الكعك" والشعير ووجدوا أيضًا 1500 قرية مجهزة جهزة الجزء ليستر بها إلى أقليم مصر مسكن الفقراء والمساكين ومراده التوجه إليها مع العربة الأشرار من سفح الجبل ولكن تقدير الله نفد المكر والخيل وما كان قصده سوى سفك الدماء مثل عادته في أهل الشام وناهيكم ما هو مشهور عنه من التجبر والظلم والجحور فإن تربية الممالك الظلمة المصريين وفتاة أن الأمر الله وكل شيء بقضاءه
وتديره.

وفي السادس والعشرين حلت طلائع الفرنسيين بسدر يافا من الأراضي الشامية وأحاطوا بها وحصروها من الجهة الشرقية والغربية وأرسلوا إلى حاكمها وكيل الجزائر أن يسلمهم القلعة قبل أن يحل بهم وبعسكرهم الدمار لكنه لم يعقله وفساد رأبه وسوء تديره لم يبرد. وفي ذلك اليوم أي 26 من شهر رمضان تكامل الجيش الفرنسياوي على محاصرة يافا وانقسم ثلاث فرق توجهت فرقة منهن على طريق عكا على مسافة أربع ساعات من يافا وفي سبعة وعشرين منه أمر حضرته ساري عسكر الكبير بخفر خندق حول السور لعمل مثاريس مهينة واستحكامات حقيقة إذ عرف أن سور يافا مالان بالمدافع الكثيرة ومشحون بمساكر الجزوار الوفرة.

وفي 29 منه ناهز حفر الخندق النهاية وصار على مسافة 1500 خطوة من السور فأمر ساري عسكر أن ننصب المدافع على المثاريس وأن توضع أهوار القنابر بأحكام وأمر بنصب مدافع أخرى بجانب البحر لمنع
الصلة بين عسكر البر والراكب التي أغدها عسكر الجزائر في المينا للهزيمة والفرار ولما رأى عسكر الجزائر المحاصر في القلعة أن عديد الفرنسيين قليل أغرهم الطمع فخرجوا إليه من القلعة مسرين ظنًا منهم أنهم يتغلبون على الفرنسيين فهجم عليهم الفرنسيين وقتلوا منهم كثيرين وأجبروه على الدخول إلى القلعة ثانية وفي يوم الخميس غاية شهر رمضان اشتفق حضرة ساري عسكر وخف علّى أهل يافا إذا دخلت عساكره بالقهر والقوّة أرسل إليهم مع رسول خطابًا هذا مضمونه:

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له بسم الله الرحمن الرحيم

من حضرة ساري عسكر برتبة كتخدا العسکر الفرنسي إلى حضرة حاكم يافا خبركم أن حضرة ساري عسكر الكبير بونابرتة أمرا أن يفركم في هذا الكتاب أن سبب جيء إلى هذا الطرف هو إخراج عسكر الجزائر فقط من هذا البلد لأنه تعدى بارسل عسكره إلى العريش ومرابطته فيها والحال أنها اقليم مصر التي أنعم الله بها علينا فلا تكون له الإقامة بالعريش لأنها ليست من أرضه فقد تعدى على ملك غيره.

ونعرفكم يا أهل يافا أننا حصننا بلهدكم من جميع أطرافه وجهاته وضيقنا عليه بآلات الحرب والحصار والدفاع الكبيرة والكحل والقنابر وفي برهة ساعتين يخرب سوركم ويبطل آلات حربكم ويخبركم أن حضرة ساري عسكر لمزيد رحمته وحنوه خلف عليكم من سطوة عساكره الخارجين فانهم إذا دخلوا عليكم بالقوة والقهر أهلكوكم جميعًا ولذلك أمرنا أن نرسل
اليكم هذا الخطاب تأميناً لأهل البلد ولا سيما الضعفاء والفقراء والغرباء وأن نؤخر ضرب المدافع وإطلاق القنابل ساعة واحدة وأنه لكم لمن الناصحين.

وهذا آخر خطاب بينا.

فجعلوا جواباً حسب الرسول مخالفين بذلك الشريعة المطهرة

المحمدية والقوانين الحربية فتميز ساري عسكر من الفيض وههج وآشتد غضبه وأمر بإطلاق المدافع والقنابل ولم يمض إلا اليسير حتى خرسست مدافع يافاً

واقلب عسكر الجزاز في بياك وخسران وعند الظهر انخرق سور المدينة

وأراجع له القوم ونقيب من الجهة التي ضربت منها المدافع ولا مرد لقضاء الله

ولا مدافع في الحال أمر حضرارة ساري عسكر بلفهموف وفي أقل من ساعة

ملكت المساكر الفرنساوية البندر والأبراج ودار السيف في الخمارين وهمي

الوطيس وكثر القتال. وفي يوم الجمعة غرة شوال وقعت الصفح الجميل من

حضرارة ساري عسكر الكبر ورق قلبه لا سيما علّى من كان في يافا من أهل

مصر فأطاعهم الأمن وأمرهم بالعودة إلى الأوطان وكذلك أمر أهل دمشق

وحلب بالرجوع إلى بلادهم ليعرفوا مقدار رجائه ومزيد رفته وقيل في هذه

الوقعة أكثر من أربعة آلاف من عسكر الجزاز بالسيف أما الفرنساويين فلم

يقتل منهم إلا القليل وسبب ذلك أن سلوكهم إلى القلعة كان في طريق أمنية

خافية عن العيون وأخذوا ذخائر كثيرة وأموالًا غزيرة واستولوا على المراكب

التي في الميناء ووجدوا في القلعة نيفاً وثمانين مركباً وقد قاتل الجزاز وعساكره

أن آلات الحرب لاندفع مقدار الله فاستقموا عباد الله وارضوا بقضاء الله

ولا تعرضوا على أحكام الله وعليكم ينوى الله وأعلموا أن الملك الله يئبه

- ٢٥٣ -
من بشاء والسلام عليكم ورحمة الله.

وبعد أن أمّي بونابرت أعماله وخططه الحربية سار إلى عكا فوصلها في 21 آذار وحصرها خمسين يوماً وكان الجزاز يتعهد الدفاع البرئ والأميرال الانكليزي سدنى سيستيجي الدفع البحرى فلم يستفد الفرساون شيناً لأن الجند العثمانيه كانت تقد بكثرة على الجزاز حتى غصت بهم عكا واستمتنوا في الدفاع بعد أن سمعوا ما فعله الفرساون بحامية يافا فخاب أمل نابلبون وبسبب أن يستميل إليه الأمير بشير الشهابى أو يؤلف جيشاً من الدروز فلم يظهر موالاة أحد لأنهم كانوا يخافون ببطش الجزاز وشدته.

وفي أثناء حصار عكا أرسل نابلبون فرقاً إلى الناصرة وصفد وامتلكها وحدث معركة بين الفرنسيين وجنود الأتراك حول جبل طابور "الطور" فشهد نابلبون المعركة بنفسه مع كليلر وهزم العثمانيين هزيمة منكرة.

ذكر المطران الدبس أنه أيّى قوم من المناولة إلى نابلبون فولاهم قسمًا من هذه البلاد وفولى الشيخ صالح بن ظاهر العمر مدينة صفد ولكن ثبات الجزاز وعنداعه وشجاعته الفائقة غرست الحبيبة في نفس نابلبون فقذف آخر سهم من كلاهما وجمع جنوده وخطب فيهم خارج أسوار عكا كما خطب فيهم تحت ظل الأهرام وعلى ثلوج جبال الألب فقال:

"هذه المدينة هي مفتاح الشرق فاعلموا حرج مركزكم ووطدوا عزائمكم على اعتلاكها لأن باعتلاكها تسلمون لدولكم مفتاح الشرق فدخل.

-274-
القسطنطينية عاصمة قيصرة الروم، وفلاح شرقي أوروبا، وشمالها فاعلها ذلك، ولكن "نواحيم" فاحتهم وشناطهم، وهجموا مستمرين، فاقتتحوا الخندق، وثغروا الأسوار، وهزمو الحامية، ودخلوا البلدان حتى بلغوا سبيل الجامع الكبير، وانتزعوا طاعة من طاساته، وهي (بوجودة في متحف باريس) فظهر الجزار نفسه، وآخذ يرسم جنوده على النبات وكان يفتك بكل من يعده إلى الفرار، فاستسلموا، وكافحوا نابليون وجنده، وردوهم خانين بعد ما نمع ضم النجاح، وقادوا يذرون بسماهم، وفي 33 آب سنة 1799 فك نابليون الحصار عن عكا ونقل راجعاً إلى مصر، بعد أن اعتقد إلى جيشه بأنه فهو العدو عند جبل طابور، وشلت نابليون وأخذ كل مدافعهم ومؤونتهم ولا يرى من ضرورة لاطالة البقاء في سورية فعاد خانياً مخذاً، وقد فتك الأمراض والطاعون ببعضه المجلوب وطبق العربان، وبعض الأهالي يتخطفونهم، ويطردونهم ويلقؤون وقد أظه نابليون من الشفقة والعطف، ما جعلنا نذكر له تلك الشعيمة السامية، فأنه أركب بعض جنوده حصاد الحاص ومسى على قدميه، وقد وصل مصر ولم يكت به طريلاً، وبرحها إلى فرنسا، وترك القائد الكبير، وكيلاً عنه فطلت الجنود الفرنسية تفك، وتفر حتى أوائل سنة 1801، وجلت عن البلاد.
(77) ثور نابلي

كانت مناطق فلسطين الإدارية منذ إنشاء القرن الثامن عشر كما يأتي:

- ٢٥٠ -
القدس والملحقاتها تابعة لأيالة عكا، ونابلس وبلادها ملحقة بالشام. فاتفق أن فرض على الشام ضريبة جسيمة على أهل نابلس فرضا، دفعها بجرأة وقوة فلما بابه الولاي فسهم بشرع في تحصيل الأموال غصبًا. قتار أهالي جبل نابلس سنة 1829 هـ وقاموا سلطة الولاي وامتنعوا عن دفع الأموال فطلت الدولة إلى والي عكا عبد الله باشا أن يمد وعاليها فصدع بالأمر ولقي النابلسيين شمل فلسطين مستعدين وقد خصصوا في قلعة صفد فحار بهم عبد الله باشا وعُجز عن اختصاصهم فاستنجد بالأمير بشير الشهابي اللبنانى فاتى برجاله وانضم إليه وحاربو النابلسيين وردواهم على أعماقهم فاعتصموا بقلعة صانور الواقعة بين جنين ونابلس وحاصروا عبد الله باشا ويضيق عليهم فكانت النساء تغمر اللحاف بالزيت وتتشعل وتقدف بها ليالٍ خارج السور كي يبصر رجاعن العدو ويرمونه بالرصاص.

وفي أثناء ذلك هجمت طائفة من عرب الصقر على عسكر عبد الله باشا لتمنعهم الاستقاء فطار دهم الأمير بشير وهزهم إلى قرية عجة شالي صانور وأحراق كثيرًا من القرى وأخرا ضعف الخصوصون وذاقوا من العناك والتعب ما زدهم في القتال فسلموا. وليس من المعقول أن شرذمة غير منتظمة ولا مدربة تقدر أن تعصى وتتجاوز ولاية عكا التي كانت تدمها وتساعدها الدولة العلوية بكل قوتها ولا غرو فان قسمًا كبيرًا من أهالي البلاد انضم إلى عبد الله باشا وحارب رؤساء الثورة أسرة جرار الذين لم يكن معهم سوى حزبهم وحسب. ولم يرح عبد باشا البلدة حتى خرب القلعة وقسمًا كبيرًا من السور ليأمن ويطمن أن إذا حدثت ثورة أخرى لا يجد النوار حصنًا.
القسطنطينية عاصمة قيصرة الروم، وذلك شرق أوروبا وشمالها، فاعلما ذلك واخلصوا نياتكم، فأغلب حاصمهم ونشاطهم وهجومهم مستمرين، فاقتتحموا الخندق وثغروا الأسوار وهزموا الحامية ودخلوا البلدة حتى بلغوا سبيل الجامع الكبير وانتزعوا طاسة من طاساته وهي موجودة في متحف باريس، فظهر الجزئ بنفسه وأخذ يعرض جنوده على النبات، وكان يفتقر بكل من يعذب إلى الفرار فاستسلموا وكافحوا نابلسون وجنده وردوهم خائفين بعد ما لمع لهم النجاح وكانوا يظفرون بحمتهم، وفي 31 فيbruary سنة 1799 فتك نابلسون الحصار عن عكا وقتل راجعا إلى مصر، بعد أن اعتذر إلى جيشه بأنه قهر العدو عند جبل طابور وشت شمل الأتراك وأخذ كل مدافعهم ومؤونتهم ولا يرى من ضرورة لاطالة البقاء في سوريا فعاد خائباً حتى وقد فتك الأموار والطاعون ببعضه المغلوب وطفق العربان وبعض الأهلاني يتختفونهم ويطاردونهم ويقلبون وقد أظهر نابلسون من الشفقة والعطف ما جعلنا نذكر له تلك الشيمة السامية فانه أركب بعض جنوده حصانه الخاص ومشي على قدميه. وقد وصل مصر ولم يعذب به طويلًا، وبرجها إلى فرنسا وترك القائد كلاير وكيلًا عنه ففلت الجنود الفرنسية تكر وترف حتى أوائل سنة 1801م وجلت عن البلاد.

(77) ثور نابلس

كانت مناطق فلسطين الإدارية منذ إبتداء القرن التاسع عشر كما يأتي:
القدس ومملحاتها تابعة لياجالة عكا، ونابلس وبلادها ملحقة بالشتام
فاتفج أن فرض وادي الشام ضربة جسيمة على أهل نابلس فرفضوا دفعها بجرأة
وقوة فلهم يشبه اللى لهم بل شرع في تقصيل الأموال غصباً
فثار أهالي جبل نابلس سنة 1879 ه وقاموا سلطة اللى وامتعموا عن دفع
الأموال فطلبت الدولة إلى ولي عكا عبد الله باشا أن يمد وليها فصدع بالأمر
ولقي النابلسيين شمل في معتدين وقد تحصوا في قلعة صفد فحاربهم
عبد الله باشا وعجز عن اخضاعهم فاستنجد بالأمير بشير الشهابي اللبناني
فأتي بركه وانضم إليه وحارباً النابلسيين وردوهم على أعقابهم فاعتصموا
بقلعة صانور الواقعة بين جنين ونابلس وحاصرهم عبد الله باشا وضيق عليهم
فكان النساء تغمر اللحفي بالزيت وتشعلها وتذوف بها ليلة خارج السور
كى يصر رجاف العدو ويرمونه بالرصاص.

وفي أثناء ذلك هجمت طائفة من عرب الصقر على عسكر عبد الله
باشا لتميعهم الاستفقاء فطاردهم الأمير بشير وهزهم إلى قرية عجة شمال
صانور وأحرق كثيراً من القرى وأخيراً ضعف المحرمين وذاقوا من العناء
والتعب ما زدهم في القتال فسلموا. وليس من المعقول أن شرذمة قليلة غير
منظمة ولا مدرية تقدر أن تعصى وتقام ولاية عكا التي كانت تمدها
وتساعدها الدولة العثرة بكل قوتها ولا غرو فإن قسمًا كبيرًا من أهالي البلاد
انضم إلى عبد الله باشا وحارب رؤساء الثورة أسرة جرار الذين لم يكن معهم
 سوى حزبهم وحسب. ولم يرح عبد باشا البلدة حتى خرب القلعة وقسماً
كبرًا من السور ليأمن ويطمئن أنه إذا حدثت ثورة أخرى لا يجد العدو حصناً

-276-
واتفقوا على معاركته ومقارعته فنكت جماعة منهم مالوا مع إبراهيم باشا فساعدوه ودلوه على الطريق واليا فعمال المخالفين قبل أن ينظموا حركتهم وفتح طول كرم ثم نابلس وعطف على القدس فاحتلها وقد تهافت الأهالي على قتاله من كل جانب فهاجمهم وكرس جمهور القبائل الشمالية عند شعفاط ولكن أهل الخليل هزموه عند برك سليمان وحضور في القدس فاستعاد نشاطه وقراههم ثانية فظهر بهم ودروت البلاد وقفل من قبل وبنق من شنق وتزلف اليه البعض وهب السكان فأصبحوا خاضعين لدولته وأورامه يقدمون الجنود ويدعون الضرائب بلا مانعة فين فشل باب الخليل واقتذ القدس له عاصمة ومكث يحكم في البلاد 10 سنوات وفي سنة 1840 م سنة 56 ه خذلت فرنسا وضعت عليه دول التحالف فاضطرته للتخلى عن جميع فتوحاته وسمحت له بمصر ولاية ممتازة يتعاقب عليها نسله من بعده بشرط أن تظل خاضعة للسالسة قبل مكرها وتقدم أحفاده إلى أن صاروا ملوكاً.

(80) حرب القرم

طارت شرارة من فلسطين فأتذكى حرماً ضروراً بين الدول الكبرى وسلمت هي منها كقنبلة انبعثت من فوهة مدفع فلم تضرره وانفجرت في شرق أوروبا وقيقاسية فخربتهما. وأسباب هذه الحرب كثيرة منها التنافس المستمر بين قنس الأرثوذكس واللاتين وتساقيهم إلى حيزة الأماكن المقدسة في فلسطين ومن خلفهم روسيا تؤيد الأرثوذكس وفرنسا تعارض اللاتين لا لشفقة إنسانية أو عاطفة دينية ولكن لبسط نفوذهما في الشرق ولتدخلي
شَنُونَ الدِّولةِ العُثمَانيَّةِ فَرَجَحتُ كَفَّةً فِرْنسَا سَنَةَ 1740م وَفَازَتُ بِعَقدَ مَعاهِدَةٍ مَعَ الدِّولةِ العُثمَانيَّةِ نَصْتَ عَلَى أنْ فِرْنسَا الحِجَّةُ بِحَمَامِيَّةَ مُسْلِمِيَّ الشَّرَقِ فَاشْتَدَّ أُزَرُ الكَاثُولِيكِ وَأُسْرُوا عَلَى الْكَنَائِسِ وَتَصِرُّفُوا بِهَا تَصْرِيفُ المَالَكِ المستقِلِ فِي اسْتِياءِ الأْرْثوذْكَسِ وَغَضَبَت حَامِيُّهمُ رُوسِيَّةُ وَأَخْذَت تَسْعَى بِشَبَاطِ لِإِلْغَاءِ هَذِهِ المَعاهِدَةِ مَعْهَقْ هَذِهِ النَّفُوذِ. فَلَمَا شَغَلَت فِرْنسَا بِحُروِبِ الثُّورةِ الأَهْلِيَّةِ دفَعَت رُوسِيَّةُ قَسْسٌ الأُرْثوذْكَسِ وَكَهْنَتْهُمْ إِلَى الْتَحْرِيرِ بِالْكَاثُولِيكِ فَتَعَدُّوا عَلَى حُقُوقِهِمْ وَسُلِبُوهُمْ إِيَّاها فَتَمَتْ فِرْنسَا وَصَرَّت كَارِهَةً إِلَى أَنْ تَعَيِّنَ نَابِلِيَّنَهَا ثَالِثًا وَفَوْضُ الدِّولةِ العُثمَانيَّةِ وَكَاشفِها بَرَدُ حُقُوق أُهُل مَلَكِهِ المَغِبَوَّةِ فَأَفْلَحُ الْبَابِ العَالِيُّ جُنَّةً مِنْ أَشَخَاصِ مَخْلَقِيِّ الْمَذَبِّ وَأَنَاَتُهُمْ فِي هَذِهِ الْخَلافَ بِفَقْلِ مَعاهِدَاتِ الدِّولةِ الْقَدِيمَةِ فَاجْتُمعَ الأَعْضَاءِ وَتَذَكَّرَا مَرَاتٌ ثُمَّ قَرَّوا فِي عَرَبِ الْثَّانِيِّ سَنَةَ 1268هـ وَ4 شَبَطِ سَنَةَ 1853م أَنْ لِلْكَاثُولِيكِ الحَقِّ فِي اسْتِياءِ بَعضِ الْأَمَارِيْنَ الْمُقَدَّسَةِ دُونَ غَيْرِهِمْ فُعَارَضَتِ رُوسِيَّةُ وَحَالَتْ دون انْفَذُوهُ هَذِهِ الْعَالِقَةِ وَهَدَّدت الْبَابِ العَالِيَ بِالْحَرْبِ إِذَا هُوَ لَمْ يَبْدِ عَنْ رَأِيَّهُ. وَأَصَرَّت فِرْنسَا عَلَى النَّمْسَكِ بِحُقُوقِهِمْ فَرَدَّتهُ الدِّولةُ حَيْثُ ثُمَّ جُزِّمَت وَنْفَذَت مَضْمُونُ قَرَارِ اللَّجْنَةِ الأَخْرَى. فَاتَّخَذَت رُوسِيَّةُ هَذِهِ الْعَمَلِ ذَرِيعَةً لِتَنْطِيق وَصِيَّةَ بَطْرُ الأَكْبرِ "الْإِسْتِبْلِاءَ عَلَى آسِتَانِبُلَ وَالْمَضْلِيِّف" وَأَرْسَلَت الْبِرْنِسُ مِشْيِكِكُ فِي نَفْرَا غَيْرِ اسْتِبْرَاعِ إِلَى الأَسْتِانِبُلِ لِيَخَابِرِ المَأْمَانِ فِي شَأْنِ الأَمَارِيْنَ الْمُقَدَّسَةِ فَذَهَبَ وَبَاشَرَ مَنْأَءُهَا السِّيَاسِيَّةَ وَبَلَّى بِالْحَاجِّ شَيْدِدٍ اِسْتِحْزَامُ مَعاهِدَةٍ صَوْنِكِ الْقَاضِيَةِ بِأَنْ يُؤْنِكِ رُوسِيَّةُ الْحَقَّ بِحَمَامِيَّةِ جَمِيعِ المُسْلِمِينَ مِنْ رُعَيَاةِ الدِّولَةِ العُثمَانيَّةِ فَماَظِلُ الْبَابِ العَالِيُّ ثُمَّ خَاهِشَهُ فُجْعَ عَلَاقَتِهِ مِنْ حُكْوَمَةِ الأَسْتِانِبُلِ
وهددها باحتلال أمارات الإفلاض والبغدان "رومانيا" فتوتنت السياسة وتخزبت انكلترا لفرنسا وعضدت الدولة العثمانية فأعلنت روسيا الحرب واجتاز عساكرها نهر البووث واحتلت الولايات فعلاً فحشدت الدولة العثمانية جنودها وجمعت جمعاً كبيراً من البلاد العربية (2)، وبعثت بهم إلى حدود روسيا واشترك معهم جنود الإنكلز والفرنسيين واحتدم القتال فنان الفريقان مابين الحربي ولكن روسيا خذلت وتركت حصولها ومعاقلها.

وفي سنة 1324 هـ وسنة 1906م اختلفت الحكومة العثمانية والدولة الإنكليزية على تعيين حدود مصر وفلسطين ثم اتفقتا على أن يختار كل منهما لجنة تنوب عنها في فض الحلفاء فاجتمع الأعضاء وخططوا الأرض وضطرو الحدود وأصلحوا ذات الين.

(81) نقود ومزايا ومكاييل فلسطين ماعرفنا حكومة كانت معرضة تجارياً لسلع وبيضائع دول أوروبا مثل البلاد العثمانية فإنها كانت مقيدة بسلسال الامتيازات الأجنبية مغلولة بأغلاف المذاهب الدينية حتى لعبت بها الأهواء وطروحتها المنازع وقذفت بها من عل إلى درك الاستعمار. ومن الدلائل الواضحة على فوضى الحكومة العثمانية واستعمار أوروبا الاقتصادي لها أنها كانت عاجزة عن نشر نقودها في مملكتها

(3) كان أهل المدينة أو القرية يذهبون بعيداً وراء الجند المجهدة فردونهم بالبكاء والنهب وحينما يعودون من غيبتهم يعملون للفقراء والولائم والمحجيات.
ضيقة عن توحيدها وترويجها بسعة التنويع فلذا أخذ يتداولها كل بلد كما يريد وتفاوتت الأسعار وتعددت النقود وتباينت الموازين واختلفت المكاسب وهذا جدول يدلنا على أسعار التقنين لليرة الأوروبية والريال المجري "التركي" في أسواق فلسطين.

<table>
<thead>
<tr>
<th>المدينة</th>
<th>الليرة الأوروبية &quot;الجرين&quot;</th>
<th>الريال العثماني &quot;المجري&quot;</th>
<th>البشلة</th>
</tr>
</thead>
<tbody>
<tr>
<td>القدس</td>
<td>109</td>
<td>3</td>
<td>23</td>
</tr>
<tr>
<td>نابلس</td>
<td>118</td>
<td>25</td>
<td>132</td>
</tr>
<tr>
<td>يافا</td>
<td>124</td>
<td>26</td>
<td>272</td>
</tr>
<tr>
<td>غزة</td>
<td>247</td>
<td>47</td>
<td>108</td>
</tr>
<tr>
<td>لواء عكا</td>
<td>130</td>
<td>3</td>
<td>37</td>
</tr>
<tr>
<td>الناصرة</td>
<td>122</td>
<td>22</td>
<td>108</td>
</tr>
</tbody>
</table>

وزد على ذلك أنه كان في بعض القرى أسعار خصوصية للنقود غير داخلة في ما ذكرناه مما يدل على أن الحكومة في وادي النامس في آخر لا يتأثرون بآراء ولايسرون سيرها حتى أن الليرة الأوروبية راجت أكثر من الليرة العثمانية فكان إذا باع أحد دابته أو ساوم على سلعته بليرات انصرف الذهن إلى الليرات الأوروبية ومن أراد غيرها لزم عليه التعليم وحسينا شاهداً الملك الأسود وما أحدثه من الشخب في القدس فإن بعض التجار امتنع عن قبضه فسرى ذلك إلى الجميع ورفضوا استعماله والتداول به فقدت 70 في
المائة فأدركت الحكومة هذا الخطر الاقتصادي وخشيت تفشيه في البلاد الأخرى فتفلقت. وضرب اليهود فهم نقدًا "نسبة بارتيين ونصف" فراجت بين أهل القدس وشاعت بين الجميع.

أما الكيلو فليست بأحسن من النقود فإنها مختلفة الحجم متعددة النوع وهي: ثانية، سداسية، ربعية، صاع، طبة، كيل، مدة، سحة فبعض البلاد تستعمل بعض هذه الأنواع وبعضها لا يعرفها وقد اتخذت عيارات أخرى والبلاد التي تشترك في مكتال واحد مختلف في كبره وصغره ففترة نابلس ثلاثية عشر رطلاً وثلاثة رطل ونصف القدس ثمانية أرطال وصاع بني عهد ثلاثية أرطال وصاع بني زعيم ستة ونصف ثم لكل بلاد إصلاحات واعتبارات أخرى من حيث الكيل فبعضها يهض الصاع ويبده ويتفسرو في سمه وطنرته وبعضها يستعمل كيل المرسل ومثل ذلك المزايا قلها متباينة جد البائين فالرطلك المشهور في آخر المدن 12 أوقية ولكنها في عكا وبلادها أقنان فقط وامتاز بعض البلدان بأرطال خصوصية لبعض أنواع المبيعات فرطل الدخان 16 أوقية وثقال ولفظ 18 أو 18 والقطين 18 أو 21 وغير ذلك رجاء الزيت مفتوحة أيضاً فهي في نابلس غيرها في القدس وفي يافا غيرها في حيفا وعكا وبلقري عيارات خاصة فجرة الزيت تزاوج بين سبعة أرطال إلى سعة 10 و11 و16 و18 و18 وهلم جرا فالميثر الذي يرتفع فلسطين يفتقر إلى درس طويل واختيار كبير لمعرفة النقد وأسعاره وفهم

---

(*) بلا هر وليد بل كما بيع الصاع.
الموزونات والتكيلات فكيف به إذا ساهم في جميع الأقطار العثمانية.

(82) بعض أسواق فلسطين

كان للعرب منذ جاهلتهم أسواق يتجمعون فيها ويرتدون منها ما يحتاجون ويعرضون ما كانوا مستغنيين عنه ونهاك كانوا يطاردون الأشعار ويتناشدونها فإذا ما انقضى زمن الموسم انصرف بعضهم إلى البوادي والمنازل واستأنف البعض الآخر السير حيث المواسم الأخرى وقد أخذ سكان فلسطين أسواقهم عن تلك المواسم الكبيرة وقصروا عليها عرض البيع فقط، أسواق تجارية فنرى الأقوم يتوافدون إليها من الصناع زرائعات زراعات إلى أن تغص بالبضائع الطالبة والعارضة في جول شامري ويزيد ربعًا في البائع ويبقى منهم ما يرجع ويرفع له فيسومه ويشتريه ثم يصرفون قبل العصر وأشهر هذه الأسواق: سوق اللد وتقام يوم الاثنين من كل أسبوع، أسواق الناصرة الرملة وبئر السبع وتقام يوم الأربعاء وسوق بنى صعب وتقام يوم السبت، أما أسواق القدس غزة ومجدل وعسلان وناقة والخليل ونابلس فكلا تقام يوم الجمعة من كل أسبوع فلو اعتنت الحكومة بهذه الأسواق الطبيعية ووضعها ونشأتها وحولتها إلى معارض تجارية وأديبة لاستفادتها منها كثيرًا.

(83) أقسام فلسطين الإدارية

مر بفلسطين أطول شتاء كانت تنفرد بنفسها أو تقسمها مصر أو سوريا ثم لا تثبت أن تنضوي تحت جناح أحدهما أو تنضم سوريا ومصر إلى العراق وتصر جميعا كصلة واحدة وقد أشارنا إلى ذلك فيما تقدم أما في القرن
التاسع عشر فقد انتشل فلسطين تقلبات ادارية كثيرة نلخصها كما يأتي:

كانت عكا حاضرة فلسطين الإدارية الوحيدة ثم اقتطعت صيدا قسماً منها وبعد حين أخذت الشام نابلس وبلادها وظلت البقية تابعة لعكا ثم التحقت جميعها بالشام مركز الحاكم العام "باشا الدورة" أما النظار والمسلمون "حكام البلاد" فكانوا وطنيين من فلسطين يحكمون مقاطعاتهم ويجبون الضرائب وحماهم الجنود ويتفوق عليهم "باشا الدورة" فأخذتهم منهم ما تعهدوا به. فلما اعترف السلطان محمود على الإصلاح الغي فرق الانكشارية، وأبادها وحما الطوائف الأخرى كالسلاجقة والطربوش الرومي وتزوي بالزي الأوروبي وأمر باختها زياً رسميًا وعسكرياً. ثم جاء من بعدهم من الملوك فأدركوا أنهم غرباء في البلاد العربية وتهجموا على فلسطين فقروا بعض النظار "أمراء الأقطاع" إلى طرابزون وحاولوا النظارات والمسلمين إلى مديرية غلية رأسها وطبيعة ثالثيات المديريات وتحجر المشايخ من الوظائف المحلية الإقطاعية واستولى الأتراك على البلاد فعلًا فأدرمو بتحرير النفوذ وطووا الأرضين ونظموا إدارة الأمن العام "البوليس والجندية" وأسسوا العدلية فكانت محاكم فلسطين تنتظر الحكم إلى عدالة الشام ثم خولت إلى عملية بيروت وأمتازت القدس فصارت متصرفية مستقلة تغازب الأستانة مباشرة في الأمور الإدارية وفي إبتداء القرن العشرين تأسست فيها محكمة استئناف فانضمت إليها لواء نابلس وظل لواء عكا وتركيا وغيرها.

(3) للبقاء في فلسطين عائلة أبي جعفر في الرملة ويوحد عائلات أخرى في القدس ونابلس وعكا وغيرها.
ملحقاً بيروت.

ومن ثم حكم العثمانيون البلاد بلا واسطة فأرسلوا مأموريهما الأتراك ويقضاء دفة الإدارة واتصلوا بالشعب ولكنهم تقربوا من أصحاب النفوذ وراعوا امتيازاتهم القديمة لاستمالتهم فتمادوا في غطرستهم واستعانوا بقوة الحكومة واتخذوها آلة لتنفيذ مأربهم فسافقا إلى تقديم الطاعة وترويج أوامر الحكومة ابتعاد الخروج عند الأمورين وكان بعد سعيداً من كسب ثقتهم وظفر بودهم لأنه يستفيد من صحبتهم بغض أبطالهم عن أعمالهم همها كانت فيبطش ويستبد بالضعفاء والفقراء ويغتصب أملاكهم ويعتاد يمداهم ويبتز أمواحهم ويعلو علواً كبيراً.

(134) قيس ومن وشي عن الاقطاع

هذا بحد جليل ودندنا لو أن في الكتاب متسعاً فنيبه حقيقة ونأتي على تأريخ بالتفصيل ولكن صدر الطرس ضيق والموضوع محصور في فلسطين فلذلك نحمل ما خرج عنها وندمجه في أخبارها لنلاؤ ينير البحث وتضيع الفائدة.

إن هذا الانقسام ظهر بين العرب قبل الإسلام وظل إلى يومنا هذا مصطفاً بصبغات عديدة وأسامه مزدفعة منها: العدنانية والقحطانية والحجازية واليمنية في الجزيرة، والقبيسية واليمنية في جميع الممالك الإسلامية خلاً الأنناضول وغربها، اليحربية والجبيلية في لبنان والفقارية والقاسمية في مصر، أما أسباب هذا الانقسام فإن أهل اليمن كانوا يدعون أنهم أشرف
عاشائر مختلفة وقبائل متنوعة وفيهم القيسي واليمني.
أما بلاد الخليل فآكثر سكانها قيسية وأمورهم دارو عمر مركزهم في
دوره وعائلة العزي في بيت جبرين وأما دار اللحم فانهم ينبون. وأمراء
اليمنية في مقاطعة القدس هم دار أبو غوش في بني مالك ومركزهم قرية
العنبر ودار على شيخه في بني حسن ومركزهم المالة ودار عريقات في
الوادية ومركزهم أبو ديس والقرعان في البيرة والزيادة "دار الحطيب" في
بيت أكسا والدباونة في دير دبوان والبيتوني في بيتونية ودار عقل في بني هار
"جمير" ومركزهم نعلين أما أمراء القيسية فدار سمحان من بني حارث ومركزهم
راس كوكير والعويصات في بني عمر ووادي الصرار ومركزهم البرج
والبراغشة في بني زيد وبيئة مرة وبيئي سالم ومركزهم دير غسانه ودار الطويل
في البيرة. ثم كان في المقاطعات الأخرى أمراء ينضمون إلى هذه الأحزاب
سياسة ففي ساحل يافا عرب الجرامة ومقابلهم أبوب كشك وفي بني صعب
الجموسي ومركزهم كور ومقابله البرقاوي في الشعراويات ومركزه شوفة أما
قاسم ورين فكانان يقتصمان بلاد جماعين وجورة عمرة ومركز الأول بيت وزن
وبركي الثاني مجد يابا وفي مشارق البيتاوي دار الحاج محمد ومركزهم بيت
فوربك ومقابلهم بنو شس في بيتا أما غور الفارعة فكانت تقسمه عرب
الم سعودي والفاعور وكان أمير نصف بلاد جبين "م çıkan الجرار" جرار و هو
قيسي ومركزه صنور ومناظره الأمير الحارثي في بلاد حارثة وقبره في جبين
فلما انقرضت ذريته خلفة دار طوقان ونازعوا جرار السيادة وبعد أن جاء
ابراهيم باشا استعالي دار عبد الهادي "قيسية" وشطرها البلاد فانضم إليهم
جوب كبير وهم وجرار من فصيلة واحدة. وكان أمراء غور ييسان عرب الغزاوية والصقر وفي ساحل حيفا دار ماضي ويجانبهم أهالي صبارين ودار الشبل في طرة حيفا أما في بلاد عكا فكانوا عرب الحواسي "الهندي" ومركظم غابة شفا عمو ولم يكن لغيرهم هناك عصبات قوية مجتمعة ولا عائلات كبيرة بل كلما عظم شأن رجل انساق إليه حزب وسيطر على مجاوره.

هكذا كانت تقسم البلاد وهؤلاء هم زعماء الأحزاب فكان إذا شجر خلاف داخلي في منطقة واحدة انضم أبناء الحزب إلى بعضهم بعضاً وقاوموا الحزب الآخر ومن أحس في نفسه الضعف استمد من الحزب المجاور له واستنصر بني قومه على عدوه وقد تفاقم الخطب في القرن التاسع عشر وتزازع الحزبان فما كان أحدهم يُجرؤ على المرور في بلاد الآخر معلناً شعار قومه. فكان إذا خطب اليمنية عروساً قيسية لابد هبهم إلى جلبيها إلا "بفَارد" جمع كبير مسلح ولا يجوز لهم أن يرفعوا أعلاماً بيضاء أو يلبسون العروس حلة (هداً) بيضاء "شعرا اليمنيين" حتى أنهم أخذوا عروساً يمنية من بلاد يمانية فلا يسمح لهم أن يتجاز البلاد القيسية وهي لابسة البياض وأن امته أصحاب العرس من ذلك يعلن الحرب ويستطرد الشار وكذل الكيسية فأنهم كانوا مجانين على اتباع هذا العرب ولا ينكرن على البلاد سيادتها وعاداتها فإن من يرفع شعاره في بلاد جاز له أن يتصرف بها.

وآخر حرب نشب بين قيس ومن الحروب التي وقعت في قرية خرينة.
عاشائر مختلفة وقيائل متنوعة وفيهم القىسي واليمنى.
أما بلاد الخليل فأكثر سكانها قيسية وأمروهم دارو عمر مركزهم في دورة وعائلة العزى في بيت جبرين وأما دار اللحام فانهم ينمون. وأمرواء اليمنية في مقاطعة القدس هم دار أبو غرش في بني مالك ومركزهم قريه العنب ودار على شيخه في بني جس ومركزهم الملاحة ودار عريقات في الوادية ومركزهم أبو دبس والقرعان في البيرة والزيادة "دار الخطيب" في بيت أسا والدباونة في دير دوان والبيتونى في بيتونية ودار عقل في بني جار "هم" ومركزهم تعلين أما أمراء القيسية فدار "سمحان من بني حارث و مركزهم راس كوكر والعباسات في بني عمير ووادي الصراص ومركزهم اليرج والبراغة في بني زيد وبنى مرة وبنى سالم ومركزهم دير غسانه ودار الطويل في البيرة. ثم كان في المقاطعات الأخرى أمراء ينضمون إلى هذه الأحزاب سياسة ففأى ساحل يافا عرب الجرامنة ومقابلهم أبو كشك وفي بني صعب الجيبي ومركزهم كور ويدبهم البرقاوي في الشعراويات ومركزه شوفة أما قاسم ورباعه تكتمأن بلال جاعين وجوبة عمرة ومركز الأول بيت وزن ومركز الثاني بلال بدأ وفي مشاريق البيتاوي دار الحاج محمد ومركزهم بيت فوزي ويدبهم بن شمس في بيتاأما أمير الفارعة فكان تنتهم عرب المسعود والأفاعور وكان أمير نصف بلال جنين "مشاريق الجرار" جرار وهو قيسى ومركزمع صنور ومناظر الأمير الحارثي في بلال حارة وقبره في جنين فلما انقرضت ذريته خلفه دار طوقان ونمازعوا جرار السيادة وبعد أن جاءت ابراهيم باشا استعلي دار عبد الهادى "قيسية" وشددوا البلاد فانضمو إلىهم
-٢٣٩-
جوب كبير وهم وجريان من فصيلة واحدة. وكان أمراء غور بيسان عرب الغزاوية والصقر وفي ساحل حيفا دار ماضي وجماعتهم أهالي صاريين ودار الشبل في طرفة عينا في بلاد عكا فكانوا عرب الجواسى "الهندي" ومراكزهم غابة شفا عمرو ولم يكن لغيرهم هناك عصبيات قوية مجتمعه ولا عائلات كبيرة بل كلما عظم شأن رجل انساق إليه حزبه وسيطر على ماجاره.

هكذا كانت تقسم البلاد وهؤلاء هم زعماء الأحزاب فكان إذا شجر خلاف داخلي في منطقة واحدة انضم أبناء الحرب إلى بعضهم بعضاً وقاطموا الحزب الآخر ومن أхот في نفسه الفعل استمد من الحزب المجاور له واستنصر بي قومه علّى عدوه وقد تفاقمت الخطب في القرن التاسع عشر وتزاوج الحزبان فما كان أحدهما يجبر علّى المرور ببلاد الآخر مما علّى شعار قومه. فكان إذا خطب اليمنية عروساً قيسية لا يذهبون إلى جبلها إلا "بفاضدة" جمع كبير مسلح ولا يحوز لهم أن يرفعوا أعلاناً ببضاء أو يلبسون العروس حلة (هما) ببضاء "شعراء اليمنيين" حتى أنهم أخذوا عروساً عربية من بلاد يمنية فلا يسمح لهم أن يتجتز البلاد القيسية وهي لابسة البياض وأن امتنع أصحاب العرس عن ذلك يعلن الحرب ويستطرد الشر وكذلك القيسية فإنهم كانوا مجبرين على اتباع هذا العبأ ولا ينكرن علّى البلاد سيادتها وعاداتها فإن من يرفع شعاعه في بلاد جاز له أن يتصرف بها.

وآخر حرب نشبت بين قيس وعمن الحروب التي وقعت في قرية خربشة.
وقد أخذت هذه العادة في الحفاء والأشجار فلا يمضي عليها فترة من الدهر إلا وتسي ولا يدرك الرجل أهو قيس أم يفانى.

(85) الحرية في فلسطين

تكونت الدولة العثمانية بقوة السلاح وبنيت على الحروب وأغفلت كل شيء تقديرهم من كان متأخراً عنهم وعلاقتهم من كان دونهم فحاول السلطان محمود الإصلاح فلم يوافق تماماً ولكن أزاح عن أعين الفكرين تقابلاً وجاء من بعده السلطان عبد المجيد فنشر خط خلق سنة 1255 هـ وسنة 1839 م ونظم القوانين ومحاكم والإدارة الملكية وغير ذلك مما تتطلب الحضارة ويلائم حالة الأمة إلا أن إرادة السلطان كانت فوق كل قانون فجاء مذوحت باشا بطل الحرية وأبو الدستور ورئيس أحرار العثمانيين وتعهد للسلطان عبد الحميد قبل أن يجلس على العرش أن يمهد له السبيل ليكون سلطاناً بشرط أن يمنح الدستور للأمة ويعم البلاد العثمانية بالحرية فوعده بتنفيذ ذلك ولما بيع عبد الحميد بالسلطة أعلن الحرية ونشر القانون الأساسي وأمر بانتخاب نواب عن جميع البلاد فذهب عن القدس العلامة الكبير يوسف ضياء باشا الحاجى وفتح المجلس سنة 1294 هـ ولكن لم يلب لعبد الحميد هذا العمل وشعر أنه مقيد ففسى وأغلقة سنة 1295 هـ وشرط الأحرار وطردهم ونفاهم وياتش بالتنورين وساسي الدين والاستبداد والإرهاب فأكبر ذلك الشيبة العثمانية الراقي وأنا أن يتضعضعوا لسلطة رجل غشوم فعملوا سراً وعلناً وفازوا بأعينهم فاعلاوا الحرية مرة ثانية في عهد هذا السلطان وضطروا الأمير حارب من...
خداع المستبدين واستمالوا الجيش العسكري واحتلوا المراكز المهمة وأذاعوا الحرية في طول البلاد وعرضها وكمت في القدس حتى جهوزها الحاج راغب أحمد الخالدي والمرحوم حسين افدنى سليم الحسيني وكان شعار الناس قاطبة حرية عادلة مساواة فكثر الفساد وعمت التعدى وضعفت الإدارة الملكية وسادت الفوضى وضعفت هيئة الحكومة وطمحت الناس إلى احتقار الحكام وجعلوا معنى الحرية فظوها الاشتراكية أو الفوضوية فكان الرجل ينهب مال غيره ويسبد بالضعف وإذا عف عنه أو زجرته قال حرية مساواة.

ثم أمر بانتخاب نواب عن البلاد فذهب عن لواء القدس المرحوم روحي بك الخالدي (1) وسعد افدنى الحسيني وحافظ بك السيد (يافا) وعن لواء نابلس الشيخ أحمد أفكيد الخماش وعن لواء عكا الشيخ أسعد افدنى شقير وفتح المجلس وبعد حين باعتهم السلطان عبد الحميد وفقد بالأحرار وأعلن ثورة ضده باسم الدين وحاول القضاء على الروح الجديدة فدفهما محمود شوكت باشا الفاروقي واحتل الاستانة فاجتمع النواب وقرروا خلع السلطان سنة 1325 هـ وسنة 1908 كم وأمنوا شر الطاغية الكبرى وجعلوا مكانه محمد رشاد الخامس وهنالك تكبر الاهدافون وتولوا ادارة البلاد فقال بعضهم باستطلاع الاعناصر الأخرى أو إبادتهم وليعت الأبدى الأجنبية فهب رجال العرب وانضم إليهم متعدل الأتراك فأسسا حزب الائتلاف وزاحموا الاتحاديين وحاولوا أن يكثروا في المجلس فطافوا البلاد وخطبوا فلم ينجحوا

(1) كان من علماء الأمة العربية وفضلاتها تلقب في مناصب عالية ولئه مؤلفات جليلة بعضاً طبيع والبعض الآخر جاهز للطبع.

۲۴۲
وذهب عن القدس ثانية روحياً يحيى بن الحاولدي وعثمان أحمد النشاشيبي وأحمد عارف الحسيني (غزة) وعن نابلس حيّفز بك طوقان وعن عكا الشيخ الشقيري فلم تطل مدتهم وحل في خيال انتخاب ثالثة مجاز الأكثرة عن القدس راغب بك النشاشيبي وسعيد أحمد النشاشيبي وفاضل النشاشيبي العلمي وعثمان نابلس توفيق أحمد أبا ذكرى وعلي بن عبد الهادى وعثمان عبد الفتاح النشاشيبي السعدى. فتبه العرب وأدركوا أنهم مغلوبون على أمرهم والأتراك مستورون عليهم فلم يطمنوا ولم يرضوا عن هذا الجتور فهب أهلية سورية مطالبين بالإصلاح على قاعدة الامركزية أي استقلال داخلي إلى جميع بلاد العرب وجهر بعض الناس والوجهاء بأمنيتيهم ونادي طلاب مدارس الأستانة بهذه الدعوة وعقدوا الاجتماعات وأسسوا النقاد والجرائد والمجلات ليدافعوا عن قضيتهم ثم عقدوا مؤتمراً عاماً في باريس تداولوا فيه أبحاثاً هامة وقرروا قرارات خطيرة ونوا دعايتهم في سائر الأقطار والأمصار فكان داعيتهم في القدس أبو حسين النشاشيبي فأشيع روح الشباب تعاليمه الوطنية حتى عالمو الحكومة بأمانهم وجاهروا ونقموا سياسة الأتراك ووجهوها نظرهم نحو الجزيرة وعلقوها آمالهم منقذ العرب السلطن حسين الإرشدي فاستحوذت منهم الحكومة العثمانية وترضعت وهادتها واعتزمت على أن تحدث تغييراً في قوانين وشكل إدارة البلاد العربية وقد نال بعض رجال الحرب مناصب عالية وأمرت الحكومة أن تكون اللغة العربية رسمية في البلاد التي يكون أكبرها عربا. وبينما هم يستخلصون حقوقهم تدريجيًا فاجئتهم الحرب العامة فأخذت الجذوة العربية المتقدة في الصدور المدفعة والإشرفة الحربية.
ثورة حوران والكرك

أشدشت الحرية في البلاد العثمانية فضمت السكان نشوة طيش وتأفت نفوس الاجتماعيين إلى تجديد دولتهم في سنة واحدة لضمعوا دول أوروبا العظمى وكدروا يدركون غاليهم ليسلموا من الدسائس الأجنبية وحكموا العقل قليلاً ولكنهم تهوروا وكفروا البلاد فوق طاقتها فطالبوا البند بتكبيد نفوسهم واجهارهم على التجين وأكرههم على دفع الضرائب تماماً فاستناداً لذلك دوز حوران وشمخوا وتعالوا ونبدوا الأوامر وعصوا الأحكام فانقض عليهم سامر باشا الفاروقى كالصاعقة وأدهم وأخضعهم ونفى زعيمهم وطرد قادتهم وشيوخهم فأذعنوا مسلمين وسلموا طائعين. وبلغه أن أهالي الكرك قد امتعوا عن تعداد النفوس وفتكوا بالأمور بترحيب عائلة المجدل خزف البدين واجتز شرق الأدن ودخلهم في الطاعة وكتب نفوسهم وعد أغنههم ونفى زعيمهم توفيق بك المجدل وجعل أرضهم بلاداً عثمانية فعللاً وقسا عليهم ونكل بين تعدد على الأمم واشتتان بأوامر الحكومة الرسمية ثم عاد راجعاً. وقد حدث في هذه الفترة أن أكسبت النمسا بلاد البوسنة وأفرسك وانقضت إيطاليا على طرابلس الغرب فاعترضها السنوسي وانضم إليه زمرة من أبطال الاجتماعيين فاتبعوها وأشجعوا.

واجتمعت دول البلقان وحاربوا الدولة العثمانية فهزموها واغتصبوا بلادها المأهولة بالأثرياء والعناصر الأخرى وهوت الدولة التركية من شامها.
الفصل العاشر

الحرب العظمى في فلسطين

هبَت عاصفة على العالم فهُزِت الشرق والغرب وختفت العقول والنهى وسُلبت الألباب والجُهُوَّي فأصبح المفكرون خاضعين للعاطفة الحيوانية قرُمِين لسُفُق الدماء فَأَعَلِنَت دول أوروبا الكبرى الحرب العظمى والتزمت الدولة التركية الحياض إلا أنها نُظمت دوائر الرد في وجوُلها إلى شعب أخذ عسكر ووزعت على جميع القرى مغلفات كبيرة مغلقة وأمرت المختير أن لا يفضها إلا من أذنهم وفي 28 تموز سنة 1914 م استطاع العلم في الغرب وأعلنت النمسا الحرب على الصرب ودخلت المانيا لوكسمبورج وأنذرت البلجيك في 2 آب سنة 1914 م وفي 4 منه أذنها انكِرتا المانيا ثم علَّت عليها الحرب وفي 6 منه أعلنت النمسا الحرب على روسيا وفي 10 منه أعلنت فرنسا الحرب على ألمانيا وفي 12 منه أعلنت انكلترا الحرب على النمسا وفي 13 منه أعلنت فرنسا على النمسا وفي 20 منه احتل الألمان بروكسل عاصمة البلجيك وفي 6 آب سنة 1914 م اجتازوا المارن.

وكان أمرت الحكومة العثمانية بالنفير العام "سُفر برك" وجمعت كافة جنودها المعليمين وسارقتهم إلى البلاد ذوات المياوء وسلمتهم سلاحا وأخذت تُنَّمُّهم على الأصول العسكري الألماني وشكلت جناا جمع التكاليف الحربية والمبايعات وأمرت باستهداف جميع مابلزم الحكومة ويوجد عند الأهالي من لباس

٣٤٥
ومأكل وحيوان ركوب أو عربة نقل فأخفى الأهل على سالهم وقطع عن البلاد الورادات الخارجية فتصاعدت الأسعار ودخل السكان في أزمة لم يكونوا يتوقعونها من قبل فكانوا نرى الحالة حالة حرب لكن الحكومة العثمانية كانت محايدة حتى أتيها نية من السير ادوارد غري وزير خارجية انجلترا أنه أخذ البارجة "السياحة عثمان" التي تعمل خصائصهم في مصانع أرمسترونغ الإنجليزية فأفطنت له تركيا أنها تقوى المحافظة على الجهاد العام وما غرضهم من تعبئة الجيش ألا ليكونوا مستعدين للمفاجأت والطوارئ، فأتى غري أنه يهتم مضطرون لابقاء جميع البارجة في مياههم وسيوعضون الأتراك ما حقهم من الخسارة. وفي 16 من دخل الطرادات الألمانية غوتن وبرسلو الدرينيل فقتلهما الحكومة العثمانية وأعلنت في اليوم التالي أنها ابتعثهما. وفي 16 منه أبلغت دول الاتفاق الحكومة أنهن يحافظن على استقلالها وسلامة أملاكها من طعم كل عدو إذا بقيت معتصمة بالحيد مدة الحرب وفي 9 أيار و 18 شوال سنة 1332 هـ ألغت الدولة العثمانية الامتيازات الأجنبية فاستنكر هذا العمل جميع الدول حتى ألمانيا والنمسا وتحول الدرينيل والأستانية والبسفور بسرعة إلى منطقة ألمانية يسيطر عليها الألمان الذين خلقو الأسلوب الفني لجر الحكومة العثمانية إلى الحرب وأوعزوا إلى النساث التركية فسقطت ثلاث منها في 27 تشرين أول على ميناء أوديسا وأغرقت سفينة وعطت باخرة

(*) كان الصدر الأول العثماني مصراً على تنفيذ الغيير وردد كل يوم لسفراء الدول أنه لا يفطر بأثيو زير الحربة نور باشا حزمه ذلك همهم حمل فهمهم على الانضمام إلى المانيا.
أفريقيا فغضت السفراء وقطعوا علاقتهم من الاستانة وطلبو جوازات السفر حالًا ففاز بعض الأثناين بساميتهم لاسيما أن جيشهم المدرك قد بلغ مجموعه نصف مليون جندي مسلح وربع مليون في معسكرات التدريب فاعلو الجهاد العام وضربوا أذل وامتنعوا الحصار. وانقسمت ساحات الحرب في البلاد إلى أربعة مواضع (1) الدربان، (2) القفقاس، (3) العراق، (4) الحجاز وفلسطين. وإذا نوك الأقسام الثلاثة لبدها عن موضوعنا ونتكلم عن فلسطين والثورة العربية الفتية.

تعين أحمد جمال باشا ناظر حربة الأتراك قائدًا عاماً إلى البلاد العربية وكان تحت إمرته الفيلق الرابع والجيش الثامن وهو مؤلف من 41 ألف مقاتل فأشار جمال باشا ببرهة الزيجية ممتاز بك(1) "قائد الف" حشد من قبائل بدور السبع الفين ما بين فرسان وركبان ومتشا وخزرك الصحراء الجردة الحالية من البشر لأن الألمان تراجعوا إلى موارد القنال ثم ورد أشرف بك(2) ومعه لفيف من الأفغان والجركس والمغارة ومتوسوس الوطنية وكان مستشاره الألماني هدلر غورف وبيده أمر من أنور باشا بإعطائه ما يريد ثم التحق بجيش أحمد ممتاز وأوقعوا بطلاً الألمان وناوجهم مرات فلم يحلوا منهم بطلاء.

وكانت الأوامر صادرة بتاسيس مدارخ الأدوار "أنبار" وبناء المؤسسات العسكرية وحفر الآبار وجر المياه وتعمر الطرق وتليكيل...

(1) باور أت ناشا اندأي بمواشي رام نصبرّ لنا ارسل مولده طرق بين زياد إلى الدنيا ومتحفاً
(2) جركسي الأصل ورئيسي عشبة في البلقان ومن أبطال الثورة الأتراك والانقلاب العثماني وكان ملبوس عضبة الجلد.
"أقوال" قوافل الجمال وغير ذلك شخصاً من هذه المواضيع بكلمة علّى
حيدة.

التموين "مداخر الأرزاق"

(88)

قبل أن أقامت الدولة العثمانية على الحرب أخبرت الأمة بإعلان النفير
العام وكانت لتوقيع العصيان فاطعها الأهلون وليوا نداءها فصرت وعينت
قوميونات "خانان" جمع الذخيرة فصاروا يطوفون الحواري وياخذون منها ما
أرادوا ويجمعون الحيوانات والدواب والأرزاق ويقرون الأثمان ويعطون
لأصحاب السلع سندات بقيمتها حتى كررت لديهم الأرزاق فأعتبروا بتأسيس
مداخر لها في كل محل وجعلوا المداخ العام في بحر السبع فكان لايقلو مركز
عسكري أو ملكي من كبار ثم توسعاً فأنشأوها في الصحراو ونشروها من
شمال البلاد إلى قرب قناة السويس.

وسائط النقل "النقليات"

(89)

تكدست الأرزاق في مخازن الدولة فاحتاجت إلى مابينقلها ويوصلها إلى
الصحراء حيث الجبهة الحربية وأنى تم لها ذلك ولا طرق عربات ولا خطط
حديدية تشتبك بها البلاد ولتصلب بها الصحراء فاحتاطت لتاثير هذا النقص
وجمعت مايبرو على 40 ألف جمل غير عجلات النقل وطوابير الحمير والبغال
والحملة وقسمتها إلى شعب وطوابير وأقوال مرتبة بعضها البعض وربطتها

(3) أشخاص يحملون الأرزاق والأشياء من القدس إلى الخليل والمع.

-٢٤٨-
بمفتش ورقيب ألماني فكانت تسير هذه القوافل من أقصى بلدان فلسطين إلى جوف الصحراء مملحة بالأزraq والآلات فلم تف بالحاجة واضطرت الحكومة إلى مقاولة المعهدين لاتمام هذا النقص فقستهم عن إيصال النقلات في حينها إلى محطاتها وقد نكبت بموت كثير من جماهها لاهمال الضباط وقلة أعتاد الأفراد بها فكنا نرى أشلاء الجيف ورمائها مطرحة على جوانب الطرق متعاطفة على بعضها بعضًا. هنالك أمرت بمد الطرق الحديدية وتهيئ السكك العرابات وحضرت مهمة الجمال في توزيع الأزراق على الجنود داخل الصحراء وورد عليها أتوبيوليات ألمانية وغمساوية ولكن بعد فوات الوقت.

(90) تعبيد الطرق "العمليات"

عجزت الحكومة بواسطة الجمال أن توصل الأزراق والمعيدات الحربية إلى الجند في وقت الحاجة إليها فأمرت بأنشاء الطرق وجمع ضعفاء الجنود والمعزرة الذين لم يتمروا ولم يتدربوا على جمل السلاح "سلاخس" وأطلاقت سجناء القدس وشكت منهم طوابير "فرق عمال" وجهزتهم بما يلزم من الأدوات والآلات وأمرت عليهم الضباط التقاعدين وجعلت بعضهم لتعبيد طرق العرابات وبعضهم لمد السكك الحديدية والبدء قويل وإنشاء المؤسسات فمدوا طريق القطار من العفولة إلى بيرين جنوب الحفر يقطعها الراكب في ثمانية أيام. وأوصوا طرق العرابات بكل مركز عسكري أو نقطة حربية وداوت عملها حتى شم الجنود وفروا فأجبرت الحكومة أهل القرى على تقديم عمال إليها وكانت تراقبهم بضباطها فنظمت جميع ذلك ومثل الأزراق.
وشك الوداع.

المؤسسات "الإنشاءات"

لم كانت ساحة فلسطين الحربية متحَصرة في الصحراء الخالية من الموارد الطبيعية كالغذاء والمياه والبناء عزمت الحكومة العثمانية على إيجاد هذه الأشياء فحفِرت الآبار وجرت المياه إلى القصاط "الأنابيب" إلى مسافات بعيدة وبنى أحواضًا لسقي الحيوانات وصنابير "حتفيات" للشرب وبنوا المستشفيات ومستودعات الأرز ومحطات للسكك الحديدية و البريد والبرق ومحال للضيافة.

واستغفروا عن كل هذا في المدن فانبسطت واستولت على جميع المؤسسات الأجنبية واقتنعت واستعملتها ما يلزمها فأخذت نوتردام والسكك الحديدية والدومنيكان ومدارس الفرير والجيش والطيران، وأسسوا دار الصناعة والإصلاح "معمل" فكان إذا ما تخرب شئ يعمر حالاً أو يعطي عوضه وقد اكتسب الأتراك من الألمان جرأة فبعنا بأوروبا وافتضا بهينتها واحترقوا عهودها وداسوا معاهداتها وعملوا دولها معاملة النظر للنظر.

البعثة الألمانية العسكرية

تسلل بعض ضباط الألمان وتجدد من كان في سوريا وأخرطا في الجيش العثماني فرأينا أمرهم وانتظرونا العقبة وسرعان ما رأيناه قد انضموا

(3) كثرت في هذه الحرب أمثال البرق والطفر والبلورون والنزاعات الراسخة.

- 250 -
إلى قائد الحدود كريس فون كريستين، فأعطى كلاً منهم العمل الذي يصلح له وفتح الخواجة فاست مطاعم ومنازل خصوصية لهم يعودون إليها. فلم أتصل الألمان بالأتراك أرسلوا جملات نفساوية وألمانية مؤلفة من طوابير "قطع عسكرية" وفيهم الطيارون المدفعيون والمساة وسائقين الأتموبيلات فاستقبلهم القائد العام فون كريس وحاشيته بحفاوة وخطب فيهم على محطة بتر السبع فقال:

أيها الأبطال! نحن أبناء من احتلوا باريس وشهدوا موقعة سيدان أنتم بأنفسكم قد اختبرتم قلعة البلجيك وكدكم حصولهما وتفائلتم في أقاليم فرنسا ومزقتم جيش روسيا أنتم الذين جرعتم جميع أعدائكم هوان وها أنا قد أتيت بكم لانفذ بعزمكم الألمانى في شريان أنكترأ عدوة الإنسانية وتسترعوا من يدها القتال وتشفو البشرية المثلى من ظلم واستعمار أنكترأ ... الخ.

ثم ساروا وقد أعد لهم معيشًا فاخرًا فكانوا ينامون على سرور وياكلون طيب الطعام وأعذب الشراب وكانوا أنى ذهوا يصححون الرخاء وأنى ساروا يوفر إليهم خير المأكل فطعموا واستطالوا على الأتراك واحترقهم فحدثت نفرة بين الفريقين كادت تفضي إلى سوء العقاب فاكس الأتراك جمعية في بئر السبع غانتها مقاومة النفوذ الألماني فكبحوا جماحهم وخففوا من غلولاتهم وظلت الفرق الألمانية والنمساوية تحبط الجيش التركي حتى الانهيار الأخير.

الجراد (٩٣)

لم يكشف الناس ما حل بهم مين البلادا حتى فاض عليهم طوفان من

-٢٥١-
الجراح فأكل الزرع والأثاث ورعي العشب وقشر الأشجار ثم غرس في الأرض وب واستفعل السكان لدفعه وقاوموه ولكن حاولوا عينًا فانتشر ثانٍة زاحفًا على الأرض وطأها. في القضاء لا يأتي على شيء إلا ذهب به ففرعت الحكومة وعينت جنودًا ومأمورين ملكيين لتلافى ضرره وتلفوا أهل البلاد باتلافه، فعملوا عن ردع غائتته. وفي الحقيقة أن من كان يراه سامعًا على الأرض يتوهم أنها مادت به أو أن هناك مجارًا ترجعها فتتعرض الحال الاقتصادية وسائل الحركة التجارية فزاد الفقراء واشتد الفقر و kot الطبق الفقير والرجل والرجل.

(94) الحركة الاقتصادية

أعلن النجاح العام، فاتجهل قروا들은 الحارات الخارجية، وغلبت أبداً أهالي فلسطين ودخلوا في الجذب فاأخذت الأرض وقالت الحالات لاسيما أن الحكومة أخذت تجنب ضرائها عيناً. فتأخذ من الغلال حقها وتشترى ثلاثة أضعافها وزاد على ذلك ظلّ الأمورين وتديرهم الجماعية أكثر مما هي ولم تقف أيضاً عند هذا الحد بل صارت جميع الحالات وعينت لكل فرد من الأهلاء مؤونته وباشره فقط واحتكرت البقية فسمت الزارع ومل الصانع وفرغ حانوت التاجر فعمت الطائفة وجلت المصيحة وارتقت الأسعار أربعة أضعافها وتعددت حوانيت ببع الأثاث المستعمل، فيجب أن يشترى به قرشًا للعائد، وجدت الأعيان عظمة الرزانيا يبهو السعر، وأسعار الورق النقدى فإن الليرة العثمانية نزلت إلى 18 قرشًا وعمر دنانة سعرها
ورخصه فإنها كانت في جبهة الأسد "وبها تقضى الحاجات".

(95) الصحة العمومية

فلم تحدث حرب إلا ويصبحا الوباء وإلها أنه يقال الغذاء، ويفسد الجو والصعيد فتنتشر الميكروبات وتكون الأجسام قد ضعفت عن مقاومتها فتفشى الأمراض وتتفتك الأدواء كما شاهدناه أثناء الحرب.

فقد احتفظت الحكومة لمعب وقوى هذا العارض وأسست طوابير تنظيفات "كناسة" وأكثرها من الأطباء والصيادلة وآثرت بهم مقاومة الأمور الصحية فهجمت الحميات والأمراض السارية وانتشرت الدناضيراء والكوليرا والنفلوس والتفولية فحصت النفوس ونحت الأعمار وكنا لا نرى غير وجه شاحبة وأجسام ضعيفة منهوكة القوى.

(96) الأخلاق العمومية

في خلال هذا الحرب رأينا من فساد أخلاق بعض الشرقيين مازهتنا في الحياة، فأنهم تحروا الفضيلة وأقاموا الرذيلة وتبذلوا مفتخرين بالعبر والمساوؤ فسخط الفضلاء ظانين أن هذا المرض سري بين بني قومهم فلم يتعدهم ولم يتجاوز سواهم فلما أتت الجنود الألمان والنمساوية وجدناهم أخطرين منا وأجرؤ على ارتكاب المرتكزات فحولنا ومقتنا أعمالهم وأخلاقهم المنطقة وسلوكهم الحيواني وتوهنا أن المرض التركي تمى في مفاصلهم وتسرب إلي آدابهم فلما قدمت الجيوش الإنجليزية المزيفة من عناصر الأرض وجدناها أدلي وأحص فلا عيب تنوقاه ولا حرام تاباه فعلمنا أن الحرب مفسدة الأخلاق وأي

-253-
حرث أعظم من هذا فيما أن سكان المدن ومن جاوروا معسكرات الجنود كانوا أكثر فساداً من سكان القرى البعيدة عنها.

(97) الديوان العربي

أعلنت الحكومة العثمانية الحرب وأمرت بتطبيق الأحكام العرفية في جميع أقطاع مملكتهم فكان الديوان مؤلفاً من مجلسين هيئة تحقيقية "ائتم" ومعممة عرفية فأخذوا مركزه في القدس بيت المقدس سايسق قيادة الكنيسة العربية. فكانت جميع المحاكم وبلدية البشر أعضاء ضباط عسكريون تربوا على سفح الدماء فكان عليهم القتل وسحق لديهم احتقار البحرية وآلامها. في حكمه القضائي الممز وموت العاجل فإذا سبق المته إلى الهيئة التحقيقية استنبطه الضرر بالسوط والتكى بالنار والتعذيب الشديد فيعرف بالجرم المنسوبي إليه وإن لم يكن فاعلًا لأن الموت العاجل أخف من العذاب المتطاول فيكون إقراره رسمياً ويعتبرونه ويجوزونه بأوراقه إلى المحكمة العرفية فإن خالف قوله الأولى نزلوا عليه بالسياط وإن قبله تحكم عليه بأقصى درجات العقاب وتحول قرار الحكم إلى الحكم المطلق جمال باشا السفاح (*) الذي يفعل مايشاء وتختار مراداً فيه ملأ تردد وكم من ذنوب ارتكبوها وخطايا اقوفها ابتسام مرضية. الشخصية فأنهم انتصروا هذه الفرصة وأخذوا يطبقون سياسة العسف والقمع فأمكنوا الفرق العربية والجنود السوري عن بلادهم ونقلوها إلى غاليسيا والبرتغال والعراق وابتلاوهم بأتراك وألمان ونسائين وغادرها.
وجاروا فاور جمال بمحاكمة أعضاء مؤتمر باريس ومن اشتبه بهم من فتيان العرب الناهضين وشبابهم المتورين ففندى البعض وساق البعض إلى عالفة وحاكمهم وحكموا على كثير منهم بالإعدام فتشرف فيهم جلالة الملك حسين وطلب العفو عنهم فردت شفاعة ونفذ فيهم الحكيم فاحتفظها وتأم فهم قائزاً: إذا ما غضبنا غضبة مضرية، هنكلنا حجاب الشمس أو قطرت دماً

(98) الثورة العربية

كامل جلالة الملك حسين عضبه وغيظه واستدعى الفرق المتطوعة (1) التي قدمها جمال باشا متجهاً أن يستدها بغرة ودعا إليه ابنه فيصل وقطع علاقته مع الأتراك وأصغى إلى مفاوضة الخلفاء الذين قطعوا له عهداً وموقف بإستقلال جميع البلاد العربية فأعلن الثورة وعضده قسارة الحجاز وعرب الخويوات فما كاد يبلغ هذا الخبر مسامع العرب حتى انسحبوا من صفوف الأتراك والتحروا بهم ولم يبق منهم إلا من سدت ففي وجهه الطرق فانقلمت النغور وتطلعت الإدارة وألحق قسم كبير من الضباط والأفراد بجيش الأمير فيصل وقاتلوا وقتلوا وظفوا يتكاترون إلى أن ضحى الجيش وسرت الشعلة إلى كل الجهات فاعرف أن أكبر قائد في فلسطين يقوله أن أهالي البلاد العربية أشد عداوة لنا من الانكليز.

(1) كانوا يلبسون الباذية بيضاء وكفافى حمراً وهم أربعة آلاف شهداء الجرن الانكليزى و كانوا يشندون أهاليهم العربية ولا يقيدون بظام في الحرب.
الحملات الحربية

كان يجب أن نقدم هذا البحث على غيره لما له من الأهمية ولكننا فضلاً أن نشهد بمدفوعاته الأولى لتبنيه القارئ أن النصر لا يكون بكثرة الجنود فقط بل ما يلزم لها من الذخائر والوسائط التقليدية والتغذية والاعتماد الصحي والفن العسكري.

أعلن الأتراك النصر العام وهم بين عاملين التزام الحياد أو دخول الحرب فما زالت بهم أنور باشا وحريته حتى جعلهم على اقتصادها فعضدوا الألمان آمال أن يكون لهم النصر فاسترجعوا إمبراطوريتهم العظمى فاستسلموا لهم وولوهم الأعمال وإدارة الأمور فسيطروا عليهم حتى إن جمال باشا بعظمته كان يخشى فون كريس ولم يستطع أن يبرله طلباً فلما اجتمع القواد للمذاكمة أصر على مهادنة القنال بقوة كبيرة للاعتقاد أنه يدخل مصر بسهولة بناء على استكشافاته أن قوة الإنكليز كان ضعيفة فحالفته سعد الله بك رئيس أركان حرب جمال باشا وكان رأيه أن يرسل بضعة طوابير لتشغيل القنال ومسلحتهم فقط لأنه يرى أن اختراق البحرية جيش كبير لايرجى منه نفع فاستثمر فون كريس غضباً وأرغمه جمال باشا على اتباع رأيه ونفي سعد الله وقوله وفصمه من القيادة العامة ثم زحف بقوة مؤلفة من ثلاثين ألف جندي مسلح وكان وراءهم فرقة أزيم المتزامنة فوصلوا القنال وكشفوها وبعد معركة قليلة فشل العثمانيون وعادوا أدرجتهم ولكن فون كريس بقي خيراً في "الابن" يتردد على جميع مراكز الصحراوية ويهز على الإنكليز ويشغلهم بأربعة
طوابير فقط، لقد استدرجنا الأناكليز مرة وأوقع بهم في قطيعة وأسر منهم أميراء وضباطاً وجنوداً ولكنه لم يعنى سيرهم فقدهم طريقهم الخديبة ومياههم النيلية إلى أن بلغوا العريش واحتلوا وأخرجوا الأتراك من الصحراء وانقضوا على غزة فكادوا يمتلكونها ثم خسروا الواقعة واستطاع الراكان فلم يظهروا بحاليها وثبتت أمامهم فانسحبو حول جناح الأتراك الأيسر "السع" وعطفوا عليه فانسحب إلى الوراء وтраجمت القوات إلى الشلالة ثم وادي الصرار وهناك انصطرت إلى شقين أحدهما ارتد خليعزلة القدس والآخر ساح في سهول طولكرم فعقب الأناكليز الشق الأول وأوقعوا به في بيت عمر والبني صموئيل وحصروا القدس ودخلوها في 9 كانون أول سنة 1917م وظلوا يتدرون فلول الجيش إلى أن رسم على خط متحرك فخساد الأناكليز أمامهم من السلط إلى سنجل ودير غسنا وقيل يافا وحرم على بن علي وطلم بالمقاتلين المقام وهم في سجال حتى اخترق عرسان الأناكليز خط طولكرم واكتسبوا الجيش التركي وأسر أو أكثروا وقابلهجهم الجيش العربي في ذراعه فاشتكى معهم وهجموا على سورية يطاردون الأتراك فأخروهم من البلاد العربية وتولت الإدارة في سورية جلالة الملك فتح وفى الساحل فرنسا وفي فلسطين الأتراك.

أخسر الأتراك عن بلادنا ولم يتركوا لنا شيئاً من المدينة. حكمونا سنة فاين تكنهم العسكرية؟ وأين طرخهم العمرانية؟ أي مدارسهم ومعاهدهم العلمية؟ أي آثارهم الفنية وإصلاحاتهم المدينة؟ لاشئ من هذا.

- 257 -
سلم الأتراك للحلفاء مطالبهم فعقدوا المؤتمرات وحكموا عليهم في مؤتمر سفيرو وسان ريو وفرساني بنزع جميع أملاكهم في أوروبا وإعطائها لليونان وتكون الأستانة والضائيق تحت مراقبة الحلفاء ومنطقة زMBER لليونان، ضالياً لبريطانيا وكليكي لفرنسا وسلخت عنها جميع جزر الأركيل وسائر البلاد العربية والكردية وأجبر تركيا على التنازل عن جميع حقوقها في كل بلادها المحتلة من انكلترا وفرنسا وإيطاليا وقبلوا ذلك إلا أن البطل التركي مصطفى كما باشا أبي أن يقر الذل في أمه وانسحب إلى الأناضول والتف حوله خيرة قومة وأصبح جيشه على قوة مدهشة وساعدته السياسة على ذلك فاختيَر إيطاليا من ألمانيا وفرنسا من كليكي وحارب اليونان وقذف بهم في اليم واحتل الأستانة وحسب دعويهما قبل الحلفاء مندوبيه في مؤتمر لوزان بعد أن رفضوا وألغى المعاهدات الأولى.

(100) الهجرة

ماقرب الجيش الأنكلسي في بلاد مستحكما إلا وظن الأتراك أن أهلها يضروهم لهم سوءاً فيفرغونها من السكان بأمر منهم بالمهاجرة إلى بلاد قاصية فقد هاجروا غزوة وياها وأكثر القرى التي كانت تقع على خط النار أو بين الخطين خشية اتصال الجواسيس أو نقل الأجري فلما أتى الأنكليز وجدناهم يعقبون عن تلك السياسة ونفس هذه الإدارة فإنهم ما دخلوا قريه إلا أخرجوا أهلها منها واعتقلوا كثيرين فضايع أناث الأمن وإيال وفقدت سلعهم وكم من بناء هدم في سبيل الحرب.

-258-
لم يحلم بما كان محنيناً لنا في لوح الغيب فقد جاءت الحرب وجعلت معها
الشقاء ففقد من البلاد الكريبت والكاز والسكر والقهوة والأرز وغير ذلك
من الواردات الخارجية فترم الناس من ذلك ثم ألقى واستعضا عنه بغيره
ولكن قلت الضيافات والزيارات وعذر بعضهم بعضاً وقصر اليسان عن اللوم
فبرزت المخدرات إلى العمل وتساوق في جلب المشاعر وإحراق القوت [إلا أن
الفلاح صاحب الحاصلات ظل حالة مستوراً] وقد كنا نرى النمل مرفقة
واللباس مرفوياً والطريوش مقلوباً حتى أن المسافر يخلع نعله توافراً ... ولكن
اجتماع الجند والأهالي ببعضهم البعض أكسبهم فائدة الاقتباس وشاهدوا
الأمام واحتمموا بهم فنقلوا عنه كثيرة وساروا خطوة واسعة إلى الإمام
فالقروى الساذج الذي عاش المدنى قبس عادته وما حسن لديه وأبناء المدن
الصغيرة سرت لهم العدو لما عاشروا أبناء بروت ودمشق وحلب واجتذبوا
منهم الحسن ودب اسهم ريح الحركة من الألمان وكذلك الأنكليز ثم أضروا
مسارى غيرهم فعلموا أنهم بشر ليسوا بخير منهم فلم يفصلهم على أنفسهم
وطمحوا إلى مسواتهم.
الفصل الثامن عشر
الاحتلال البريطاني

(21) الإدارة العسكرية

في أواخر سنة 1917م اكتشف الجيش البريطاني جنوب فلسطين واخترق منطقة طولكرم في 19 إيلول سنة 1918م قضى على الجيش التركي وجلت الحكومة العثمانية عن البلاد وقامت على أثرها حكومة إنكلزية Claytonة دعى "إدارة بلاد العدو المحتلة" وتعيين الجنرال كلاينت Watson مديرًا عامًا لها ثم خلفه الجنرال موني فانجنرال وطسن Money وقد تغيرت هذه الإدارة في إبتداء سنة 1920م إدارة ملكية على رأسها السر هيربرت صمويل مديروًا سامياً للجلاة الملك جورج وعهد إليه تنفيذ وعد بلفور بجعل فلسطين وطناً قومياً ليهود كما قرر مؤتمر سان يرو في 20 نيسان من سنة 1920م فقدم المندوب السياسي وتلا أمر "فرمان" جلالة الملك في الطور يوم الأربعاء في 7 تموز ونها نصه:

"إلى مأمور من فخامة جلالة الملك جورج الخامس أن أبلغكم الرسالة الآتية:

إلى أهالي فلسطين

إن الدول المحلفة التي نالت الفوز الباه في هذه الحرب قد أودعت

- 271 -
بلادى أمر الوضاية على فلسطين لكي تسهر على صوابها وتكفي بلادكم
العمران السلمي الذي طلما كنت تتشدونه. أنت ذكر بإفخار العمل المجيد
الذي قامت به جنود تحت قيادة الفيلد مارشال اللورد اللنبي بتحرير بلادكم
من النبر الشركي وسأتهم حقيقة إذا وفقت أنا وشعبي أيضاً إلى أن نكون
وسيلة لكم لتنالوا السعادة يوجد إدارة حازمة وصادقة. أن أرغب أن أؤكد
لكم أن الدولة ذات الوضاية ستنتذ ما عليها من الواجبات بدون محاولة مطلقاً
كما وأن في عزم حكومتي أن تحم حرك حقنا العناصر والمذاهب على اختلافها
في المدة التي يلزم انقضاؤها إلى أن يصادق مجلس عصبة الأمم نهائياً على أمر
الوضاية وفي المستقبل عند ما تكون قد صارت الوضاية أمواً واقعاً.
لا أتفاهم أن الدول المتحالفة والمشتركة قد قررت أن تتخب التدابير
لتضمن تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين بالتدريب، وهذه التدابير لن تؤثر
قطعاً على حقوق الأهلية الدينية أو المدينة وننقص من الرقى الموئل لمجموع
طبقات الشعب الفلسطيني: أنى وافق أن المندربي السامي الذي انتخبه
هذه المبادئ سيجعل ذلك بعزم ثابت وفي شدة صادقة وسيخدام لاستعمال كل
وسائل التي تؤول إلى خطر واتخاذ طبقات الشعب على اختلاف مذاهب. أنى
أدرك جيداً خطورة الانتكاس المخلة بحكومة البلاد التي يقدسها المسيحي
والمسلم واليهودي على السواء وساحل حركة بكل اعتراض وعاطفة حارة في
المستقبل على رقي وعمران البلاد التي ينظر العالم إلى تاريخها باهتمام عظيم.
ثم تلاه مرة ثانية على جبل الكرمل في حيفا وشرع بتطبيق قرار

-792-
الحلفاء فجعل لغات البلاد الرسمية ثلاثةً العربية والإنكليزية والعربية واعترف بوجود القوميين الصهيوئى ووظائفه وحاول أن يقمع العرب بأن الصهيونية نافعة وفيدة فأخفق في سعيه وخسرت سياسه وهذا نقول كلمة عن تاريخ الصهيونية.

(103) الصهيونية

تنسب الصهيونية إلى صهيون أحد التلال القائمة عليه ببيت المقدس.
والذي كان علمى بالمدينة ثم أصبح مرادفاً إلى فلسطين.
فالصهيونية حركة يهودية غرضها الأجل الرجوع إلى فلسطين جميع شعبهم المبذور بين جميع الأجناس والطوائف وفي كل بقعة الأرض وهي منطوية على مبادئ اقتصادية وسياسية ودينية لا محل هنا لاستيفائها.

إن أكبر محرك لاحياء هذه الروح في نفس اليهود هو توالى اضطهادات الأوروبيين لهم ونفورهم منهم لأنهم يميلون إلى الربا القاتل ولأنهم مستهلكون غير مدينين ولرغبتهم في احتكار التجارة وتعصبهم الديني وهذه نبذة من صلابتهم اليومية:

"لم يخلقنا الله مثل بقية الشعوب ولم يجعل مقاما مثل مقام الأمم الأخرى."

وأن رجال الغرب مهما تظاهروا بالتسامح المدني مع اليهود فإنهم غير راضين عنهم اجتماعياً فقد استوحش منهم الروس وافتحوا فيهم سنة
1881م فقام نفر منهم ونادى جميع اليهود في بلغة واحدة فاستحسن هذه الفكرة كثير منهم ولكنهم اختفوا في تعيين الخلل الذي يتذوته وطناً لهم فاقترح البارون هرش أن يكون في جمهورية الأرجنتين، وذهب زنكويل باستيطان شرق أفريقيا أو أوغندا وحيد بعضهم الرجوع إلى العراق ومنهم من فضل طرابلس المغرب أو شبه جزيرة سيناء أو نيكاراغوا في أمريكا الوسطى وظلوا مختلفي الرأي حتى سنة 1891م إذ نجم من فيما هرزل مؤسس الصهيونية المعروفة الآن وجمع عدداً من كبار مفكري اليهود وعقدوا مؤتمراً في باريس "سويس" وأجتمعوا على اتخاذ فلسطين مهجراً ووطناً فذهب هرزل إلى الأستانة وباشر مفاوضة الباب العالي فلم ينجح إلا بأخذ رخصة بتأسيس مدرسة نيز الزراعية وشرع ببناء بعض مستعمرات "قرى" يهودية وكان كلما أعوضة غير من العقبات والمشاكل اقتضتها. وقد انضم إليه نفر كثير من اليهود بعد حادثة الضابط اليهودي دريفوس فنشط وثار على جمع الأموال ويبث الدعوة "البروباغاندا" وأسسوا الشركات المالية ونشروا الروح الصهيونية بين اليهود فاستعد فريق منهم لقيلهها وفي أثناء الحرب العظمى فتح الزعيم الصهيوني وایزمان وافق وزارة لويد جورج بجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود فطق بصريحة المشهور وهو:

"تنظر حكومة جلال الملك البريطاني بعين الرضى إلى أنشاء وطن قومي في فلسطين وتبذل الجهود في سبيل ذلك على أن لا يجري ماضر بحقوق غير اليهود في فلسطين الدينية والدنية أو ماضر بما لليهود من الحقوق والقسم السياسي في ماسوها من الممالك".

- 264 -
وإذا ذكرنا هناأعمال كبيرة تتم على عهد المندوب السامي،
والتي تشمل انتخاب مؤقت مؤلف من العرب واليهود وفتح أبواب
فلسطين لمهاجري اليهود وتأسيس مجلس إسلامي أعلى يدير الأوقاف ومحاكم
الشرعية الدينية مؤلف من رئيس وأربعة أعضاء.

وأنكر العرب السياسة الصهيونية فأسسو الجمعيات الإسلامية
المسيحية في جمع البلد واختلفوا عليها وثاروا وطلبوا إلى الحكومة تعديل
خطتها ثم أرسلوا وفوداً إلى لندن والحجاز وأنترب ولوزان ولندن "ثانية" وقد
وجدوا من لوردات الأنكليز وأشرافهم مناصرة وعطفاً.

وقد بذل المندوب السامي سعه للتوافق بين العرب واليهود فلم يفلح
وهو المشهور باللطف وحصافة العقل. وحدث فتيل حين المنازع بين الأول في
القدس والعربية في يافا قبل فيما عدد ليس بقليل فهدأتهم الحكومة بالقوة.
فهذا تاريخ فلسطين وجل ما وقع فيها من حوادث قد طويها بعد
التكيف بين دفتي هذا السفر الصغير والله ولي التوفيق...

***

265
المصادر والمراجع

- التوراة
- التاريخ العام - مير
- التاريخ القديم - بورتر
- تاريخ سورية - المطران الدبس
- فلسطين وتجديدها - حنا صلاح
- أبو الفدا
- ابن الأثير
- الأنس الجليل - الخليلي
- مروج الذهب - المسعودي
- تاريخ الطري
- ابن خلكان
- الواقدی
- مقدمة ابن خلدون
- تاريخ التمدن الإسلامي - زيدان
- تاريخ مصر الحديث - زيدان
- تاريخ دول الإسلام - منفیوس
- تاريخ الدول العثمانية - فريد وجدی
- مشهد العيان في تاريخ سورية وليبنان - مشاقة
- The works of Josephus.
- Biblical Geography and History - Kent.
- The House of the Seleueids - Bevan.
- Jerusalem Under the High Priests - Bevan.
- The Philistines - Maerialister.
- The Rise and Fall of the Roman Empire - Gibbon.
- Palestine under the Moslems - Guy Le Strange.
- The Encyclopedia Britannica.
- The Orient in Bible Times - Grant.
فهرس الكتاب
<table>
<thead>
<tr>
<th>رقم الصفحة</th>
<th>اسم الموضوع</th>
</tr>
</thead>
<tbody>
<tr>
<td>3</td>
<td>مقدمة المؤلف</td>
</tr>
<tr>
<td>5</td>
<td>مقدمة الكتاب</td>
</tr>
<tr>
<td>7</td>
<td>القسم الأول</td>
</tr>
<tr>
<td>8</td>
<td>من بدأ التاريخ إلى الفتح الإسلامي</td>
</tr>
<tr>
<td></td>
<td>الفصل الأول</td>
</tr>
<tr>
<td>9</td>
<td>تاريخها قبل اليهود</td>
</tr>
<tr>
<td>9</td>
<td>حدودها</td>
</tr>
<tr>
<td>10</td>
<td>مساحتها</td>
</tr>
<tr>
<td>10</td>
<td>اسماؤها</td>
</tr>
<tr>
<td>11</td>
<td>تأثير موقعها الجغرافي على تاريخها</td>
</tr>
<tr>
<td>13</td>
<td>سكانها</td>
</tr>
<tr>
<td>25</td>
<td>الفصل الثاني</td>
</tr>
<tr>
<td>25</td>
<td>اليهود في فلسطين</td>
</tr>
<tr>
<td>25</td>
<td>دور البداوة</td>
</tr>
<tr>
<td>29</td>
<td>عصر القضاة</td>
</tr>
<tr>
<td>31</td>
<td>اليهود كامة</td>
</tr>
<tr>
<td>36</td>
<td>انقسام المملكة وخرابها</td>
</tr>
<tr>
<td>37</td>
<td>المملكة اسرائيل</td>
</tr>
<tr>
<td>39</td>
<td>السمرة</td>
</tr>
<tr>
<td>41</td>
<td>مملكة يهوذا</td>
</tr>
<tr>
<td>45</td>
<td>بعض أنبياء اليهود</td>
</tr>
<tr>
<td>رقم الصفحة</td>
<td>اسم الموضوع</td>
</tr>
<tr>
<td>---------</td>
<td>-------------</td>
</tr>
<tr>
<td>49</td>
<td>الفصل الثالث</td>
</tr>
<tr>
<td></td>
<td>من نبوخذ نصر إلى بوبي</td>
</tr>
<tr>
<td>49</td>
<td>فلسطين في يد الفرس</td>
</tr>
<tr>
<td>50</td>
<td>اليونان في فلسطين</td>
</tr>
<tr>
<td>53</td>
<td>السلوقيون البطالسة</td>
</tr>
<tr>
<td>54</td>
<td>المكابيون</td>
</tr>
<tr>
<td>57</td>
<td>الفصل الرابع</td>
</tr>
<tr>
<td>57</td>
<td>الاحتلال الروماني</td>
</tr>
<tr>
<td>57</td>
<td>هيرودس</td>
</tr>
<tr>
<td>60</td>
<td>السيد المسيح</td>
</tr>
<tr>
<td>63</td>
<td>جلال اليهود ثانية</td>
</tr>
<tr>
<td>69</td>
<td>قلعة مسادا</td>
</tr>
<tr>
<td>70</td>
<td>هدريان</td>
</tr>
<tr>
<td>72</td>
<td>قسطنطين ونصير فلسطين</td>
</tr>
<tr>
<td>73</td>
<td>آثار الرومان واليونان</td>
</tr>
<tr>
<td>77</td>
<td>القسم الثاني</td>
</tr>
<tr>
<td>77</td>
<td>الفتح الإسلامي حتى عصر العثمانيين</td>
</tr>
<tr>
<td>77</td>
<td>الفصل الخامس</td>
</tr>
<tr>
<td>77</td>
<td>العرب قبل الإسلام</td>
</tr>
<tr>
<td>80</td>
<td>النهضة الإسلامية</td>
</tr>
<tr>
<td>83</td>
<td>النبي محمد صلى الله عليه وسلم</td>
</tr>
<tr>
<td>رقم الصفحة</td>
<td>اسم الموضوع</td>
</tr>
<tr>
<td>------------</td>
<td>-------------</td>
</tr>
<tr>
<td>84</td>
<td>انفاذ جيش أسامة</td>
</tr>
<tr>
<td>85</td>
<td>وقعة البرموك</td>
</tr>
<tr>
<td>90</td>
<td>وقعة اجنادين</td>
</tr>
<tr>
<td>91</td>
<td>فتح بيت المقدس</td>
</tr>
<tr>
<td>95</td>
<td>ادارة البلاد وأسباب نجاح العرب</td>
</tr>
<tr>
<td>98</td>
<td>الفتح الإسلامي والخلفاء الراشدين</td>
</tr>
<tr>
<td>101</td>
<td>نبذة عن القرآن</td>
</tr>
<tr>
<td>103</td>
<td>آثار الخلفاء</td>
</tr>
<tr>
<td>103</td>
<td>ابطال النهضة الإسلامية</td>
</tr>
<tr>
<td>112</td>
<td>الفصل السادس</td>
</tr>
<tr>
<td>112</td>
<td>فلسطين أموية</td>
</tr>
<tr>
<td>116</td>
<td>بناء الحرم الشريف</td>
</tr>
<tr>
<td>118</td>
<td>الواقع الأموري</td>
</tr>
<tr>
<td>123</td>
<td>محدثات بنى أمية وميزاتهم</td>
</tr>
<tr>
<td>125</td>
<td>بعض أبطال الدولة الأموية</td>
</tr>
<tr>
<td>128</td>
<td>الدعوة العباسية</td>
</tr>
<tr>
<td>131</td>
<td>الفصل السابع</td>
</tr>
<tr>
<td>131</td>
<td>فلسطين عباسية</td>
</tr>
<tr>
<td>137</td>
<td>الفصل الثامن</td>
</tr>
<tr>
<td>137</td>
<td>الدولة الطولونية</td>
</tr>
<tr>
<td>139</td>
<td>الدولة الأخشيدية</td>
</tr>
</tbody>
</table>

272-
<table>
<thead>
<tr>
<th>رقم الصفحة</th>
<th>اسم الموضوع</th>
</tr>
</thead>
<tbody>
<tr>
<td>142</td>
<td>بعض أبطال الدولة العباسية</td>
</tr>
<tr>
<td>147</td>
<td>الفصل التاسع</td>
</tr>
<tr>
<td>147</td>
<td>الدولة الفاطمية</td>
</tr>
<tr>
<td>152</td>
<td>الحاكم بأمر الله</td>
</tr>
<tr>
<td>156</td>
<td>الدولة السلجوقية</td>
</tr>
<tr>
<td>159</td>
<td>الفصل العاشر</td>
</tr>
<tr>
<td>159</td>
<td>الصليبيون</td>
</tr>
<tr>
<td>162</td>
<td>فتح القدس</td>
</tr>
<tr>
<td>167</td>
<td>الفصل الحادي عشر</td>
</tr>
<tr>
<td>167</td>
<td>حالة العالم الإسلامي</td>
</tr>
<tr>
<td>172</td>
<td>معركة حطين</td>
</tr>
<tr>
<td>176</td>
<td>الحملة الصليبية الثالثة</td>
</tr>
<tr>
<td>180</td>
<td>صلاح الدين ومواسم فلسطين</td>
</tr>
<tr>
<td>182</td>
<td>الدولة الأيوبي</td>
</tr>
<tr>
<td>187</td>
<td>الخوارزمية</td>
</tr>
<tr>
<td>188</td>
<td>أضرار الحروب الصليبية</td>
</tr>
<tr>
<td>192</td>
<td>فرسان مار يوحنا</td>
</tr>
<tr>
<td>193</td>
<td>الهيكل</td>
</tr>
<tr>
<td>195</td>
<td>الفصل الثاني عشر</td>
</tr>
<tr>
<td>195</td>
<td>الممالك البحرية</td>
</tr>
<tr>
<td>195</td>
<td>الملك المظفر قطر</td>
</tr>
<tr>
<td>اسم الموضوع</td>
<td>رقم الصفحة</td>
</tr>
<tr>
<td>--------------</td>
<td>-------------</td>
</tr>
<tr>
<td>الدولة العثمانية</td>
<td>198</td>
</tr>
<tr>
<td>الملك الظاهر بيرس</td>
<td>199</td>
</tr>
<tr>
<td>انتقال الخلافة العباسية إلى مصر</td>
<td>200</td>
</tr>
<tr>
<td>محمد بن قلاوون</td>
<td>200</td>
</tr>
<tr>
<td>الملك الجراكسة</td>
<td>200</td>
</tr>
<tr>
<td>أبو سعيد برقوق</td>
<td>201</td>
</tr>
<tr>
<td>محمد البتكر</td>
<td>202</td>
</tr>
<tr>
<td>القسم الثالث: عهد الدولة العثمانية</td>
<td>205</td>
</tr>
<tr>
<td>الفصل الثالث عشر</td>
<td>205</td>
</tr>
<tr>
<td>تمهيد</td>
<td>205</td>
</tr>
<tr>
<td>نشوء الدولة العثمانية</td>
<td>207</td>
</tr>
<tr>
<td>السلطان سليمان</td>
<td>209</td>
</tr>
<tr>
<td>الأمير علي المصري وظاهر العمر</td>
<td>211</td>
</tr>
<tr>
<td>أحمد باشا الجزار</td>
<td>214</td>
</tr>
<tr>
<td>الفصل الرابع عشر</td>
<td>217</td>
</tr>
<tr>
<td>بونابرت في فلسطين</td>
<td>217</td>
</tr>
<tr>
<td>مشور نابلس</td>
<td>220</td>
</tr>
<tr>
<td>ثورة جيل نابلس</td>
<td>225</td>
</tr>
<tr>
<td>ابراهيم باشا</td>
<td>227</td>
</tr>
<tr>
<td>ثورة أمراء فلسطين</td>
<td>228</td>
</tr>
<tr>
<td>حرب القرم</td>
<td>229</td>
</tr>
<tr>
<td>رقم الصفحة</td>
<td>اسم الموضوع</td>
</tr>
<tr>
<td>------------</td>
<td>--------------</td>
</tr>
<tr>
<td>231</td>
<td>نقود ومزاين ومكاييل فلسطين</td>
</tr>
<tr>
<td>234</td>
<td>بعض أسواق فلسطين</td>
</tr>
<tr>
<td>234</td>
<td>أقسام فلسطين الإدارية</td>
</tr>
<tr>
<td>236</td>
<td>قيس ومن</td>
</tr>
<tr>
<td>241</td>
<td>الحرية في فلسطين</td>
</tr>
<tr>
<td>244</td>
<td>ثورة حوران</td>
</tr>
<tr>
<td>245</td>
<td>الفصل الخامس عشر</td>
</tr>
<tr>
<td>246</td>
<td>الحرب العظمى</td>
</tr>
<tr>
<td>248</td>
<td>التموين</td>
</tr>
<tr>
<td>248</td>
<td>وسائل النقل</td>
</tr>
<tr>
<td>248</td>
<td>تعبيد الطرق</td>
</tr>
<tr>
<td>250</td>
<td>المؤسسات</td>
</tr>
<tr>
<td>250</td>
<td>البعثة الألمانية العسكرية</td>
</tr>
<tr>
<td>251</td>
<td>الجراد</td>
</tr>
<tr>
<td>252</td>
<td>الحركة الاقتصادية</td>
</tr>
<tr>
<td>253</td>
<td>الصحة العمومية</td>
</tr>
<tr>
<td>253</td>
<td>الأخلاق العمومية</td>
</tr>
<tr>
<td>254</td>
<td>الديوان العرفي</td>
</tr>
<tr>
<td>255</td>
<td>الثورة العربية</td>
</tr>
<tr>
<td>256</td>
<td>الحملات الحربية</td>
</tr>
<tr>
<td>258</td>
<td>الهجرة</td>
</tr>
</tbody>
</table>

- 275 -
اسم الموضوع
الفصل السادس عشر
الاحتلال الأنكلىزي
تاريخ الصهيونية
مصادر البحث
فهرس الكتاب

<table>
<thead>
<tr>
<th>رقم الصفحة</th>
<th>اسم الموضوع</th>
</tr>
</thead>
<tbody>
<tr>
<td>261</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>261</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>262</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>267</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>269</td>
<td></td>
</tr>
</tbody>
</table>

<table>
<thead>
<tr>
<th>رقم الإيداع</th>
<th>I. S. B. N</th>
</tr>
</thead>
<tbody>
<tr>
<td>2001/7694</td>
<td>977-341-027-7</td>
</tr>
</tbody>
</table>

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية